

الموقف الحضاري من النزعات الدينية ودراسات أخرى

حسين أحمد أمين

الموقف الحضاري

من النزعات الدينية ودراسات أخرى

حُسَين أحمَد أَمِين

فهرس

القسم الأول

عروبة وإسلام

الموقف

الحضاري من النزعات الدينية

كان أعظم فضل لحضارة الآشوريين في القرنين الثـامن والسابع قبل الميلاد على منطقة الشرق الأوسط، هو التقريب بين الشعوب في أقطار المنطقة، ومـزج ثقافاتهـا وأديانهـا وتقاليدها في نتاج جديد، عم أرجاءها، وخدم قضية الإخـاء والسلام بين الأمم.

وقد ساعد الآشوريين على تحقيـق هـذه المهمـة عـدةُ اعتبارات:

- تطبيـق قـوانين واحـدة علـى كافـة أراضـي الإمبراطورية، استلهموا في سنها قوانين حـامورابي الشهيرة في بابل، وهو ما أرسـى أساسـا قانونيـا مشتركًا في مساحة واسعة من الشرق الأوسط، تمتد من حدود مصر إلى إيران، ومن هضبة الأناضـول إلى الخليج الفارسي.
- تشجيع التبادل التجاري بين أقطار المنطقـة، وهـو تبادل هيمن الآراميون فيه علـى التجـارة البريـة،

والفينيقيون على التجارة البحرية.. فإن كانت الشبكة الواسعة من الطرق الممهدة قد أقامهـا الآشـوريون أصلا لتسهيل تنقل الجيوش من بلد إلـى بلـد، فقـد خدمت وقت السلام تنقلَ السلع وقوافل التجارة بـين الأقطار.

- وضع حاميات في مختلف أنحـاء الإمبراطوريـة، هدفها إخماد حركات التمرد والعصيان، وتشكيلها من جنودٍ مختلفي الجنسيات أدى الاختلاطُ فيمـا بيـنهم، واختلاطُهم بأهالي المناطق التي يخدمون فيها، إلـى المزيد من التقارب والتجانس والتفاهم، وإلى امتزاج ثقافاتهم وتقاليدهم وعاداتِهم ودياناتِهم المتنوعة.
- نقل حشود غفيرة من الثوار والمتمردين من أوطانهم إلى أنحاء قاصية من الإمبراطوريـة علـى سـبيل العقوبة، وعن رغبة في استتباب الأمـن، واخـتلاط تلك الحشود بمرور الوقت، وعلـى نحـو متزايـد، بأهالي البقاع الجديدة التي نُقِلوا إليها.
- غلبة اللغة الآرامية وأبجديتها علـى لغـات أقطـار المنطقة، واستخدام مختلف الشعوب لها في أسفارهم

ومعاملاتهم بعضهم مع بعض؛ بحيث باتت أساسا ثقافيا مشتركًا في الشرق الأوسط.

- مكافحة التعصب الديني المحلي، وتشجيع النظرة الأوسع أفقًا إلى الدين والآلهة، بحيث ينكمش الجفاء والعداوة الناجمان عن اختلاف أديان شعوب المنطقة. وقد استلزمت مكافحة هذا التعصب الديني قضاء الآشوريين على دولة إسرائيل عام ٧٢٢ قبل الميلاد.

وقد سبق إخناتون الآشوريين في إدراكه أهمية هذه النقطة الأخيرة الخاصة بالدين؛ إذ ارتأى أن إحلال عبادة الشمس التي يمكن أن تفهمها شعوب الإمبراطورية المصرية، محل عبادة آلهة محلية، والتي لا يمكن أن تستهوي أفئدة غير المصريين، من شأنه أن يعزز من الروابط التي تربط بين أنحاء هذه الإمبراطورية. فإن كانت تطلعات إخناتون قد باءت بالفشل، فإن الفشل لم يكن راجعا إلى قصور في فكرته، وإنما كان بسبب قوة الرجعيين من كهنة آمون والنبلاء في مصر الذين قاوموه وحاربوه وأسقطوه.

موقف

الفرس من المؤسسات الدينية

وقد استفادت دولة الفرس التـي قامـت علـى أنقـاض الحضارة الآشورية من وسائل الآشوريين في إرساء أسـس حضارة عالمية، غير أن هذه الاستفادة لم تبدأ إلا في عهـد داريوس الأكبر (٥٢٢ – ٤٨٦ ق.م)، فأما قورش وقمبيـز قبله، فقد شُغِلا بالحرب وتوسيع حدود الإمبراطوريـة، دون العناية بخلق إدارة موحدة وسن قـوانين واحـدة للأقطـار المفتوحة. بل إن قورش خلخل من دعائم الحضارة الواحـدة في الشرق الأوسط، بأن سمح بعودة الشعوب المختلفة إلـى نظمها الدينية المحلية القديمة التي حاربها الآشوريون، وشجع هذه العودة، حتى يظهر جنوده بمظهر محرري الشعوب من ربقة الاستعمار، ويسهل عليهم النصر في ميادين القتال.. لم يفعل ذلك مع اليهود وحدهم (وهو الذي أطلقهم مـن الأسـر البابلي، وسمح لهم بالعودة إلى ديارهم بفلسطين)، بل ومـع سائر الشعوب الأخرى.. غير أن مقتضيات الزمن والتطـور والحضارة، سرعان ما ألزمت الفرس بـالعودة إلـى نهـج

الآشوريين. فسياسة قورش المتمثلة في مـنح حـق الإدارة الذاتية واسعة النطاق لكهنة المعابـد، وللمؤسسـات الدينيـة المحلية، نجم عنها - في وقت قصير - خلق بـؤر للتمـرد والثورة بقيادة زعماء محليين ذوي مطامح سياسية، مما أقنع الفرس بضرورة النكوص عنها.

وإذ قامت الثورة في بابل، انتقم الفرس من أهلها بتدمير معبد الإله ماردوك. كذلك فإنه حين اشتعلت الثورة في مصر عام ٣٤٣ ق. م، هاجمت القوات الفارسية المعابد الرئيسـية ونهبتها، وشردت كهنتها.

وقد كان لإخماد الفرس لهذه الثـورات، واقتنـاعهم فـي النهاية بضرورة محاربة التنظيمات الدينية في أمصار الدولة، أثرهما في القضاء على النزعات الانفصالية، وإفقاد رجـال الدين وقارهم المستمد من عراقة قدم دينهم. وكان نتيجةَ كل ذلك أن بدأت شعوب أقطار الإمبراطورية الفارسـية تعيـد النظر في ماضيها الحضاري كله، وتعيـد تقييمـه، وتقتنـع بضرورة الانصهار في بوتقة الواقع الجديد، والتأقلم والتكيف معه، بل وبمزايا امتزاج الثقافات والأديان والتقاليد، وكلهـا أمور سهلت على الإسـكندر الأكبـر (٣٣٤ – ٣٢٣ ق.م)،

وعلى الدولة الرومانية بعده، مهمة خلق إمبراطورية متجانسة، ذات حضارة واحدة، عرفت من التسامح الديني ما لم يعرفه العالم القديم قبلها.

إخناتون وكهنة آمون

نعود بعد هذا إلى إخناتون؛ فقد شهدت مصر في عهده صراعا بين القوى الداعية إلى التجديد والابتداع والعالمية والاستفادة من ثمار الحضارات المجاورة، وبين القوى المحافظة المتمثلة في الكهنة وأشياعهم ممن كانوا يرون في أي تجديد أو بدعة خطرا على مصالحهم ونفوذهم، ولا يرون في الحضارات الأخرى وفنونها ما يفوق أو يعادل ما قدمه الأسلاف من قدماء المصريين، ويفسرون أي انحطاط في السلطة السياسية، أو أية هزيمة عسكرية، بأنه مظهر لغضب الآلهة على المصريين، لهجرهم سنّة الأوائل، وتبنّيهم لعادات أجنبية.

غير أن هذه الروح المحافظة، في ذلك العهد كانت تخفي وراءها في واقع الأمر قلقًا عميقًا وتآكلا ملموسا في الثقة بالنفس.. لقد كان بوسع المصريين في الماضي – وقت المملكتين القديمة والوسطى، حين كانت الحواجز الجغرافية

تحميهم من الصلات والغزوات الأجنبية – أن يعيشـوا فـي اكتفاء ذاتي قائم على الإيمان بأنهم أرقى بكثير مـن سـائر الأمم، غير أن غزو الهكسوس لبلادهم زعزع منه – حتـى بعد تمكنهم من طرد الهكسوس – ما نجم عن غزوهم لأقطار آسيوية، واتساع حجم مبادلاتهم التجارية مع هذه الأقطـار، وكثرة المترددين المصريين علـى الخـارج مـن الجنـود والموظفين والتجار، وتدفّق الأجانـب علـى مصـر؛ إمـا للاستيطان أو للانخراط في صفوف الجيش المصري، مـن اطلاع على حضارات أخرى مغايرة، ليست بعض مظاهرها بدون حضارة الفراعنة.

وقد كان أعظم أمجاد أمنحوتب الرابع، إدراكه أن العبـادة القديمة السائدة في مصر، لا مكان لها في ظل هذه الظروف الجديدة، وأحوال العالم المتغيـرة حولـه، وأن مـن شـأن استمرارها أن يقضي على مصر بالتحجر؛ لهـذا قـام هـذا الفرعون الثائر (الذي غير حتى من اسمه وجعله إخنـاتون) بإغلاق المعابد القديمة، ومحو اسم الإله آمون، وابتداع عبادة قرص الشمس الذي تتعدى أفضاله وأياديـه حـدود مصـر لتشمل الإنسانية بأسرها، والذي يمكن للمصريين أن يجـدوه

في كل مكان يرحلون إليه في هذا العالم الواسـع، ويمكـن لغيرهم أن يجدوه متى قدموا إلى مصر، بمجرد تطلّع هؤلاء وأولئك إلى السماء فوقهم. وقد كانت هذه النظـرة العالميـة الثورية رد فعل منطقيا للواقع الجديد.. فهؤلاء المصـريون المنغلقون على أنفسهم لأمد طويل، أدهشهم حين خرجوا من جحورهم، وحين شرعوا في الانفتاح على العالم، أن يجـدوا الشمس تسطع وتبعث الضوء والدفء في كل مكان يرتحلون إليه خارج مصر شأنها في بلادهم، وأدركوا أن هـذا الإلـه العالمي الخير الذي يسبغ نعمته على البشر أجمعـين، مـن شأنه- متى اشترك البشر في عبادتـه - أن يخلـق بيـنهم صلات من التفاهم والتآخي والسلام هي في صالح العامة، لا كتلك الآلهة المحلية التي هي من صنع الإنسان، والتي مـن شأنها أن تفرق لا أن توحد.

هزيمة

إخناتون على يد الرجعية

كان إخناتون - إذًا - هو أول الموحدين، وأول داعٍ فـي التاريخ إلى النظرة العالمية الشـمولية، غيـر أن أتباعـه –

للأسف – كانوا قلة قليلة وسط بحر زاخر، فقد ناصره الجند والتجار والإداريون ممن طوفوا وجابوا أنحاء الإمبراطورية، واطلّعوا على أحوال الغير، وحضـارات الغيـر، وديانـات الغير، وخبروا تنوع الحياة وتنوع العقائـد خـارج حـدود مصر.. وقاومه رجال الدين ممن كانوا يمقتـون التـأثيرات الأجنبية، وأُسر النبلاء الذين ارتبطت مصالحهم وامتيـازاتهم بعبادة آمون، وحشود من الغوغاء المذعنين لـدجل رجـال الدين ولهيمنة النبلاء، وكانت قوة الرجعيين هي السبب فـي فشل أول محاولة لتعديل مسار مصر حتى تُجاري النزعـات العالمية الناهضة في منطقة الشرق الأوسط.. وقد حاول توت عنخ آمون (زوج ابنة إخناتون وخليفته في الحكـم)، رغـم عودته إلى عبادة آمون، أن يدخل بعض المفاهيم الجديدة في العبادة القديمة، غير أن الكهنة والنبلاء ما كانوا ليطيقون بقاء أي أثر للمارق الفاسد إخناتون، الذي خرج عـن معتقـدات شعبه، وفتح الباب على مصراعيه أمام التأثيرات الأجنبيـة، فأجهضوا محاولات توت عـنخ آمـون، وهـدموا قصـور إخناتون ومعابده، ومحوا اسم آتون حيثما وجد.. وسرعان ما تصالح الجيش بعد ذلك مع الرجعية، فكرس قائده حور محب

(الذي اغتصب السلطة عام ١٣٤٩ ق.م) كل جهوده واهتمامه للغزو، تاركًا شئون البلاد كلها في أيدي كهنة آمون وحلفائهم، وهم الذين تمكّنوا من القضاء على كل بدعة، وقمع كل تأثير أجنبي، وحكموا البلاد باسم شرع آمون، وادعوا لأنفسهم وحدهم سلطة تفسير هذا الشرع وتطبيقه، وتأويل نوايا الإله ورغباته.

وقد كان لانتصار الرجعية آثاره بعيدة المدى في الحضارة المصرية وفنونها، وفي نفسية أفراد الشعب. فقد هجر على الفور فن تل العمارنة بواقعيته وأساليبه المتحررة المتنوعة، وانحدر فنّا النحت والمعمار انحدارا ملحوظًا في عهد الرعامسة، بحيث بات التركيز الآن على الضخامة لا على الجمال ودقة الأداء.. كذلك تعاظم ميل المصريين إلى الانغلاق على أنفسهم من جديد، والتطلع إلى الماضي وأمجاد السلف الصالح، ومحاولة السير على نهج المملكة القديمة في تقاليدها ومعتقداتها وفنونها، وإن كانت الديانة الآن قد تسربت إليها خزعبلات شعبية من شأنها بعث الأمل في نفوس المطحونين المتعبين من أفراد الشعب، فأضحى الخلود في جنات النعيم من حق الجميع وفي متناولهم (لا من حق من

يرضى فرعون عنهم فحسب)، وأصبح كافيا أن يوضع مـع جثة الميت في تابوته بعض التعاويذ والتمائم السحرية، حتى تضمن له كل الحماية الضرورية من مخاطر العالم السفلي.

دولة

الإسلام وحضارة البيزنطيين

ثم نقفز في التاريخ قفزة كبيرة إلى زمن الدولة الإسلامية؛ حتى نواجه ظاهرة غريبة محيـرة، لقـد أُتـيح لحضـارتي الإغريق والرومان، مثلا، مجال واسـع مـن التـأثير فـي الشعوب الأخرى، دانيها وقاصيها، ممن خضع لحكمهـم أو احتفظ باستقلاله عنهم، وبدا هذا التأثير جليا في أفكار هـذه الشعوب وفنونها وعاداتها وأساليب عيشها، بل وحتـى فـي لغاتها.. فما الذي أعجز دولة الإسلام وهي في أوجها (ونعني بأوجها: القرون الأربعة الأولى بعد الهجرة) عن التأثير فـي الحضارة البيزنطية المتاخمة، أو التأثير بها، لدرجة أن أبـت كل من هاتين الحضارتين حتى أن تنتقـي مـن الحضـارة الأخرى بعض العناصر والمظاهر التي قد تكون نافعة لهـا، وجديرة بالاقتباس، مع تكييفها وفق الظروف المحلية؟

السبب في رأينا يرجع إلى ارتباط الحضـارة فـي تلـك الحقبة التاريخية، وفي كل من دولتَي الإسلام والبيـزنطيين، ارتباطًا وثيقًا بالدين، أدى إلى اتخاذ كل من الطرفين موقـف التصلّب والنفور والعداوة من الطرف الآخر.. فبناء الحضارة على أساس من الدين يقتضي التشدد فـي المحافظـة علـى العقيدة، والتشدد في حماية العقيدة يقتضي قبول نمط حضاري واحد، ورفض ما عداه باعتباره كفرا محضا أو مؤديا إلـى الكفر ... فأما تأثر الحضارة العربية تأثرا عظيما بحضـارة الفرس، فقد سهله قضاء العرب - منذ البداية قضاء مبرما - على الدولة الفارسية ودياناتها، بحيث لم يعد ثمة حرج فـي التوسع من الاقتباس من الحضارة الغابرة، ولا داع إلى تلـك المشاعر من النفور والعداوة تجاه أبنائهـا.. أمـا حضـارة البيزنطيين التي ظلت قائمة لثمانية قرون بعد ظهور الإسلام، فما تأثر بها غير أمويي الشام الذين كان الدين لدى غـالبيتهم هامشيا. لذلك فقد ظلت العلاقـات بـين حضـارة الإسـلام وحضارة البيزنطيين إلى وقت الحروب الصليبية (وحتى في زمن السلم الذي سمح بقيام بعض العلاقات التجارية بينهما)، علاقات متصلبة غير ودية، وظل أبناء كل منهمـا مـوقنين

بتفوق دينهم وأساليب عيشهم، على دين الآخرين وأساليب عيشهم، فلم يسعوا إلى تقليدٍ أو اقتباسٍ، مؤمنين بأن اقتباس أصحاب الدين الحق لأي مظهر من مظاهر حضارة الكفار، قد يدفع - فيما بعد - إلى اقتباس مظاهر أخرى، وهو ما من شأنه أن يؤدي في النهاية بالمؤمنين إلى التهلكة.

بين الإسكندر ونابليون

مثل هذا الوضع لم يكن معروفًا في زمن حضارتي الإغريق والرومان، وهما حضارتان لم يكن أهلهما وقت انتشار تأثيرهما في مختلف بقاع العالم بشديدي الإيمان أو التمسك بدياناتهم، وكان الشك في آلهتهم قد بدأ يتطرق إلى نفوسهم؛ لهذا فإنهم لم يحاولوا أبدا أن يقتلعوا ديانات الشعوب الأخرى، وأن يفرضوا عليهم دينهم. وهو بالضبط ما سهل على تلك الشعوب تبني مظاهر الحضارة الهيلينية، خاصة وهي ترى الإسكندر وجنده مثلا يقدمون القرابين لآلهة كل قطر يفتحونه. فإن كان بعض أباطرة الرومان، قد أصروا على أن تحل تماثيلهم في معابد أقطار الإمبراطورية، وأن تنال تلك التماثيل من العبادة والشعائر، ما تنال آلهتها هي،

فقد كان الدافع لهذا الإصرار منهم، هو ضمان الولاء السياسي للرعية، لا الرغبة في نشر الدين الحق.

وقد تكرر الأمر نفسه في العصر الحديث حين شرع الأوروبيون في استعمار أقطار آسيوية وإفريقية.. فقد أغفل المستعمرون – بدءا ببونابرت – اعتبار الدين، بحيث لم يبد الأمر في صورة استعباد أهل ملّة معينة لأهل ملّة أخرى، وأكّدوا أن مدنية الغرب الحديثة تقوم على أساس من العلم والتجربة، ومبادئ الحرية والديمقراطية، لا على الدين، وأنه لا مانع بالتالي يحول دون تبني شعوب الأقطار المستعمرة لمختلف مظاهر الحضارة الغربية، بل ولا بأس حتى من أن تصبغ تلك المظاهر عند تبنيها صبغة روحانية نابعة عن دياناتها. وقد كان المستعمرون – في بعض الحالات على الأقل – صادقين في زعمهم؛ إذ لم يعد الدين عند غالبيتهم – كما عند غالبية الإغريق والرومان – يعني الكثير أو القليل. وهو بالضبط ما يسر على شعوب المستعمرات تقبل حضارتهم.. كل ما كان يهم المستعمرون في هذا الصدد هو "أن "يهدهدوا التعصب الديني" على حد تعبير الآشوريين في

أواخر القرن الثامن قبل الميلاد، وتعبير بونابرت في آخـر القرن الثامن عشر بعد الميلاد.

اضمحلال حضارة الإسلام

وننتقل الآن إلى العصر الحديث الـذي يقـال بصـدده – وبحق – إن حضارة أوروبا الغربية، قد فرضت أو كـادت تفرض نفسها فيه على الكرة الأرضية بأسرها، بعد أن ظـل العالم لآلاف السنين (وحتى حوالي عام ١٥٠٠م) موزعا بين أربع حضارات تكاد تكون متكافئة، هي حضارات الصـين، والهند، والشرق الأوسط، وأوروبا.

غير أن ما نسميه بحضارة أوروبا الغربية، إنما بزغـت نتيجة ثورة عظيمة في العلاقات الدولية، كانت بدورها ثمرة التحسينات التقنية في الملاحة البحرية التـي يسـرت علـى كولومبوس الوصول إلى أمريكا عام ١٤٩٢، وعلى فاسكودا جاما الوصول إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨، وعلى ماجلان الطواف حول الأرض في الأعوام ما بين ١٥١٩ و ١٥٢٢، فربطوا برحلاتهم بين الوجه الأطلسي لأوروبا، وبين معظم أنحاء العالم.

وقد كانت أوروبا الغربية أكثر بقاع الأرض استفادة مـن هذه الثورة؛ إذ أصبحت منـذ ذلـك الحـين ملتقـى ثمـار الحضارات المختلفة، وملتقى البدع من كل صنف، مما سمح للأوروبيين بتبنّي كل ما يروقهم ويرونه مفيدا، مما وجـدوه لدى غيرهم، ودفعهم هذا التبنّي لزبـدة وخيـرة مـا عنـد الحضارات الأخرى - إلى إعادة النظر في حضارتهم هـم، وإعادة التنسيق والتركيب، بل وإعادة البناء على أسس مـن هذا التراث الحضاري الموسـع، ومـن الأفكـار والـنظم والتطلعات والابتكارات والبدع التي لا تعرف حدا.

إذن، فقد كانت بدايات القرن السادس عشر إيـذانًا ببـدء تفوق حضارة أوروبا الغربية على غيرهـا، وإيـذانًا ببـدء اضمحلال الحضارة الإسلامية. وقد عزا بعض المـؤرخين- عندنا وعندهم بداية - هذا الاضمحلال إلى أسباب؛ أهمهـا: تأثير الحصار البحري الأوروبي في أحوال تجارة المسلمين، وفقدان هؤلاء لما كان يعود عليهم من ربـح وفيـر نتيجـة التوسط بين أوروبا والشرق الأقصى فـي تجـارة التوابـل بالأخص. غير أن السبب الحقيقي لهذا التدهور في الواقع – وهو ما قد يدهش البعض له – هو اسـتمرار الانتصـارات

العسكرية للعثمانيين على أعدائهم في أوروبا وغيرها لأمـد طويل بعد بدء هذا الحصار البحري الأوروبي، وحتى هزمت جيوشهم عند أبواب فيينا عام ١٦٨٣ م.

فلو أن قَطْع الأوروبيين لطريق تجـارة المسـلمين مـع الشرق الأقصى في عهد السلطان الغوري نجم عنـه علـى الفور ما كان ينبغي أن ينجم عنه مـن إحسـاس المجتمـع الإسلامي بالخطر الخارجي الذي يتهدده، وبضرورة تعـديل الأوضاع الداخلية تعديلا يكفل التصدي لهذا الخطر، والتكيف تكيفًا إيجابيا وفق الظروف الجديدة، لكان حال المسلمين اليوم غير ما هو عليه من ضعف. غير أن المؤسف في الأمر هو أن جيوش العثمانيين (السادة الجدد للشطر الأعظم من العالم الإسلامي) ظلت تحرز نصرا بعد نصر، وتوسع حدود الدولة شرقا وغربا وشمالا وجنوبا على مدى ما يقرب من قـرنين. وهي انتصارات أوهمت المسلمين الغافلين أنهم بها قد صدوا الأخطار الخارجية والداخلية، وطمأنتهم طمأنة غريبة قاتلـة على استمرار مجد دولة الإسلام، وتفوقها على عالم الكفـرة الكلاب، مما أسفر عن روح محافظة مبالغة في المحافظـة، ورفض - عن استعلاء - لكافة البدع، واستخفاف بضرورة

النظر في حضارة الأعداء بغرض اقتباس العناصر النافعـة منها.

ثم عامل آخر ذو تأثير حاسم في الرجعية والجمود اللذين أصابا عالم الإسلام في ذلك العصـر، فمنـذ بدايـة القـرن السادس عشر، أصبح النزاع بين إيـران الشـيعية والدولـة العثمانية السنية، سمة رئيسية للتاريخ الإسلامي لمدة ثلاثـة قرون، وكان من الحدة والعنف بحيث بدا صراع الدولتين مع أوروبا بالمقارنة به صراعا هامشيا، وكانـت نتيجـة هـذا الصراع بين السنيين والشيعة أن زاد حرص القائمين علـى الدين - هنا وهناك - على التمسك بأهداب عقيدة محافظـة متصلبة جامدة، لا تسمح بـأي تجديـد أو بدعـة أو تـأثر بمؤثرات خارجية، وزاد تمسكهم بطابع التطلع إلى الماضـي لا المستقبل الذي يميز الشريعة الإسلامية.. وهو طابع شجع المسلمين على التعلق بالقديم، وعلى إغفال عنصر كان قائما في التراث الثقافي في دولة الإسلام إبان عصور ازدهارهـا ونهضتها، وساهم مساهمة جليلة في تفوقها زمنا طويلا على الأوروبيين وغيرهم .... وقد كان هذا سببا رئيسـيا فـي أن عصر النهضة الأوروبية لم يكن له صدى قوي أو خافت في

العالم الإسلامي. فبعد بداية طيبة ونزعة إلى الاستفادة مـن هذه النهضة لدى محمـد الفـاتح فـي الدولـة العثمانيـة، والإمبراطور أكبر في الهند، إذا بالسلاطنين سليم وسـليمان القانوني في استنبول، وأورانجزيب في دلهي، يرون خطـرا في كل فكرة جديدة، وكل دعوة إلى إصلاح، وكل نزعة إلى ابتداع، وكل اتجاه إلى التساؤل وإعـادة النظـر، وإذا تلـك النهضة في الفنون والآداب والعلوم التي شهدتها أوروبا فـي ذلك العصر، لا تواكبها من بعيد أو قريب نهضة مماثلة فـي العالم الإسلامي، لا في الدولة العثمانية، ولا في دولة الفرس، ولا في دولة المغول بالهند.

والأدهى من ذلك أن سياسة القهر التي انتهجهـا حكـام المسلمين ورجال الدين - على السواء - تجاه كـل مبـادرة فكريـة حـرة كـان لهـا مـن الآثـار الوخيمـة علـى الإسلام ما لا نزال نعاني منه إلى يومنـا هـذا؛ فقـد بـات التصدي لتلك المبادرات الفكرية الحرة تصديا إداريـا مـن السلطة، لا تصديا فكريا من أصحاب الرأي المخالف. وقـد شل هذا القمع العنيف كل محاولة من أجـل التجـاوب مـع المتغيرات في العالم المحيط بدولة الإسلام، ومن أجل مجابهة

التحديات الجديدة. فكان أن وجد المثقفون السلامة إمـا فـي التزام الصمت، أو الالتزام بما يمليه علماء الدين.

ثم كانت ثمرة أخرى لهذا الافتقار إلى الحـوار الفكـري بين أصـحاب الآراء المختلفـة: وهـي أن علمـاء الـدين الرجعيين- وقد اطمأنوا إلى مناصرة الحكام الغاشمين لهـم، ومؤازرة السلطة السياسية والعسكرية، وإلى فقدان المفكرين للجرأة على التحدي والنقاش - لم يجدوا ضـرورة للتسـلح بالمزيد من العلم والمعرفة من أجل ضمان النصـر فـي أي جدل أو حوار مع المخالفين، وبالتالي فقد أهملـوا الـدرس والتحصيل، وقلت بضاعتهم من العلم، وانصرفوا عن تراثهم الفكري الرائع، مكتفين بالاستناد إلى الحكومة فـي حمايـة العقيدة، ومحاربة البدعة، وهو بالضبط ما لا يزال يحدث إلى اليوم؛ إذ نرى رجال الدين الرسميين كلما ظهـر كتـاب أو مقال يخالف فكرهم، يهرعـون فـي جـزع إلـى السـلطة يضرعون إليها أن تصادر هذا الكتاب أو تقمـع فكـر هـذا الكاتب، وإذ نرى عددا من المسلمين بالمفكرين الإسلاميين - في مصر مثلا – كلما ظهر صوت واحد ينادي بربط الإسلام بالعالم المعاصر، هبوا يصـرخون مطـالبين بإخمـاد هـذا

الصوت، ويتعجبون كيف تسمح الحكومة به في قلب العـالم الإسلامي، ومدينة الألف مئذنة!

في كل هذا، لا في فقدان تجارة التوابل، تكمـن المحنـة الحقيقية للإسلام في العصر الحديث، ويكمن سر الفشل.

عالم اليوم

وحال العالم الإسلامي اليوم عظيم الشبه بحاله فـي ظـل دولة العثمانيين: هي العزلة ذاتها، وهو التحجر الفكري ذاته، والاستغراق في التفاهات والتُرهـات والانشـغال بمشـاكل الساعة الراهنة عن التيارات الكبـرى والتطـورات البالغـة الأهمية التي يشهدها العالم الخارجي.. ففـي الوقـت الـذي تقترب فيه المجموعة الأوروبية من تحقيق وحدتها، ويـذوب فيه الجليد في أوروبا الشرقية، ليسمح ببذر بذور الديمقراطية والحرية، وتتجه الآمال إلى توثيق أواصر الألفـة والتعـاون الاقتصادي والسياسي بين شطري أوروبـا بعـد الانهيـار المفاجئ للستار الحديدي، وتشرع فيه جمهوريات مـا كـان يعرف بالاتحاد السوفييتي في إعادة البناء، وشق طريق جديد تنبذ فيه أخطاء الماضي ومآسـيه، وتتعـالى أصـداء هـذه الأحداث في أركان العالم من الصين إلـى شـيلي مـرورا

بجنوب أفريقيا، بل وحتى بينين، نـرى رد فعـل الغالبيـة العظمى في عالمنا الإسلامي تجاه هذه التطورات الأوروبيـة لا يختلف ذرة واحـدة عـن رد الفعـل عنـد محمـد بـن عبد الوهاب زعيم الحركة الوهابية في القرن الثامن عشـر: وهو أن السبيل الوحيد إلى مقاومة التحدي هو العودة إلى ما كان عليه السلف الصالح، وإلى جلابيبهم ولحاهم، وقمع كـل بدعة مستحدثة.

لقد لمست أثناء رحلة إلى أوروبا عام ١٩٩٠ حالـة مـن النشوة تسري في الإعلام الغربي، ناجمـة عـن الأحـداث المتلاحقة في شرق أوروبا، وعن الأمل الناهض في إقامـة "البيت الأوروبي الموحد" ثم "النظام العالمي الجديد".. ولعلني لا أكون مغاليا أو واهما إذا ادعيت أنني استشعرت نزعة إلى الاستعلاء لدى الأوروبيين الغربيين، قد تنقلب - إذا استمرت الأمور في سيرها على ما يوافق هواهم - إلى ضيق صـدر بمخلفات أية حضارة أو عقيدة قد تعرقل من المسيرة تجـاه هذا النظام العالمي الجديد، وتؤخر من إرساء أسس حكومـة عالمية تتصدى لمشكلات كوكب الأرض الصغير.. وأغلـب ظني أنه إذا استمر العالم الإسلامي على تحجره وسـخافاته،

فإنه سيدفع هؤلاء القوم إلى التساؤل: "إذا كنا قد نجحنا فـي تقويض دعائم العقيدة الماركسية، رغم ما تحيط نفسها به من سلاح ودعاية، ورغم أصولها الأوروبية، فما بالنا لا نزلـزل أركان عقيدة متخلفة متحجرة لدى هؤلاء البرابـرة الـذين لا يملكون سلاحا، ولا يتقنون فنون الدعاية، ولا يستمتعون من الدنيا بغذاء أو كساء إلا ما نجود به عليهم؟".

وفي رأيي أنه في استمرار نمو التيارات الدينية الرجعية، في عالمنا الإسلامي، ونمو هيمنتها على مجريـات الأمـور فيه، ما سيضمن قطعا أنه لن يكون لنا موقع في ذلك النظـام الذي يخطط له من الآن أبناء البيت الغربي الموحد إلا موقع التبعية الحضارية والاقتصادية. فإن أردنـا إنقـاذ الإسـلام، والإبقاء على دور حيوي إيجابي له في الحضـارة الجديـدة التي بدأنا نلمح بواكيرها، فلا بد من إيجاد رابطة بينه وبـين النظام العالمي الجديد، بأن ننمي من عناصره التي من شأنها أن تثري هذه الحضارة، وأن نقمع ما شابه على مدى القرون من عناصر تفرق ولا توحد بين البشر.

فإن كان لا بد من التطلع إلى سلف صالح، فإن إخنـاتون بنظرته الثاقبة إلى وسيلة ربط بلاده وديانتها بأحوال العـالم المتغيرة حوله هو بكل تأكيد ذلك السلف الصالح.

خاتمة

إن ما يصنعه المتطرفون الدينيون في العـالم الإسـلامي اليوم، أشبه شيء بما كان يصنعه نابونيدوس آخر ملوك بابل (٥٥٥ - ٥٣٩ ق. م)، قبل سقوط دولته على أيدي الفرس، فقد شاعت بين شعب بابل في زمنه مشاعر الإحباط والتشاؤم واليأس، والاحتجاج على المظالم ومجريـات الأمـور فـي مجتمعهم، والاعتقاد بأن الدولة آخذة في التحلل والانهيـار. وكان من رأي نابونيدوس أنه لا سبيل إلى التصدي للوضـع وإنقاذ الموقف إلا بالعودة إلى ما كان عليه السلف الصـالح، وإحياء أمجاد الماضي، وإعادة بعض مظاهر حضارة بابـل إبان ازدهارها.. فإذا هو يشرع، ضمن ما شرع، ضمن مـا شرع فيه، في تنظيم حملة واسعة النطاق للبحث عن مواقـع المعابد القديمة بهدف اكتشاف تصميماتها المعماريـة؛ حتـى يبني في تلك المواقع بعينها معابد هي نسخ مطابقـة تمامـا للأصل. وقد كان في جهوده هذه ما يوحي إيحاء قويا بنفـاد جعبته من الثقة بالنفس، ومن القدرة على الابتداع من أجـل مواجهة المشكلات المعاصرة لمجتمعـه، بحيـث تـوهم أن

بمقدوره استعادة الثقة لو أنه تطلع خلفه إلى أمجاد عصر كان يزخر بسمات قوة لم تعد لديه.

مشكلات التحاور مع الجماعات الدينية المتطرفة

الأصل في التحاور بين المفكر ونقاده، أو بين صاحب الرأي وخصومه، هو أن يكون الحوار وسيلة لتنبيه المفكر أو صاحب الرأي إلى أخطاء انزلق إليها، أو أوجه قصور تعتور منطقة، وتوسيع مدارك القراء أو السامعين وفهمهم، وتنمية معارفهم، وتمكينهم من تكوين نظرة إلى الأمور هي أقرب إلى الصحة، فهم جميعا شركاء في مهمة واحدة.. والمفروض أن يدرك المفكر أو صاحب الرأي أن عليه أن يكون شديد الامتنان للمساعدة التي يقدمها النقاد والمحاورون له، وأن يكون على استعداد كامل لهجر النتائج التي توصل إليها إلى غيرها متى ثبت له تناقضها مع مقتضيات المنطق، وألا يعرف التزاما غير الالتزام تجاه كل ما في الكون بحب استطلاع محايد.. وقديما قال الإمام الشافعي:

"ما ناظرت أحدا قط فأحببت أن يخطئ، وما كلمت أحدا وأنا أبالي أن يبين الله الحق على لساني أو على لسانه".

غير أن مثل هذا التحاور لا نكاد نجـده إلا فـي مجـال المعارف العلمية القابلة للإثبات والتحقق منها، لا في مجـال الآراء. فالمعرفة قد تكون في وقت من الأوقات غائبة (كجهل البشر في الماضي بقابلية الـذرة للانشـطار)، أو قاصـرة (كجهلنا اليوم بسبل علاج السرطان أو الإيـدز)، أو حتـى خاطئة (كظن الأوائل أن الشمس هـي التـي تـدور حـول الأرض)، غير أنها دائمـا فـي سـبيل التطـور والتقـدم والتصحيح؛ حتى تغدو ثابتة مثبتة لا يختلف حولها اثنـان.. والعلم ليست به حاجة إلى شن حملات صليبية لإبـادة غيـر المصدقين بالنتائج التي توصل إليها، بل إن القـول: بـرأي مخالف في مجال العلم مطلوب ومرحب به ومشجع عليـه، ويزيد من لذة البحث، ويحاط المبتدعون فيه بكـل مظـاهر التبجيل والامتنان.. أما الآراء فغالبا ما تكون غير قابلة؛ لأن يجتمع عليها الناس، وعرضـة لأن تـتحكم فيهـا الأهـواء والمصالح، وأن تختـل بـاختلاف الشخصـية أن اخـتلاف التجارب والخبرات، وأن تكون دائما موضع الجدل والنزاع، والخصومة والقمع، والإرهاب والقتال؛ بحيث يصـبح مـن النادر أن يصبر امرؤ على الاستماع إلـى رأي سياسـي أو

اقتصادي أو ديني يخال رأيه، أو أن يعرض قضية عرضـا موضوعيا نقديا هادئًا مجردا عن الهوى. بل إنه في مجـال الدين بالذات نرى الناس على استعداد لأن يحـرق بعضـهم بعضا، بل وأن يحرقوا هم أنفسهم، بسبب الخلاف حول رسم علامة الصليب بإصبع واحدة أو إصبعين، أو حـول مـا إذا كان الله واحدا ذا مظاهر وطبائع متعددة أو هو ثلاثـة مـن طبيعة واحدة، أو ما إذا كان القرآن كلام الله مخلوقا محدثا أو قديما قِدم الله.

ففي مجال المعرفة نجد أن الطالب، لو سـأل أسـتاذه أن يبرهن له علميا على أن الحديد يتمدد بالحرارة، أو أن المـاء مكون مـن عنصـرين همـا الأوكسـجين والأيـدروجين، لاصطحبه الأستاذ إلى المعمل ليجـري أمـام بصـره مـن التجارب ما هو كفيل بإقناعه. ولو أنني شككت في أن الأردن يقع في الشمال الشرقي من مصر، لكان بوسعي أن أقلع إليه في طائرة أو سيارة فتوضح لي البوصلة اتجاهي وأنـا فـي طريق إليه.. أما في ميدان الرأي والعقائد فغالبا ما أطالـب بتصديق أمور من الصعب إثباتها والتأكد من صحتها أو من خطئها، وكثيرا ما يقع عبء الإثبات على عـاتق المكـذب

للافتراض. والملاحظ بوجه عام، خاصة في الأمم المتخلفة، أنه كلما كان هناك خلاف في الرأي حـول مسـألة تتصـل بالدين بالذات، كان من الصعب على عامـة النـاس وعلـى علمائهم وفقهائهم على السواء، أن يناقشوا الأمر في هـدوء ودون انفعال، ودون سباب وتكفير وتخوين.. ونتساءل نحن: ما الذي يمكن أن يدفع امرءا إلى الثورة والهياج والصـراخ وإطلاق اللسان بما لا يليق لمجرد قراءته مقالا مـن بضـع صفحات يتضمن رأيا في شأن من الشئون الدينيـة لا يتفـق ورأيه؟ ما الذي يحول بينه وبين أن يرد على المقـال علـى النحو التالي مثلا: "قرأت مقال كذا بقلم فـلان، وأعتقـد أن كاتبه قد أخطأ؛ إذ جعل كلمة كذا مرادفة لكلمة كذا، في حين أن المعاجم العربية تعرفها بأنها كذا وكذا.. وكذلك فـإنني لا أرى رأيه في أن الدافع الرئيسي وراء كذا كان كذا، وأسـتند في رأيي هذا إلى ما ذكره ابن إسحق في سيرته، وما ذهـب إليه الطبري في تاريخه.. ورغم أنني اتفق مع الكاتب في كذا فإنني أخالفه في اعتباره الأمثلة التي أوردها كافيـة لإقامـة الدليل.. وقد كان من واجبه أن يذكر المصدر الذي اسـتقى منه حديث كذا؛ إذ لم نوفق إلى العثور عليه في المراجع التي

بين أيدينا. وسيسعدنا أن نقرأ قريبا له تفسيرا أكثر تفصـيلا وتوثيقا لهذه النقطة أو تلك.. والمقال على أي حال، ورغـم الأخطاء التي نبهنا إليها، لا يخلو من فائدة؛ فقد كان له فضل إيضاح كذا وكذا. ويا حبذا لو أن الكاتب التزم فـي بحوثـه التالية بمراعاة كذا وكذا.." إلى آخره.

مثل هذا الأسلوب في الجدال والحوار والنقد لا يكاد يكون معروفا عندنا في أي مجال من مجالات الفكر، خاصة فـي مجال الفكر الديني.. أما الأسلوب الشائع في بلادنا فهو: "إنه قول لا يقوله إلا جاهل أو مبتدع أو كلاهما. وقد دلّ المقـال على القصد السيئ من الكاتب للكيد لهذه الأمـة فـي دينهـا وعقيدتها.. ولا ريب في أن من يروج لهذه الأفكار إنما هـو من صنف المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفـر، ويكيدون للإسلام والمسلمين ويزعزعون ثقتهم فـي عقيدتـه وأنفسهم، ويعملون على تمكين الأعداء من النيل منهم وتدمير كيانهم واستباحة أوطانهم وحرماتهم.. إننا لا ندري ما الكفر إن لم يكن هذا الذي قاله. وهل قال الأعداء الإسلام أكثر من هذا؟ ونحن قائلون للكاتب إن ذهب الحياء، فاصنع ما شـئت وشاء لك الذين تكتب نيابة عنهم.." إلى آخره.

***

أعود فأقول: إنه ما من شخص يدخل في حـوار دون أن تحدوه رغبة مخلصة في معرفة الحق، ودون أن يعبأ بما إذا كان الحق هو مع رأيه الذي دخل الحوار بـه، أم مـع رأي خصمه، إلا خرج من الحوار وهـو علـى سـالف رأيـه.. وبالتالي فإن علينا - بادئ ذي بدءٍ - أن نستبعد من إمكانيـة الحول الفعال المجدي مع الجماعات الدينية المتطرفة صنوفا معينة من الناس:

- المرتزقة ممن يتكسبون من وراء نشاطهم في تلـك الجماعات، والعاملين فيها بوحي وتوجيه من جهات أو دول أجنبية.
- ذوي المطامح السياسية من الساعين إلى الوصـول إلى الحكم عن طريق اسـتغلال الـديني والعاطفـة الدينية لدى أفراد جماعاتهم الغافلين عن هذه المطامح لدى قادتهم.
- العامة من الناس ممن لا يعرفون فكـرا أو يملكـون علما، وأوهمتهم قياداتهم أنهم قد باتوا – لأول مرة – يفكرون ويقررون ويختارون لأنفسهم.

- أولئك الذين يعود اعتناقهم لمبادئهم وتشبثهم العنيـد بها، لا إلى تفكير عميق وبحث طويل موضوعي عن الحقيقة كما يتوهمون، وإنما إلى أسباب فسـيولوجية أو نفسية أو اعتبارات اجتماعية أو اقتصادية. وقـد سبق لفرويد أن عرف الآراء بأنها "اعتقـاد المـرء بصحة شيء ما لمجرد رغبته في أن يكـون ذلـك الشيء صحيحا" أما بافلوف فيرجع اخـتلاف الآراء وردود أفعال الأشخاص إلى اختلاف طبيعة الجهـاز العصبي لدى كل منهم، فالطبيعة البشري تسعى دائما إلى التوازن، وبتتابع الأحداث والمؤثرات والخبرات يعيد المرء ترتيب قيمه ومفاهيمـه؛ حتـى يضـمن استمرار هذا التوازن، وقد ينهار التوازن عند البعض أو يختل متى تعرض الفرد لظروف قاسية ضـخمة التأثير، فينجم عن ذلك تهيج قوى يصـيب النشـاط العصبي باختلال يؤدي على اضطراب نفسي وإلـى أفكار ذات طبيعة متطرفة مريضة.

ومن السهل أن نرى بوضوح أن جميع هؤلاء لن يجـدي معهم حوار، فالصنفان الأولان لا تهمهما معرفة الحقيقة فـي

شيء، وكل ما يعنيهما هو النفع الذاتي. وأمـا الثالـث فهـو أجهل من أن يكون قادرا على الدخول فـي حـوار. وأمـا الصنف الرابع، فهو وإن توهم في آرائه الموضـوعية إنمـا يهمه – كما قال فرويد – أن يكون الرأي صحيحا بالنظر إلى موافقته لاختلاله الفسيولوجي أو النفسي. ولو أن شخصا من هذا الصنف من الناس كان مخلصا مع نفسه لقال قولة شبيهة بقولة دوستويفسكي الشهيرة: " لو ثبت لي أن المسيح ليس هو الحق، لفضلت المسيح على الحق".. مثل هؤلاء الذين تجـد نفوسهم راحة معينة في اعتناق آراء معينة، بصرف النظـر عما إذا كانت حقا أم لم تكن، من الواضح أن الحوار معهـم غير مجد.

غير أننا حتى إن استبعدنا تلك النوعيـات الأربـع مـن الناس، لوجدنا أن مسألة الحوار ذاته بين الأفراد العاديين أمر مضنٍ غير كبير الجدوى. فالإنسان بطبعه كـائن عنيـد، لا يدخل في حوار على أمل تصحيح بعض مفاهيمـه أو كلهـا متى سيقت له حجج قوية كان غافلا عنهـا، وإنمـا يـدخل الحوار مفترضا الخطأ في تفكير الغير، ولإثبات خطأ الخصم فيتضاءل أو يختفي الاهتمام بالحقيقة أمام الاهتمام بالانتصار،

وهو يحاول الظهور بمظهر الموضوعي المخلص في الوقت الذي يواري فيه ويخفي الحجج التي تنتقص من قـوة رأيـه وتوهنه. ولدى كل منا من الغرور الطبيعي ما يجعله شـديد الحساسية بالذات فيما يتعلق بقواه العقلية، وهو أمر لا يسمح لنا عادة بالإقرار بالخطأ، حتى لو أدركنـا أننـا مخطئـون، خاصة مع علمنا بأن اعترافنا بصواب بعض حجج الغيـر لا يضمن أن هذا الغير سيعترف - في مقابل ذلك - بصـواب بعض حججنا نحن. ولسنا في حاجة إلى قـراءة ماكيـافيلي لقبول نصيحته للأمير بأن يستغل كل فرصـة يبـدو فيهـا الخصم ضعيفا للهجوم عليه، وإلا فعل الخصم الشيء نفسـه. بل إنه لكثيرا ما يلجأ المحاور حين يلمـس قـرب الهزيمـة وافتضاح ضعف حجته، إلى القول بأنه لم يقرأ أو يفكر فـي الموضوع بما فيه الكفاية، وبأن غيره من المعتنقـين الـرأي نفسه هم أعلم بأسانيده، وأقدر منه على الدفاع عنه.

***

وفي ظني أن الحل الوحيد لهذه المشكلة المستعصية، هـو أن نحرص على أن نفكر طويلا قبل أن نشرع في الكـلام، وعلى أن نبذل قصارى الجهد من أجل الوصـول إلـى رأي

سليم قبل الموافقة على الدخول في حوار، وعلى أن نلتزم في كل حوار ندخله بمبدأ الإمام الشافعي الذي سبق لنا ذكره.

غير أننا حتى إن افترضنا في أطراف الحوار حسن النية، والرغبة المخلصة في معرفة الحقيقـة، وضـعف الاهتمـام بالانتصار على الخصم، فإن المشـكلة سـتظل قائمـة: أولا بسبب ما نبه إليه الفلاسفة منذ ديفيد هيوم في القرن الثـامن عشر إلى الوضعيين المنطقيين في قرننا هذا مـن اخـتلاف مفاهيم الكلمات ودلالاتها من شخص إلى آخر، ثم اخـتلاف تفاسير النصوص الدينية، ثم التناقض الظاهري بين بعـض الآيات القرآنية وبعض، والتناقض الصـريح بـين بعـض الأحاديث النبوية الصحيحة والأحاديث الموضوعة التي يؤمن الكثيرون من غير المتخصصين بصحة نسبتها إلى الرسول، واستناد كل طرف من أطراف الحوار إلى آيـات وأحاديـث وقصص.

لننظر مثلا إلى الجدل العنيف الذي دار في العشـرينيات من هذا القرن – ولا تزال أصداؤه تتردد إلى يومنا هـذا – حول كتاب علي عبد الرازق "الإسـلام وأصـول الحكـم".. فالمؤلف من أجل إثبات براءة الإسلام من نظام الخلافة ظن

أن أهم سبيل إلى تحقيق غرضه التدليل على أن الرسول لـم يجمع بين الرسالة والملك، ولم يؤسس بالإسلام دولة سياسية مدنية كان هو ملكها وسيدها، فاستند إلى آيات قرآنية تنكر أن يكون للنبي شأن في الملك السياسي، مثل:

﴿ لاَ إِكْرَاه فِي الدين ﴾ ﴿ ادع إِلَى سبِيل ربـك بِالْحِكْمـةِ والْموعِظَةِ الْحسنَةِ وجادِلْهم بِالَتِي هِي أَحسن ﴾ ﴿ فَذَكر إِنمـا أَنتَ مذَكر. لَستَ علَيهم بِمسيطِرٍ ﴾ ﴿ فَإِن أَسلَموا فَقَدِ اهتَدوا وإِن تَولوا فَإِنما علَيك الْبلاَغُ ﴾ ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِه النـاس حتـى يكُونُوا مؤْمِنِين ﴾ ﴿ وكَذب بِهِ قَومك وهو الْحق قُـل لسـتُ علَيكُم بِوكِيلٍ ﴾ ﴿ وأَعرِض عن الْمشْرِكِين. ولَو شَاء اللهُ مـا أَشْركُوا وما جعلْنَاك علَيهم حفِيظًا وما أَنتَ علَيهم بِوكِيـلٍ ﴾ **﴿فَإِن أَعرضوا فَما أَرسلْنَاك علَـيهم حفِيظًـا إِن علَيـك إِلا الْبلاَغُ﴾**. إلى آخر ما استند إليه من آيات معظمها آيات مكية نزلت قبل أن يهاجر النبي إلى المدينة، وقبل أن يؤسس فيها الحكومة ذات الطابعين الديني والسياسي معا، وقبل أن توحي إليه آيات مثل:

﴿ النبِي أَولَى بِالْمؤْمِنِين مِن أَنْفُسِهِم ﴾ ﴿ وما كَان لِمؤْمِنٍ ولاَ مؤْمِنَةٍ إِذَا قَضى اللهُ ورسولُه أَمرا أَن يكُون لَهم الْخِيرةُ

مِن أَمرِهِم ومن يعصِ اللهَ ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينًا ﴾. ﴿ من يطِعِ الرسولَ فَقَد أَطَاعَ اللهَ ﴾. ﴿ مـا كـان لِنبـي أَن يكُون له أَسرى حتى يثْخِن فِـي الأَرض ﴾. ﴿ إِنمـا جـزاء الَّذِين يحاربون اللهَ ورسوله ويسعون فِي الأَرضِ فَسـادا أَن يقَتلُوا أَو يصلبوا أَو تُقَطع أَيدِيهم وأَرجلُهم مـن خِـلافٍ أَو ينفَوا مِن الأَرض﴾ ﴿ قَاتِلُوا الَّذِين لاَ يؤْمِنُون بِاللهِ ولاَ بِالْيومِ الآَخِرِ ولاَ يحرمون ما حرم اللهُ ورسولُه ولاَ يـدِينُون دِيـن الْحق مِن الَّذِين أُوتُوا الْكِتَاب حتى يعطُوا الْجِزيةَ عن يدٍ وهم صاغِرون﴾ ﴿ وأَعِدوا لَهم ما استَطَعتُم من قُوةٍ ومِن ربـاطِ الْخَيلِ تُرهِبون بِهِ عدو اللهِ وعدوكُم ﴾.. إلى آخره.

فثمة – إذًا- آيات في القرآن استند إليها علي عبد الرازق ومناصروه ويستند إليها في يومنا هذا الساعون إلى التـدليل على سماحة الإسلام واعتداله وسعة صدره، وعزوفـه عـن استخدام الإكراه والعنف والفظاظة في التعامل مع خصومه. وثمة آيات استند إليها خصوم علي عبد الرازق ويستند إليها في يومنا هذا أعضاء الجماعات الدينيـة المتطرفـة ممـن ينكرون أن تكون ولاية النبي على قومه ولاية روحية بحتـة كتلك التي كانت لإخوانه من الرسل الذين لم يخطـر ببـالهم

تأسيس دولة أو تنظم حكومة، ويذهبون إلى أنه لو كان النبي مبشرا ونذيرا فحسب، وليس على قومه بوكيل، وليس عليهم بمسيطر، وليس عليه إلا البلاغ، وليس له أن يكره الناس حتى يكونوا مؤمنين لما أشرف بنفسه على تطبيق حكمي قطع يد السارق وجلد الزاني، وعلى جمع الزكاة وقسمة الغنائم، وتعبئة الجيوش ومصادرة أملاك بني قريظة، وقتل أسراهم، ولما نزلت آيات مثل ﴿ **فَإِذَا لَقِيتُم الذِين كَفَرُوا فَضرب الرقَابِ** ﴾ ﴿ **يا أَيها النبِي جاهِدِ الْكُفار والْمنَافِقِين واغْلُظْ علَيهم** ﴾ ﴿ **يا أَيها النبِي حرضِ الْمؤْمِنِين علَى الْقِتَالِ** ﴾ ﴿ **وقَاتِلُوهم حتى لاَ تَكُون فِتْنَةٌ ويكُون الدين لِلهِ** ﴾ ﴿ **لَئِن لم ينتَهِ الْمنَافِقُون والذِين فِي قُلُوبِهم مرض والْمرجِفُون فِي الْمدِينَةِ لَنُغْرِينك بِهِم ثُم لاَ يجاوِرونَك فِيها إِلا قَلِيلاً** ﴾.

***

وهذا مجرد نموذج للحوارات الدائرة اليوم إن استند المفكرون الإسلاميون المسمون بالمستنيرين، أو رجال الدين الموصوفون بالاعتدال إلى آية: ﴿ **لاَ إِكْراه فِي الدين** ﴾، رد عليهم أفراد الجماعات الدينية المتطرفة يستشهدون بالآيات

المدنية التي ذكرناها لتونا، وبما ذكره الطبري في تفسيره من أن آية: ﴿ **لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ نسختها الآيات التي تحض المؤمنين على القتال وآية ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ** ﴾ وإن استنكر البعض حادثا كحادث اغتيال فرج فودة، ووصفوا الفعلة بالدناءة والمخالفة لروح الإسلام السمحة، مستشهدين بآية ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**﴾، استشهد مجادلوهم بمجموعة من القصص الواردة في كتب السيرة المعتمدة، كسيرة ابن إسحق ومغازي الواقدي، تروي كيف أوفد النبي جماعات من أصحابه لقتل شعراء هجوه، أو حرضوا عليه في شعرهم كفار قريش.. يقول الواقدي:

"كان كعب بن الأشرف شاعرا، وكان يهجو النبي وأصحابه ويحرض عليهم كفار قريش في شعره، فقال رسول الله: من لي بابن الأشرف؛ فقد آذاني؟ فقال محمد بن مسلمة: أنا أقتله. قال النبي: فافعل. فمكث ابن مسلمة أياما لا يأكل. فدعاه رسول الله فقال: تركت الطعام والشراب؟ قال: يا رسول الله قلت لك قولا فلا أدري أفي لك به أم لا. قال رسول الله: عليك الجهد؛ شاور سعد بن معاذ في أمره.

فاجتمع ابن مسلمة ونفر من الأوس فقالوا: يـا رسـول الله، نحن نقتله، فمضوا حتى أتوا ابن الأشرف فضربوه بأسيافهم. واحتملوه حتى أتوا النبي فوجدوه واقفا على بـاب المسـجد. فقال: أفلحت الوجوه! قالوا: ووجهك يا رسول الله! ورمـوا برأسه بين يديه. فحمد الله على قتله. فلما أصبح رسـول الله قال: من ظفرتم به من رجال اليهود فاقتلوه. فخافت اليهـود فلم يطلع عظيم من عظمائهم ولم ينطقوا، وخافوا أن يبيتـوا كما بيت ابن الأشرف".

هذا عن القرآن والسيرة، فأما عن الحديث فنحن نعلم يقينا كيف استخدم اسم النبي في نشر الأكاذيب، وكيف حورب كل تزوير واختلاق للأحاديث بتزوير المزيد، حتى أصـبح فـي جعبة كل فرقة أو مذهب أو أصحاب رأي مجموعة ضـخمة من الأحاديث التي تطعن فـي الفـرق والمـذاهب والآراء الأخرى. وقد كان المعيار دوما لدى هؤلاء وأولئك أن الغاية تبرر الواسطة، وأن أية وسيلة مهمـا حـوت مـن التلفيـق والبهتان لا غبار عليها ولا مطعن فيها، مـا دامـت تخـدم غرضا نبيلا كتعزيز الإيمان، وإرجاع الحـق إلـى أهلـه،

وتنحية الفاسقين عن تدبير أمور المسـلمين، أو استئصـال جذور الفتنة.

وقد كان للأحاديث وأحكام السنة أخطر دور في تكييـف حياة المسلمين إلى يومنا هذا، بل إنها كـادت – لكثرهـا – تنافس الأحكام القرآنية في مدى عمق تأثيرها؛ فالكثير مـن التنازع بين الجماعات، ومن مظاهر سلوك أفراد الجماعـات الإسلامية، وسخط الأتقياء علـى بعـض جوانـب حياتنـا المعاصرة، يقوم على أساس من الحديث، صحيحه وكاذبـه.. وقد قامت بين ظهراني أمة الإسلام وشـاعت بـين شـبابها مذاهب ترى بدعة - ليس فقط في كل ما يعـارض السـنة، وإنما أيضا - في كل ما لا يمكن إثبات أنه من السنة. فكـان أن حرمت هذه المذاهب أمورا مثل شرب القهوة واسـتخدام الملاعق والسكاكين، بل وحتى الطباعة، بحيث يمكن القـول بأنه لو قدر لهذه المذاهب أن تسود وتطبق لكان مجرد العيش في ظل ظروف تختلف عن ظروف حياة العرب وقت النبي والخلفاء الراشدين أمرا مستحيلا، وبأن الكثير من الأحاديـث الموضوعة بات يشكل حائلا دون تقدم الأمـة الاجتمـاعي والسياسي.

إن الاجتهاد والرأي لم ينقضيا بانقضاء أجل أبـي حنيفـة والإساءة إلى ذاكراه ومذهبه بعد وفاتـه. فبـالرغم مـن أن الحديث باتت له نفس المكانة العليا في كافة المذاهب، فقد ظل الفقهاء دوما يعملون فكرهم ويصلون إلى الرأي بالاجتهـاد. غير أنهم صاروا إذا أرادوا الخروج به وتدريسه يلجُئون إما إلى وضع الأحاديث، أو إلى تفسير الأحاديث القائمة تفسـيرا يوافق رأيهم؛ حتى يلقى الرأي قبولا لـدى العامـة وأولـي الأمر، وحتى يخرسوا المعارضين. وفي رأينا أن في مثـل هذا الموقف إهانة للرأي، وامتهانا لحريـة الفكـر، وتكبـيلا لأيدي العلماء والمفكرين ممن تأبى عليهم ضمائرهم اختلاق الحديث. كما نرى فيه إفسادا للتحاور ولذمم المتحـاورين؛ إذ يرون أتباع كل مذهب مغرض، وأصحاب كل رأي خـاص، يستشهدون بالأحاديث لضمان الغلبة وإحراز النصر، فيحذون حذوهم، ويتخلقون بأخلاقهم.

ثم نأتي الآن إلى مثال حي أسوقه من واقعنـا الـراهن: أفراد من بعض الجماعات الإسلامية المتطرفة في القـاهرة وصعيد مصـر يهـاجمون احتفـالات بالجامعـة وغيرهـا فيحطمون الآلات الموسيقية ويضربون المغنـين والمغنيـات

استنادا إلى أحاديث منسوبة إلـى النبـي تحـرم الموسـيقى والغناء.. عقب ذلك يظهر على شاشة التليفزيون المصـري بعض رجال الدين والمفكرين الإسلاميين "المستنيرين" يدينون هذا السلوك، مستندين إلى سندين لا ثالث لهما: أن الأحاديث التي تحرم الموسيقى والغناء أحاديث ضعيفة أو موضـوعة، وأن ثمة أحاديث "صحيحة" تحلل الموسيقى والغناء، وقصصا في السيرة النبوية تثبت أن النبي، أو إحدى زوجاته، أو أحـد العشرة المبشرة بالجنة، كان يستمع إلى الموسـيقى والغنـاء ويستمتع بهما.

إلى هذا الحد من التخلف – إذًا- قد بلغنا! إثبات قضية من القضايا قد بات عندنا محصورا فـي إثبـات ورود حـديث بصددها أو نفي ورود حـديث.. قـد أفهـم عـداء بعـض المتعصبين ضيقي الأفق للغناء والموسيقى بسبب ما يخالونه حديثا صحيحا.. غير أني لا أفهم أن يأتي دفاع "المستنيرين" عن الموسيقى والغناء مستندا إلى حديث أو سـيرة لا إلـى اعتبارات العقل والمنطق.

هل بوسعنا أن نتخيل شابا ألمانيا يتحدث عن الموسـيقى على النحو التالي:

"إنني شديد الولع بالموسيقى لأني قرأت أن مارتن لوثر – قدس الله روحه – مر يوما هو وزوجته بقـوم فـي قريـة فيتنبرج يعزفون ويغنون، فشرعت زوجته تغني مع القـوم، بينما وقف لوثر أمامها وهو يهز رأسه استحسانا. وفي قـول آخر، ظل يدق الأرض بمقدمة قدمه مسايرا للنغم.. أما عـن ثقتي من أن الموسيقى هي من أهم الفنون طرا وأجداها على البشر، فنابعة عن القصة التي أوردها إدموند لودلـو، عـن هنري لوتريل، عن أوين فليتهام، من أن بعض رفاق لـوثر سألوه يوما "ما قولك يا مارتن في بابا رومـا الـذي يكـره الموسيقى؟ " فأجاب لوثر: " دعوكم منه، فهو لا يفقه شـيئا" (وهو حديث متفق عليه).

هل يمكن أن نصادف ألمانيا يتحدث على هـذا النحـو؟ المعرفة عند الفرنجة هي استخدام المعروف في إماطة اللثام عن المجهول. والمعرفة عندنا - معشر المسلمين - قائمـة جاهزة كاملة بين أغلفة الكتب، وكلما كانت المعارف أصح.. هذا هو موقف متخلفينا ومستنيرينا على سواء.. قد لا أعبـأ كثيرا بالقرار المتخذ بشأن تحريم الموسيقى أو تحليلها. غير أن الكارثة الحقيقة في رأيي هي فـي المـنهج، صـحته أو

فساده.. وقد بدأت الحضارة الغربية الحديثة حين شرع فرانسيس بيكون في مستهل القرن السابع عشر يتشكك في النتائج التي وصل إليها أرسطو (وكانت من المسلمات في القرون المظلمة)، فأصر على رفض المسلمات، وإخضاع كل شيء للتجربة ولإعمال العقل والتفكير.. فإن كان موقف مستنيرينا في أواخر القرن العشرين على ما هو عليه، فمن ذا الذي سيعد أمتنا يا ترى لاستقبال القرن الحادي والعشرين؟

***

وختاما أقول إنني لست من المؤمنين - بوجه عام - بجدوى الحوار مع الجماعات الدينية المتطرفة.

فالبعض يرفض التحاور أصلا؛ خشية أن يعرض نفسه للمفاهيم "الخاطئة" فيضل.

والبعض غير قادر عليه لقلة بضاعته من العلم.

والبعض لن يتسنى أبدا إقناعه؛ لارتباط مصالحه أو مطامحه بالرأي الذي يتبناه.

والبعض لا يريد الاقتناع؛ لأنه يجد الراحة والعزاء في الموقف الذي اتخذه دون سواه.

والبعض لن يجدي التحاور معه لاختلاف مفاهيمه اللغوية وأسانيده الدينية عن مفاهيم محاوريه وأسانيدهم.

وإنما يبقى الأمل معقودا بإقناع وتنبيه وتكييـف الشـباب الذي لم يكون له رأيا بعد، ولما ينخرط في سلك مثـل تلـك الجماعات المتطرفة.. تنبيهه إلى أهمية معرفة أسباب نـزول الآيات والإحاطة بملابساته.. إقناعه بأن السبيل إلـى جعـل الإسلام مهيئا لمجابهة مشكلات العصـر الحـديث مجابهـة إيجابية فعالة هو الأخذ بروحه لا الالتـزام بأحكـام معينـة متناثرة، بحيث تغدو إشاراته وتوجهاته العامة بمثابة البوصلة التي تهدينا سواء السبيل في أي مكان أو زمان كنـا فيـه.. وتكييفه حتى يقبل فكرة أن الدين لا ينشأ في فـراغ، وإنمـا يظهر في مجتمع معين وزمـن معـين، فتتلـون تعاليمـه بالضرورة بظروف ذلك المجتمع، ومقتضيات ذلك الزمـان، وتراعيها. فالدين حقيقة مطلقة وردت في إطـار تـاريخي، وظهرت في بيئة اجتماعية انعكست معالمها عليه، وذلك من أجل أن يلقى القبول، ويحظـى بفهـم الغالبيـة، ويضـمن الانتشار.. ليس هذا فحسب، وإنما يمر الدين بعد ذلك بحقب تاريخية متتالية، وينتشر في مجتمعات متباينة، فيتراكم عليـه

المزيد فالمزيد مما هو محلي محـض، وعـارض مؤقـت. وعلينا من أجل أن نجابه اليوم التحدياتِ الجسيمة التي تهـدد كياننا ذاته، والتي تثير التساؤل حول حقنا فـي البقـاء، أن نتصدى لمهمة فصل الجوهري الخالد الصالح لكـل زمـان ومكان، عن العرضي الزائل الـذي يثقـل كاهلنـا، ويقيـد خطواتنا، ويعمينا عن الطريق.

علينا أن نقنع شباب أمتنا بأن هذه هي مهمتـه الحيويـة، ومسئوليته الحضارية الرئيسية، وأنه ما لم ينهض بها يكـون قد تنكر لواجبه تجاه دينه.. فالنهوض بهـا يمثـل الأسـاس الواقعي الوحيد لأي تطور مستنير في المستقبل، إن شئنا أن يكون لنا مستقبل.

رسالة من الشيخ عمر عبد الرحمن مفتي تنظيم الجهاد

إلى الجهاز القيادي للتنظيم في مصر

أيها الإخوة المناضلون،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

من نيويورك أحييكم، آملا، أن يكون قد وصلكم شـريط التسجيل السابق الذي أرسلته إليكم مع الأخ طه في التاسع من ربيع الآخر عام ١٤١٣ من هجرة نبينا، عليه أفضل الصلاة والسلام، والذي تناولت فيه موضوع السياحة فـي مصـر، وضرورة المضي قدما في العمل على تخريبها، باعتبار هذا التخريب أجدى الوسائل في الوقت الراهن، لزعزعة اقتصاد الدولة، وحرمانه من أهم موارده من العملات الصعبة.

وقد وصلتني أمس رسالة منكم طابعها الجزع والهلع إزاء تكثيف السلطات المصرية لحملات القمع والعنف والاعتقـال تجاه أفراد تنظيمنا والتنظيمات الإسلامية الأخرى، خاصة في صعيد مصر، وتعبرون فيها عن قلقكم وخشيتكم من احتمـال

نجاح هذه الحملات.. وبالرغم من أني أرى – وأقولها هنـا بكل صدق وصراحة – أن أية حركة جماهيرية كحركتنا قـد يفلح النظام في قمعها واستئصالها بالعنف (مهما بلغت قوتها وشعبيتها) فإن هذا النجاح معلق بشرط جـوهري، هـو أن يتوافر لهذا الحزم الثبات والدوام والقوة، بالإضافة إلى إيمان قوي لدى رجال السلطة (يعادل فـي قوتـه إيمـان أفـراد تنظيماتنا) بأن الحق في جانبهم، وأنهم إنما يقاومون خطـرا داهما يهدد مستقبل البلاد..

وإني لأحمد الله عز وجل، على أن هـذا الشـرط غيـر متوافر إلى يومنا هذا، وأن عنف السـلطة وحزمهـا تجـاه تنظيماتنا لا يزالان على تذبـذبهما وترددهمـا وتقطعهمـا وضعف الإيمان وراءهما، وهو ما يضمن لنا أنهما لن يحققا طائلا ولن يدوما طويلا.. وقد علمتني الحياة أنه متى تذبذبت السلطة بين العنف والتساهل، والمكافحة والمصالحة، والتشدد والتنازل، فسيكون من المقدر لحركتنا أن تفيق دوما بعد كل كبوة، وأن تسترد قوتها بعد كل هزيمة، بل وستزيد هذه القوة بعد كل مواجهة عنيفة معها، بالنظر إلى اكتسـابها خبـرات

جديدة واكتساب ضحاياها هالة الشهداء والأبرار نتيجة كـل صدام.

وإني لأقولها لكم مخلصا – وليس عن مجرد الرغبة فـي رفع معنوياتكم وتبرير هلعكم – إنه مما يزيد من اطمئنـاني إلى حتمية هزيمة النظام الراهن فـي حربـه معنـا، عـدة اعتبارات رئيسة أوجزها فيما يلي:

أولا: إدراك فريق قوي داخل السلطة أن قـوة الحركـة الإسلامية المتطرفة راجعة في المقـام الأول إلـى مظـالم اجتماعية واقتصادية، لا يتسنى حلها وتداركها إلا على مدى سنوات طوال، وأنه من الظلم بالتالي أن تلجأ السـلطة إلـى العنف في مواجهة المتطرفين الإرهابيين، إلا فـي حـالات الضرورة القصوى، بل ولا بأس من بعض التنازلات لهـم؛ حتى لا يجتمع على هؤلاء "البؤساء" هم الضائقة الاقتصادية والاجتماعية، وهم اضطهاد الحكومة لهم.. وقد هيأ لنا ذلـك فرصة أن نستغل استمرار الضائقة ويد المصالحة التي تمدها السلطة للإسلاميين وإذعانها المتكرر لمطالبهم في المطالبـة بالمزيد من التنازلات والتوسع في تجنيد الشباب في صفوف الجماعات التابعة لنا، وخلق الاعتقاد لدى الصحفيين والكتاب

والقضاة وكبار رجال الدولـة والمسـئولين بـأن وصـول الإسلاميين إلى السلطة عن قريب أمر مفروغ منه، وبالتالي فإن من مصلحتهم أن يركبوا الموجة من الآن، وأن يحجزوا لأنفسهم المقاعد في ظل النظام الجديد، وهو ما سيزيد قطعـا من خلخلة دعائم النظام القائم..

ثانيا: ذلك العجز المضحك من جانب الحـزب الـوطني الحاكم عن أن يطرح في الساحة الأيديولوجية فكرا متكـاملا قادرا على منافسة الأقلام التي جندناها، وعن إلهاب مخيلـة الجماهير واجتذاب قطاعات واسعة منها.. فالواضح للجميـع أن برنامج ذلك الحزب خال من أي فكر متبلـور أو طـابع مميز، أو حلول عملية للمشكلات المتفاقمـة بمجتمعنـا، وأن الغالبية الساحقة من أعضائه هم من الانتهازيين الـذين مـا كانوا لينضموا إليه أصلا لولا أنه في السلطة..

ثالثا: عزوف مستمر من جانب الأحـزاب القائمـة عـن توحيد صفوفها من أجل التصدي لمد الإسلاميين المتطرفين، واعتقاد اليسار واليمين معا أن استمرار الإرهاب من شأنه أن يهدم هيبة النظام وسلطانه، وأنهم المستفيدون من ضياع هذه الهيبة وزوال هذا السلطان. وبالتالي فقد شـغلت الأحـزاب

جميعا حاكمة ومعارضة، بالتناحر فيما بينها عن الخطر الذي سيبتلعهم جميعا في المستقبل القريب جدا بإذن الله..

رابعا: تلك الخدمات الرائعة التي تؤديها لنا وسائلُ الإعلام التابعة اسما للنظام الحاكم في مصـر، خاصـة التليفزيـون والإذاعة، وتمهيدها الطريق (مع استمرار وتفاقم المشـكلات الاجتماعية والاقتصادية) لقفز الشباب مـن الاعتـدال إلـى التطرف عن طريق الزيادة المطردة في نسبة البرامج والمواد الدينية.. وقد أسعدني كثيرا أن أسمع تصريح السيد صـفوت الشريف وزير الإعلام بأنه يعتزم زيادة هـذه النسـبة مـرة أخرى مع بداية عام ١٩٩٣.. وفقه الله وسدد خطاه.. ما أجده غريبا حقا، ومضحكا حقا، ومطمئنا حقا، أن القيادة العليا في الدولة تبدو عاجزة تماما عن تبين الصلة بين طبيعة المـواد الإعلامية، وبين التزايد المطرد فـي التطـرف والتعصـب والإرهاب وإحداث الفتنة الطائفية، وذلك بالرغم ممـا هـو معروف لدى خبراء الإعلام في العالم كله من أن تسليم إدارة التليفزيون وحده لمدة ستة أشهر فحسب إلى مجموعـة مـن المستنيرين ممن يهمهم حقا استئصال جذور التطرف والفتنة، كفيل بأن يحقق هذا الهدف في يسر..

خامسا: ذلك النجاح الباهر الذي حققته تنظيماتنا الإسلامية في الهيمنة على معظم دور النشـر، وفـي اجتـذاب عـدد لا يستهان به من الانتهازيين – خاصة من بـين محترفـي السياسة، ومن الصحفيين العاملين حتى في الصحف القوميـة ذاتها – ممن يمالئ تنظيماتنا ويخدم أغراضها على أمـل أن تصل يوما إلى الحكم، فيفيد منها على قدر مناصرته إياهـا، وهي في المعارضة.. هذا أمر حتمي، بل ومرغوب فيه إلى حد ما.. بل أقولها صراحة: إنه من المفيد لحركتنا أن تلـوح من بعيد لضعيفي النفوس والخُلُق بـالنفع الشخصـي الـذي سيعود عليهم، والثمار التي سيجنونها متى نجحت الحركـة.. غير أني أسارع فأقول أيضا: إن قوة الحركـة إنمـا تعتمـد أساسا - وفي المقام الأول - على المخلصين الأتقياء لا على الانتهازيين، وعلى من هم على استعداد للتضحية بالنفس في سبيل القضية، لا على من من المؤكد أنه سيهجر القضية فور أن تتبين عقبات ضخاما تعترض سبيل نجاحها، أو يلمس أن مصالحه الخاصة قد باتت مهددة، متى أقبلت السلطة في حزم على مكافحة التطرف..

***

إن أشد ما تخشاه السلطة من حركتنا ويقلق بالهـا، ذلـك الاستعداد الرائع لدى أفراد الحركة للتضحية بـالنفس، بـل وللموت في سبيل القضية، وذلك التنظيم الوثيق الذي يـربط بينهم، والذي لولاه لما نما الاسـتعداد للتضـحية بـالنفس، فتدريب الفرد على العمل الجماعي تدريب له علـى إنكـار الذات، والتنكر لحياته الخاصة، ولحقه فـي التفكيـر الحـر واستقلال الرأي، وتدريب له كذلك على احتقـار المـوت.. واحتقار الموت له شرطان: احتقار الحاضر. وتوهم المـرء بأنه جزء من حركة تاريخية بالغة الأهمية، أو مـن تمثيليـة رائعة الفخامة، وحلقة صلة بين ماضٍ مجيد ومستقبل مجيد، في حاضر تافه بغيض.. وكل هذا يتطلب عدة أمور: محـو شخصية العضو وإحساسه بـالتفرد والتميـز، وضـمان ألا يستشعر الفرح أو الأسى، أو الفخر والثقة، إلا مـن خـلال جماعته وقدراتها ومقدراتها، وأن يشعر دومـا بـأن أعـين رؤسائه ورفاقه تراقبه.

تحقير الحاضر ووصمه بالبؤس، وتسفيه المجتمع ورميـه بالكفر، لازمان لاستثارة شجاعة أنصارنا، وتوهمهم أنهـم لا يخسرون كثيرا بفقد حياتهم. غير أننا لـن نكتفـي بـالقول

وتكراره في هذا المجال، وإنما ينبغي على القـادة أيضـا أن يضمنوا أن تكون حياة أتباعهم خشنة غليظة، قاتمـة مملـة، لا لهو فيها ولا متعة ولا راحة.. علينا أن نصور لهم التسلية على أنها تافهة لا تليق بجلال قدرهم، والسعي وراء السعادة الشخصية على أنه من وسـاوس الشـيطان، وأن نختـرع الأحاديث في تحريم الموسيقى والغناء والرقص والعـروض المسرحية وكل ما من شأنه أن يروح عن النفس، ويخفف من عبء الحياة.. ولتسهيل كل ذلك فلنوجه أنظارهم دوما للتطلع إلى روعة المستقبل الذي ينتظرهم، وأمجاد الماضـي التـي سيحيونها.. وبوسعي أن أؤكد لكم أنه من السهل جدا إقنـاع هؤلاء بأن في مقدورهم أن يقوموا بما قام به أبو بكر وعمر ابن الخطاب، ويحققوا ما حققه صلاح الـدين أو خالـد بـن الوليد.. ذلك أنه ما من صعوبة في أن نخدع من أقدم سـلفا على خداع نفسه، بل ويطالبنا يوميا بأن نخدعه ونستمر فـي خداعه حتى يطمئن ويستريح، وحتى يلقي مسـئولية الفشـل حين يفشل على قوة الجاهلين وبطـش أعـوان الشـياطين، ويرجعه إلى هول أبعاد المهمة الجسيمة الملقاة على عاتقـه، في حين يؤدي فشله في مهام الحياة العادية: في الدراسـة أو

الوظيفة أو التجارة، إلى افتضاح قصوره الـذاتي وضـحالة قدراته.

قد كان إقناعه سهلا؛ لأنه كان مقتنعا سلفا مـن قبـل أن نحاول أن نقنعه، وسيكون خداعه سهلا؛ لأنه متهيـئ لـذلك سلفا من قبل أن نحاول خداعه.

قد لا ترى بعـض الحركـات الثوريـة الجماهيريـة - كالشيوعية والفاشية والنازية - حاجة إلى الله.. غير أنه مـا من حركة ثورية في التاريخ كله كانـت فـي غنـى عـن الشيطان.. وإنما تقاس قوة الحركة بقوة كراهيـة أعضـائها لعدو جسد لهم تجسيدا، يرون فيه مصـدر بلائهـم وأصـل دائهم.. دليل ذلك أننا حين نحب لا نتلفت حولنا بحثـا عـن حلفاء، بل وننظر إلى من يشـاركنا فـي هـوى المحبـوب باعتباره غريما ومنافسا.. أما حين نكره، فنحن دومـا فـي حاجة إلى من يشترك معنا في مشاعر الكراهية، وإلى أكبـر عدد ممكن من هؤلاء؛ حتى تقوى ثقتنا في أننا في كراهيتنـا قد أصبنا عين الحق.

وأفراد جماعاتنا بما دربوا عليـه مـن إنكـار الـذات، والتضحية بالمتع والملـذات، وبشـظف حيـاتهم وخشـونة

معيشتهم، يسهل عليهم أن يكونوا شديدي القسوة والمرارة في حقدهم وكراهيتهم للآخرين، خاصة إن خالوا أنهم – كما في حالة السياح مثلا - أسعد منهم، وأرضى نفسا، وأوفر حظا من النجاح في الحياة وفي تحقيق ذواتهم.. وقد قيل عن الثوار إبان الثورة الفرنسية: إنهم كانوا كلما أمعنوا في كراهيتهم لأعدائهم، وفي قطع الرقاب وسفك الدماء، زاد إيمانهم بصحة مبادئهم.. وهو ما يثبت ضرورة الكراهية والعنف، ليس فقط في إرهاب الأعداء وقمع الخصوم (كما في حالة اغتيال فرج فودة) وإنما أيضا في تعزيز إيمان الإرهابي بعدالة قضيته.. أو كما قال مونتني في إحدى مقالاته: "بوسع الحماسة الزائدة أن تصنع المعجزات، ولكن شريطة أن تستند إلى ما جِبلنا عليه من القسوة ومشاعر الكراهية".

***

إنه لا شك في أنكم قد لاحظتم أن غالبية المقبلين على الانضمام إلى تنظيماتنا هم من الشبان المحبطين المقهورين الفاشلين، الذي يرون حياتهم قد فسدت وتبدد معناها، والذين يفدون إلينا من تلقاء أنفسهم دون ما حاجة إلى جهد كبير من

جانبنا لتجنيدهم، ودون حاجة مسبقة إلى اقتناع عقلي كامـل بالمبدأ الذي تمثله الحركة؛ لذلك فإن أنجح وسائل الإقناع التي يمكنكم انتهاجها في تجنيد الأتباع والأنصار هـي اسـتغلال إحساس الأفراد بالإحباط، والتركيز عليه، وترسيخه وإلهابه، والحيلولة دون تبدده أو تضاؤله إلى حـين اسـتيلائنا علـى السلطة بإذن الله.

والفرد عادة يميل إلى إلقاء المسئولية عـن فشـله علـى الظروف المحيطة به، والأنظمـة السياسـية والاقتصـادية والاجتماعية القائمة؛ حتى لا يفقد احترامه لذاته؛ ولذا فإننـا غالبا ما نرى أولئك الذين نجحوا في حياتهم، وحققوا معظـم ما كانوا يصبون إليه من آمال، راضين عن العالم حـولهم، حريصين على أن تبقى الظروف المحيطة بهم على ما هـي عليه، في حين نرى المخفقين المحبطين شديدي التطلع إلـى حدوث تغييرات جذرية في تلك الظروف.. فالفاشلون – إذاً- يصرون دائما على البحث خارج أنفسهم عن أسباب فشـلهم، حتى وإن حاول البعض أن يشير لهم إلـى أهميـة بعـض الاعتبـارات الشخصـية كالمواهـب والقـدرات الذاتيـة، والشخصية والصحة والمظهر الخارجي، إلى آخره.. أو كما

يقول حكيم من حكماء الغرب: "ما يصيب الإنسان من آفـة تعوقه عن أداء مهامه - حتى إن كانت هذه الآفة مجرد ألـم في أمعائه - حتى يثور وينبري لإصلاح الكون!".

وهذا الميل لدى الفاشلين إلى إلقاء تَبِعة الفشل على النظام القائم والظروف المحيطة، هو ما ينبغي عليكم فـي المقـام الأول أن تغذوه وتقووه وتدعموه بكافة الوسـائل. وإن مـن المحتم علينا – ونحن قادة الحركة – ومن أجل ضمان نجاحنا في الوصول إلى الحكم، استقطاب وتجنيد الشباب الذي يحدوه الأمل في تغيير هائل وجذري ومفاجئ في أحواله المعيشية، المؤمن بأنه في الوسع أن تتغير الأمور بلمسة واحـدة مـن عصا سحرية، أو بتمتمة عبارة "افتح يا سمسـم".. فلنخلـق الاعتقاد - إذًا- لدى هؤلاء الشباب بأن في حـوزة تنظيمنـا مفاتيح الغد المشرق، وأن نبعث في قلوبهم الآمال العريضـة والثقة في قدرتنا على تحقيقها، وفيما يخبئه هذا الغد لهم مـن كنوز، سواء تمثلت هذه الكنوز في جنات الآخرة وملكـوت السماوات، أو في بناء المدينة الفاضلة أرض اللبن والعسـل، أو في الهيمنة الدولية وفتوحٍ للبلدان على نهج فتوحات عهدي أبي بكر وعمر.

ولا يسعني هنا إلا أن أهنئكم على نجاحكم في خلق هـذا الاعتقاد لدى قطاعات عريضة من الجماهير.. وهو نجاح لا يدانيه في الأهمية غير نجاحنا في إضفاء الطابع الديني على حركتنا، وخلع سمة القدسية على أغراضـنا؛ بحيـث بـات أنصارنا يرون في خدمة أهدافنا خدمةً لله وشريعته، وموتهم في سبيلها استشهادا، وإطاعتنا من إطاعـة الله والرسـول، والعمل على تنفيذ مخططاتنا عبادة، والتخلص مـن أعـدائنا بالاغتيال والإرهاب قربة إلى الله وزلفى.

وقد وصلت وأصحابي إلى اقتناع بضرورة هـذا الأمـر حين لمسنا من خلال قراءاتنا في التاريخ الإسلامي أن مـن أبرز سمات هذا التاريخ أن الحركات الثورية التي أثارتها في دار الإسلام اعتبارات اجتماعية أو مظالم اقتصادية وسياسية، إنما ارتبط كل منها منذ بدايته ارتباطا وثيقا بفكر ديني، ومـا كان ليدور بخلد أتباعه أن احتجاجهم على السلطة نابع عـن غير العقيدة الدينية، ولا أن لهم من الأهداف غيـر تخلـيص الأمة من حكم لا يرضاه الله، والعودة بهـا إلـى الشـريعة وطريق الدين القويم.

فتعبير المسلمين – إذًا- وطوال تاريخهم، عن مناهضتهم أو مناصرتهم لهذا النظام القائم أو ذلك، كان دائما تعبيرا دينيا بصورة أساسية، ولنا في طائفة الخوارج دوما أسوة حسنة.. فهم قوم مولعون بالحرية البدوية المطلقـة، مولعـون بشـن الغارات على القوافل والقبائل من أجـل الغنيمـة، شـديدو البغض لحياة المدن وتنظيمها الدقيق الذي لم يـألفوه.. غيـر أنهم وجدوا حاجة إلى إيجاد أساس ديني لرغباتهم، وإلـى أن يوهموا أنفسهم أنهم في سعيهم إلى إشباعهم إنما يحرصـون على الالتزام بأحكام الدين.. فكان أن خرجوا علـى السـلطة شديدة الوطأة واتهموها بالكفر، وكـان أن هجـروا المـدن البغيضة إلى قلوبهم وأسموها دار حرب، وكان أن اسـتأنفوا الغارات الجاهلية بغرض السلب والغنيمة وخالوا أنها جهـاد، وكان أن ربطت أوثقَ الوشائج بين أفراد جماعتهم الصـغيرة وقالوا: إنهم أهل الجنة!

لستُ مبالغا - إذًا - حين أقول: إن اتخاذنا الـدين قناعـا لمطامحنا، وغلافا لمصالحنا هو من جميع الوجـوه أعظـم إنجاز لتنظيمنا.. ذلك أن ربط أهدافنا بالإسـلام جعـل مـن العسير للغاية على الحكومة أن تفـرض طاعتهـا وطاعـة

قوانينها على أعضاء الجماعات التابعة لنا.. فمن خلال أنه إنما يطيع الله بأعماله من المؤكد أنه لن يطيع غيره.. ومن ظن أنه يتلقى الوحي مباشرة من السماء، ليس في حاجة إلى أن ينصت لحديث من في الأرض.. فأي نجاح – إذًا - يمكن أن يعدل نجاحنا في إيهام الشباب بأن غاياتنا غايات إلهية، وصالح جيوبنا مما تقضي به الشريعة الإسلامية، وتطلعنا إلى الحكم هو إرادة الله من فوق سبع سماوات؟ وإنما فشل العلمانيون وغيرهم في استثارة حماسة الجماهير؛ لإحجامهم عن الحديث باسم الله.. وكثيرا ما كنت في شبابي أقول لمعارفي من الماركسيين: إنهم لو كانوا ملمين بطبيعة تكوين شعبنا، وبتاريخه واحتياجاته النفسية لأقبلوا عن طيب خاطر على تغليف مبادئهم الماركسية بالدين، وربط شعاراتهم بالإسلام ونسبة أحاديث إلى النبي مثل: "من تملك وسائل الإنتاج عامدا متعمدا جيء به يوم القيامة وفي عنقه حبل من مسد" أو " من قال بأن قيمة السلعة يحددها اعتبار غير جهد العامل في إنتاجها فليتبوأ مقعده من النار" أو كما قال!

كذلك لا بد قد لاحظتم أنه كلما فقد الإنسان إيمانه بجدوى شئونه الخاصة، تحول إلى الاهتمام بشئون الآخرين، وإلى

الاعتقاد بأن من واجبه المقـدس أن يتـدخل فـي أمـورهم الشخصية، في لهوهم وجدهم، في مأكلهم ومشربهم، في طول لحاهم أو طول جلابيبهم.. وهو في إقدامه على قتل السـياح، أو على إفساد حفـل بإحـدى الجامعـات، أو تكسـير آلات موسيقية، أو الحيلولة دون عرض مسرحي، أو الاعتداء على متاجر يمتلكها أقباط، يخال أنه إنما يخدم الصالح العام وهـو لا يخدم إلا ذاته، ويخال أنه بعمله إنما يثبت إنكـاره لذاتـه واستعداده للتضحية بها، والحقيقة أن زهوه بذاته الجديـدة لا يدانيه زهو الطاووس، وأنه لو نفد البحر لما نفـد كبريـاؤه وخيلاؤه.. قد حسبوا أن الله لا يرحمهم حتى يعذبوا أنفسـهم ويأخذوها بالقسوة، وأظهروا التواضع في سلوكهم وحـديثهم وأكنوا الكبر في قلوبهم، وإن أحدهم لأشـد عجبـا بكسـائه المرقع من صاحب الحلة الثمينة بحلته!

إنه لشرط أساسي - إذًا- لإقدام أناس على محاولة تغيير الأوضاع وقلب نظام الحكم، أن يتوافر لديهم اليقين بأن فـي جعبتهم عقيدة لا يتطرق إليها الشك، وعلى رأسهم زعامة لا تخطئ، وفي صفوف جماعتهم قوة لا ترد، وفي انتظـارهم مستقبل مشرق جم الوعود.. غير أنه ثَم اعتبار آخـر بـالغ

الأهمية، وهو أنه لا يقبل على الانضمام إلى تنظيم كتنظيمنا إنسان يحب ذاته ويحترمها ويسعى إلـى إنمائهـا ورعايـة مصالحها.. وإنما يقدم على الانضمام إليه كـل مـن ينشـد التخلص من ذاته التي يكرهها ولا يريدها.. فحركة كحركتنا لا تجتذب الأتباع بسبب قدرتها على إشـباع حـاجتهم إلـى تحقيق الذات ودفعها إلى الأمام، وإنما بسبب قـدرتها علـى إشباع رغبتهم العارمة في إطراح الذات والـتخلص منهـا.. فهنا شوق إلى ذات أخرى، وحياة مخالفة، وميلاد جديد.. إلى اعتزاز بالنفس يقتلع كراهيتها، وثقة تعوض عن الاضطراب والحيرة، وأمل يحل مكان اليأس، وإحساس بالهـدف يبـدد الإحساس بالضياع، وإيمان الفرد بأهميته وقيمته وجدواه متى اقترن بغيره في تبني قضية مقدسة.. وحركتنـا تتـيح لهـم فرصة تحقيق كل ذلك، هي بديل عن الذات البغيضة، توحي إلى من انضم إليها أنه قد ولد من جديد ليبدأ حياة جديدة، مع مجموعة كبيرة من أمثاله ممن تعزز كثرتهم من ثقة الفـرد منهم بنفسه وباختياره، فلتحرصـوا - إذًا- أثنـاء دعـوتكم وتصيدكم للأنصار على مراعاة هذا الاعتبار.. وقـد سـبق للمفكر الفرنسي باسكال أن عرض لهذه الفكرة حين قال:

"يود الإنسان لو أنه عظيم، بيد أنه ينظر فإذا هو ضئيل.. ويود لو أنه سعيد، بيد أنه ينظر فإذا هو شقي.. ويود لو أنـه كامل، بيد أنه ينظر فإذا هو مفعم بالنقائص.. ويود لـو أنـه موضع حب الناس وتقديرهم، بيد أنه ينظر فإذا عيوبه ليست أهلا إلا لبغضهم واحتقارهم.. فإذا الحيرة والارتبـاك وقـد تملكاه يثيران فيه أشد المشاعر إجراما وأبعدها عـن العـدل والحق.. ذلك أنه قد أضحى وقد غلبت عليه الكراهية القاتلـة تجاه الحقيقة التي تدينه وتريه عيوبه ونقائصه في جلاء..".

فإيمان الفرد – إذًا- بقضية مقدسة هو إلى حد بعيد بـديل عن إيمانه المفقود بذاته.. ومن المؤكد أنكم لاحظتم أنه كلمـا تضاءلت مبررات ثقة المرء بنفسه ومناقبه، عظم اسـتعداده لأن يضفي المناقب والفضل على أمته، وعلى دينه، وعلـى جنسه، وعلى قضيته.

وأود الآن أن أذكر ملاحظة طريفة: إن الهجرة إلى خارج الوطن تهيئ للفاشلين المحبطين الآمالَ نفسها التـي يهيئهـا انضمامهم إلى جماعتنا الدينية: الأمل في التغيير والأمل في بدء حياة جديدة في أرض الميعاد.. ولـذا فـإن كـلا مـن المهاجرين وأفراد جماعتنا هم في الجوهر، الصنف من نفس

الناس.. وليس من الغريب أن يتخذ التطرف الديني هو أيضا شكل الهجرة حتى مع بقاء أصحابه داخل حدود الوطن.. هي هجرة داخلية إذن.. والمهاجر عـن مصـر يتبـع تحقيـره لمجتمعه بالرحيل عنه، في حين يتبـع المتطـرف تكفيـره لمجتمعه بالهجرة الداخلية.. فهنا "تحقيـر وهجـرة" وهنـاك "تكفير وهجرة" وليس من المصادفة على الإطلاق أن يشـهد مجتمعنا في توقيت واحد اتساع نطاق الهجرة واتساع نطـاق الانضمام إلى الحركات الدينية.

والأطراف من ذلك ما يتصل بالجريمة.. ففي الفترة نفسها التي زادت فيها جرائم القتل والسرقة والنصب والاغتصـاب وغيرها في مصر زيادة كبيرة مفاجئـة زاد لجـوء أفـراد الجماعات الدينية إلى أعمال العنف والإرهـاب والاغتيـال وإحراق الكنائس وسرقة متاجر الحلي.. هذه باسم الشـيطان، وتلك باسم الرحمن.. وهنا أيضا نجد الاقتران الزمني لـيس من قبيل المصادفة.. فالأوضاع الاجتماعية السائدة، خاصـة منذ انتهاك سياسة الانفتاح الاقتصادي، قد أسهمت في زيـادة العناصر الإجرامية.. والكثيرون مـن هـؤلاء المجـرمين بانضمامهم إلى الجماعات الدينية قد أخفوا عن أنفسهم تلـك

النزعات الإجرامية الكامنة فيهم بإلباسها ثوب الدين والتقوى ومخافة الله وطاعته، وأمكن لهم بـذلك الاحتفـاظ بالنزعـة الإجرامية وبسكينة الروح في آن واحد.. وهو دافع بوسـعنا أن نستغله أعظم استغلال في التخلص من بعـض أعـدائنا، وإرهاب البعض الآخر؛ وذلك باستدراجنا للمجرم الذي هـو على استعداد لقتل امرأة عجوز من أجل حليها لتنفيذ اغتيـال فرج فودة، أو قتل السياح الأجانـب، وللفتـوة ذي النـزوع العارم إلى إثارة الشجارات أو الدخول فيها وتحطيم المتـاجر وتكسير الفوانيس بالشوارع لتنفيذ تفريق الفـرق التمثيليـة، وتحطيم الآلات الموسيقية، وإشعال النار في نوادي الفيـديو، والاعتداء على الأقباط.

المجرمـون إذن، والفاشـلون المحبطـون، والعـاطلون والمراهقون، وكل من صادف صعوبة في التكيف أو النجاح في مجتمعه، هم أعواننا الحاليون والقادمون.. قـد جمعـت بينهم الكراهية لهذا المجتمع، فصاروا على أتـم الاسـتعداد لهدمه وإشاعة الفوضى فيه، والتكاتف فيما بيـنهم لتخريبـه، ظانين أن يد الله فوق أيديهم، وما فوق أيديهم إلا أيدينا.. وبذا

يضحي الحجر المرفوض ركن الزاوية، لمجرد إيحائنا إليهم أن كافة آمالهم المحبطة ستتحقق فور وصولنا إلى الحكم..

لا تضيعوا – إذًا- وقتكم في محاولـة اسـتمالة العامـل المثابر، أو الفلاح القانع، أو الموظف الجـاد، أو أي امـرئ أعفاه جده ومثابرته – مهما بلغ به الفقر – مـن الإحسـاس بالضياع، ولتركزوا بالأخص على أفراد الطبقة البورجوازية التي باتت اليوم في رعب من أن تتحـول إلـى بروليتاريـا بسبب الأحوال الاقتصادية المتردية..

وثمة صنف آخر من الناس – من جميع الطبقات – لا بد من أن تولوهم اهتمامكم، وأعني أولئك الذين يخشون نعمـة حرية الاختيار، بل ويمقتونها ... وهم بحمد الله أكثـر ممـا تظنون.. فالحرية عبء على من لا موهبة لديه في أن يصنع من نفسه شيئا، ومن شأنها أن تلقي بتبعة الفشل على عـاتق الفاشل لا على الظروف المحيطة به.. وقد وصلت إلى إيمان بأن غالبية الناس إنما تنضم إلى جماعاتنا الدينية ليتحـرروا من حريتهم وفرارا من المسئولية الشخصية.. هـم يخشـون الحرية أكثر مما يخشون اضطهاد السلطة وسجونها، وأخوف ما يخافون هي تلك المنافسة الحرة التي من شأنها أن تفضح

عجزهم وافتقارهم إلى القدرات ... وبالتالي يصـبح جمـاع همهم أن يتحولوا إلى تروس بلا هوية في جماعـة تسـودها المساواة، أو إلى خيوط بين خيوط جمة في ثوب أو قماش لا يمكن التمييز بين هذا الخيط فيه وغيره..

كذلك ينبغي التركيز على أولئك الطلبة والعمال النازحين من الريف إلى المدن الكبيرة للدراسـة أو العمـل، مخلفـين وراءهم دفء الحياة العائلية الآمنة التي هي ألد أعداء حركة كحركتنا.. وقد علمنا التاريخ أن جل الحركات الثورية كـان يقف من العائلة موقف الخصومة والعداء، وأن رجالها كانوا دائما يعملون جاهدين من أجل الوقيعة بين المـرء وأخيـه، وأمه وأبيه، وزوجته وبنيه؛ حتى يضحي في النهاية بمفـرده وحيدا في محيط لا يأمن له أو فيه، فيسهل بذلك على الدعاة اصطياده.. وما من شك في أنه من أقوى الاعتبارات التـي ساهمت في نجاحنا ما شاهده المجتمع في السنوات الأربعين الأخيرة من انهيار الولاءات القديمة، وحظر قيام الأحـزاب، وتحلل الروابط الأسرية والاجتماعية التقليدية، وكثرة الوافدين من الريف إلى المدن ممـن اضـطربت نفوسـهم وضـاع

إحساسهم بالأمن نتيجة لهذا النزوح. وهو الحال نفسه مع الجنود المسرحين من الجيش..

***

لنحمد الله - جل شأنه - على أن الحزب الوطني في مصر ليس ذا قضية يمكن للشباب المصري أن يتبناها ليموت في سبيلها، ولا له من مشروع حضاري، غير إعادة جدولة ديون مصر الخارجية، وإيواء المتضررين من الزلزال، كما نحمد الله على أن قضايا الأحزاب الأخرى، قد ضلت وماعت، ولم يعد في الساحة غير حركتنا الإسلامية، مما بوسعه أن يجتذب المحبطين، وأن يبعث الأمل في قلوب الفاشلين واليائسين.

وفق الله مسعاكم وأنجح مرادكم، وهداكم وإيانا سواء السبيل.

الأحزاب السياسية المصرية وقضية التطرف

في مصر، تميز القرن التاسع عشر والعقود الأولى مـن القرن العشرين بتعاظم الوعي بضرورة "التحديث" على النمط الغربي. وكان مفهوم معظم الزعماء السياسيين والمصـلحين الاجتماعيين عن التحديث هو تبني العلمانية، والاقتباس قـدر الإمكان من نظم الغرب، كالمجالس النيابية، ونظام الأحزاب السياسية، وسن دستور للبلاد، وبناء الاقتصاد القومي علـى أسس حديثة، والتوسع في التعليم المدني.. إلى آخره. وكـان وراء هذا الاتجاه هـدفان: اللحـاق بالعصـر والاسـتجابة لمقتضياته ومتطلباته بعد قـرون مـن التخلـف والركـود، والاستعانة بثمار التحديث في نيل الاستقلال والتحـرر مـن ربقة الاستعمار والهيمنة الغربيين.

وقد وجد مصطفى كامل مثله الأعلى في التجربة اليابانية في التحديث ودعا إلى تقليدها، في حين اتجه سائر الزعمـاء بأبصارهم إلى الغرب مباشرة يحتذون خطاه.

فإن استثنينا تيارا ضعيفا مقضيا عليه بالفشل من رجـال الدين المحافظين أو عملاء الدولة العثمانية، قلنا إنه قد كـان ثمة ما يشبه الإجماع لدى الزعماء والمصلحين بصدد طريق التحديث، وذلك حتى قرب نهاية العقد الثـاني مـن القـرن العشرين. ثم بدأت تظهر في العشرينيات والثلاثينيات تيارات أخرى غير تيار الليبرالية الغربية، أهمها الماركسية (بعد قيام الثورة الروسية عام ١٩١٧)، وجماعة "مصر الفتاة" الفاشـية (عقب وصول هتلر إلى الحكم عام ١٩٣٣)، واتجـاه ثالـث غير مدين للغرب في شيء هو جماعة الإخوان المسـلمين، جاءت تنعي إغفال المسلمين لـدينهم وتـراثهم وماضـيهم، وتعاظم تأثير المدنية الغربية المادية فـي سـلوكهم وأنمـاط عيشهم.

فأما الاتجاه الماركسي فقد فشـل فـي أن يجتـذب إلـى عضويته أكثر من آلاف قليلة من المثقفـين، وفـي أن يمـد تأثيره ويبني لنفسه قاعدة شعبية من العمال والفلاحين. وأمـا التيار الفاشي فإنه بانهيار النازية عام ١٩٤٥ انهار فجأة كما قام فجأة. وأما جماعة الإخوان المسلمين، فإنه بـالرغم مـن نموها وزيادة تأثيرها واتساع قاعدتها الشعبية فإنها لم تفلـح

في الوصول إلى الحكم، وكان ثمة أسباب جعلت من السـهل على الحكومات المتعاقبة تسديد الضربات الحاسمة إليها بـين الفينة والفينة، بدءا بقرار حلها ومصادرة أموالها ومطبوعاتها وإغلاق صحفها واغتيال مؤسسها، وانتهاء بـالزج بقادتهـا والنشطين من أعضائها في السجون وتعـذيبهم واضـطرار الكثيرين من أفرادها والمتعاطفين معها إلى الهجـرة، وهـي ضربات فتت - في النهاية - في عضدها، وأوهنـت مـن عزيمتها، وقصمت ظهرها.

في عهد عبد الناصر

فالاتجاه الليبرالي إذن هو الذي كان مهيمنا على السـاحة، أو يكاد حتى وقوع الانقلاب العسكري عام ١٩٥٢. وقد كان في وقوع هذا الانقلاب ذاته دليلٌ واضح على فشل الليبرالية المصرية التي لم تسفر – رغم دستورها وأحزابها وحريـة صحافتها – إلا عن تفشي الفسـاد، وتفـاقم الفقـر لا علـى مضمون برامجها. فكان منطلق سياسة جمال عبـد الناصـر والشطر الأكبر من المثقفين المصريين هـو الاعتقـاد بـأن إصلاح أحوال مصر لن يتأتى في إطار الليبراليـة الغربيـة (وكأن الليبرالية الغربية، لا المصريين أنفسهم، هي المسئولة

عن فشل تطبيق الليبرالية في مصر)، والاعتقاد بأن البلاد في حاجة إلى أيديولوجيا أكثر ثورية.

وكان أن شرع عبد الناصر، خاصة منذ أوائل الستينيات ومن أجل تحديث مصر، في تطبيق نظام اشتراكي، خاله نابعا من واقع بلاده واحتياجاته، وهو ما صنعه كل من أحمد ابن بيلا في الجزائر، وسوكارنو في إندونيسيا، ونكروما في غانة، وسيكوتوري في غينيا. وقد فشلت كافة هذه الأنظمة في تحقيق العدالة الاجتماعية، أو سد احتياجات الغالبية من أفراد شعوبها، وكان أن سقط معظمها تاركًا البلاد في حال ليس بأفضل مما كانت عليه في ظل العهود البائدة. وقد لجأت حكومة الثورة في مصر بعيد قيامها إلى حل كافة الأحزاب السياسية القديمة، وأقامت عوضا عنها تنظيما هلاميا مائعا لم يجتذب غير الانتهازيين والمضللين، سواء في صورة هيئة التحرير أو الاتحاد القومي أو الاتحاد الاشتراكي، ووجهت أعنف الضربات وأقساها إلى التنظيمين الوحيدين اللذين حاولا مقاومة عبد الناصر والاستمرار في ممارسة نشاطهما، وهما تنظيما الشيوعيين والإخوان المسلمين، رغم أنه مال في البداية إلى استرضاء الإخوان ثم قرر سحقهم، ومال في

البداية إلى سحق الشيوعيين، ثم قرر استرضاءهم، وأما سائر الأحزاب فسرعان ما اندرج في طي النسيان.

فأما الشيوعيون المصريون فقد طرأ على فكرهم تطـور هائل خلال حكم عبد الناصر، ربما كانت نقطة البدايـة فيـه حملة خروتشوف على الستالينية عام ١٩٥٦، واتضاح معالم الصراع الصيني السوفييتي، (وهما حدثان كانا بمثابة محنـة زعزعت إيمان بعـض الشـيوعيين فـي الشـيوعية ذاتـه فهجروها)، وبزوغ فجر اليسار الجديد في أوروبا الغربيـة، مع ميل الأحزاب الشيوعية فيها إلى انتهاج طريقها الخاص، غير الخاضع لهيمنة الكريملين وتوجيهه، وانتشـار أشـكال أخرى من الماركسية غيـر الماركسـية السـوفييتية، وفـي مقدمتها الماوية.

وقد غدا الشيوعيون المصريون إزاء كل هذه المـؤثرات أكثر حرصا على أن يكون فكـرهم نابعـا مـن الأحـوال المصرية والواقع المحلي، كما مالوا بعد إخراج عبد الناصر إياهم من المعتقلات، وإبدائه استعداده للتعاون معهم في تنفيذ برامجه الاشتراكية، ومباركة السوفييت لهذا التعـاون، إلـى هجر الكثير من أفكارهم الأساسية السابقة، وعلـى رأسـها

مفهومهم عن الصراع الطبقي، كل هذا أدى إلى تميع الفكر الشيوعي المصري، وذوبانه التدريجي في الناصرية، فكان من الطبيعي أن يكون سقوطه مواكبا لسقوط النظام الناصري.

ولم تقتصر المحنة في زمن عبد الناصر على الشيوعيين، وإنما شملت – وعلى نحو أعنف – أفراد التيار الديني وعلى رأسهم الإخوان المسلمون، الذين عانوا من الاضطهاد والتنكيل والتعذيب في سجون عبد الناصر، مما دفع غالبيتهم إلى أن تتبنى اتجاها أكثر ثورية وعنفا وتطرفا، وإلى تكفير النظام والمجتمع ذاته اللذين لاقوا ظلهما ما لاقوه، وإلى تحول فكرهم إلى ضرورة العمل بكل السبل المتاحة، بما فيها الاغتيال والإرهاب والعنف والتنظيمات السرية، من أجل الإطاحة بنظم الجاهلية وإقامة حكومة إسلامية.

في السبعينيات

وقد كانت السبعينيات – عهد السادات – أنسب الأزمنة لازدهار هذا الفكر الديني الجديد واتساع نطاق تأثيره في الجماهير؛ وذلك للأسباب التالية:

- ما أدت إليه هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ مـن انهيـار المطامح البعيدة التي أثارتها السنوات الأولى من حكم عبد الناصر لدى الشباب المصري، وانهيار الجبهـة الداخلية، وسخط المثقفين، واتساع الفجوة الفكرية بين الأجيال، وتزايد الشـعور بضـرورة إعـادة تقيـيم الأوضاع بأسرهم، وفقدان الثقة بفكرتـي الوطنيـة والوحدة العربية، وشيوع الاعتقاد بأن الوطنية وحدها لا تكفي، (وهو ما عناه عبد الناصر نفسه؛ إذ أشـار في أول خطاب له بعد الهزيمة إلى أنه لا بـد مـن التمكين للدين من أن يلعب دورا في المجتمع أهم من دوره في الماضي). كما شاع بين الناس تفسير ديني للهزيمة، وهو أن اليهـود إنمـا انتصـروا بفضـل إخلاصهم لدينهم؛ ولأن دولتهم قائمة على مبدأ ديني لا علماني، ولأن الدين أصلح من فكرة القومية فـي إثارة الحماس وتعبئة الطاقات، سواء للقتال أو لبنـاء المجتمع.
- ارتباط الدين بالثورة في فكر غالبية الشباب المصري المتدين، الذي رأى فيما يسمى في العـالم العربـي

بالثورات مجرد انقلابات لا تمس لب الأنظمـة، وأن الحكام حين يشيدون بالإسلام لا يشيدون به عن تقوى مخلصة، وإنما عن رغبـة فـي اسـتغلال تقـوى الجماهير، وأن المؤسسات الدينية الرسمية لا تعـدو أن تكون خادمة للنظام. ولا يتعدى دورها مباركـة خطوات الحكومات ولو تناقضت.

- اتجاه السادات في السنوات الأولى من حكمـه إلـى الاعتقاد على أفراد التيار الديني لضرب الناصـريين والشيوعيين الذين باتوا الآن يحاربونه تحـت لـواء واحد، خاصة منذ تحوله الصـريح عـن اشـتراكية عبد الناصر وعن صداقته مع الاتحـاد السـوفييتي. وكان أن توصل إلـى مصـالحة مـع الجماعـات الإسلامية، ساهم الملك فيصل في تدبيرها صيف عام ١٩٧١، وسمح لصحفها ومجلاتها بالظهور، ومـدها بالأموال بل بالأسـلحة أيضـا، لاسـتخدامها عنـد الضرورة ضد اليساريين، ومكنها من الهيمنة علـى اتحادات الطلاب في الجماعات بعد أن كانـت هـذه الهيمنة لليساريين، وتغاضي عن جو الإرهاب الـذي

أفلح التيار الإسلامي في فرضه على سـائر الطلبـة وعلى الأساتذة أنفسهم. وكان من أعوانه المقربين من اهتم بأن يوفر لأعضاء الجماعات من الجنسين الزي المسـمى بالإسـلامي، والوظـائف داخـل القطـر وخارجه، ولحديثي الزواج مـنهم الشـقق السـكنية والمساعدات المالية، كل هذا في سبيل دعم قوة تخدم أغراض السلطة وتضرب مناهضيها.

- تدفق الأموال على هذه الجماعات مـن أنظمـة دول إسلامية معينة تسـتهدف أمـرين: ضـرب الفكـر اليساري في المنطقة، والتحكم في قوة مـؤثرة فـي سياسة أقوى دولة عربية. وقد كان لهذا التدليل وهذه المساندة اللذين تلقتهما الجامعات الإسلامية من النظام في الداخل، وأنظمة غنية في الخارج، أثرهمـا فـي زيادة إحساس أفرادها بقوتهم، وبقدرتهم على التعامل مع السلطة في مصر تعامل الند مع الند.
- تهافت الآلاف المؤلفة من الشباب المصري وأفـراد طبقة البرجوازية الصغيرة على الانضمام إلى هـذه الجماعات حين بدأت تظهر للأعين الآثار الوخيمـة

لسياسة الانفتاح الاقتصادي التي رأوا فيها تهديدا للقيم الإسلامية كلها وللتقاليد المصرية، وصارت من أهم ظواهر المجتمع المصري ظاهرة الرعب لدى البورجوازية من أن تتحول إلى بروليتاريا، وإدراكها عجزها عن صد التيار الذي يجرفها إلى هذا المصير إلا بتقبلها فكرة الانحراف، أو بالانضمام إلى جماعات دينية تشعرهم عضويتهم فيها بأنهم ليسوا وحدهم في خضم الصراع، بعضهم يشد من أزر بعض، ويسعون جميع إلى إسقاط نظام لا يفيد منه غير القوادين والأفاقين وتجار المخدرات.

- نجاح الثورة الشعبية في إيران في الإطاحة بالشاه وإقامة نظام إسلامي، بالرغم من مناهضة حكومة قوية، وجيش حديث السلاح، وجهاز مخابرات تدعمه الولايات المتحدة.

فقدان الثقة في مختلف الحلول

ونضيف إلى كل هذا اعتبارين هامين:

الأول: أنه بانقضاء الستينيات كان قد ساد شعوب المجتمعات الحديثة في معظم أنحاء العالم شعور بأن عملية

التحديث لم تحل الجانب الأكبر من مشكلات البشـرية، بـل وتسببت في خلق مشاكل جديدة، كتلوث البيئة وانهيار القـيم الأخلاقية وتفاقم الأمراض النفسية وانتشار تعاطي المخدرات واللجوء إلى الجريمة وأعمال العنف.. إلى آخره. ولن يكون بالوسع مجابهة هذه المشكلات أو تلك إلا ببذل الجهد من أجل إعادة تعريف الحداثة والتمدن، وإعادة تحديد أهداف الحيـاة في العصر الحديث. وقد واكب هذا كله الإيمان بأنه لا يزال للدين دور مهم يمكن أن يلعبه في الحياة السياسية والثقافيـة لأبناء هذا العصر وأفراد هذه المجتمعات العلمانية. فمن تزايد إحساس مسلمي الجمهوريات الإسلامية السوفييتية بهـويتهم الإسلامية، إلا مطالبة العمال في بولنـدا بإذاعـة الصـلاة الكنسية في إذاعة الدولة، إلى تأكيـد الرؤسـاء الأمـريكيين ككارتر وريجان على التزامهم بمؤازرة التيار الـداعي إلـى العودة إلى الدين، وبالعمل على غرس الأخلاقيات المسـيحية في شباب الولايات المتحدة، إلى تزايد قوة الأحزاب الدينيـة اليهودية في إسرائيل، إلى اعتماد حكومـة البرازيـل علـى رجال الكنيسة الكاثوليكية في تنفيذ خطة الإصلاح الزراعي، إلى غير ذلك من الأمثلة التي تجعل من الضروري أخذ هذه

الظاهرة العالمية – ظاهرة العودة إلى الدين – في الاعتبـار عند تقييم نمو التيار الإسلامي في مصر.

والثاني: ما شاع بين شباب مصر ومثقفيها ومفكريها من خيبة أمل وفقدان الثقة فـي مختلـف الحلـول والمـذاهب والأيديولوجيات التي جربتها مصر واحدة إثر أخرى علـى مدى قرن من الزمان، مع حماس زائـد فـي كـل حالـة، واستعداد للتضحية بالنفس فـي سـبيلها، وإيمـان مطلـق بفاعليتها، وتهليل وتمجيد لقادتها، واحتمال السجن والتشـريد والتعذيب من أجل محاولة تطبيقها، حتى إذا طبقت، لم يـنجم عنه غير شيوع الفساد، والدمار الاقتصادي، وانهيـار القـيم والأخلاق والتقاليد، والهزائم العسكرية، وقمـع الديمقراطيـة والحريات، وتفاقم المشكلات الاجتماعية.

فما الذي بقي غير أن نجرب أن تحكم الأمة لا وفق أنظمة ومبادئ من وضع بشر قد يخطئون، وإنما وفْق أحكام القرآن والسنة التي لا يمكن أن يعتورها خطأ؟

ذلك هو أساس الحركة الإسلامية الجديدة: لقـد افتـرض الليبراليون المصريون أن العلمانية أمر لصيق بعملية تحديث البلاد، وأنه لا سبيل إلى التمدن إلا بفصل الدين عن الحيـاة

السياسية والثقافية وقصره على الحياة الداخليـة للفـرد. ثـم جاءت الحركات الدينية تؤكد ضرورة أن تشمل العقيدة كافـة أوجه الحياة وميادين النشاط البشري، وأن العلمانية ظـاهرة خاصة بالتجربة المسيحية الغربية، ولا شأن لها بالمجتمعات ذات التراث الديني المختلف. وهي لا تعترض على التحديث، أو على الأخذ بقسط وافر من العلوم والمعارف والتكنولوجيا الحديثة. غير أنها لا ترى أن يكون التحديث بالضرورة على النمط الغربي، وتؤمن بأنه بالاستطاعة الجمع بـين الحداثـة والتقوى، وبين التمدن والشريعة الإسلامية، وتذهب إلـى أن في حوزتنا حلا لم يجرب، وأمامنا بابا لم يطرق، ودربا لـم نسر فيه، هو الإسلام ذو الجذور العميقة في تكويننا الروحي والذهني، وفيه الغناء عن الأيديولوجيات المستوردة، وبوسعه أن يكون أساسا لكل بناء في المستقبل.

موقف حزبي التجمع والوفد

انتشر هذا المنحى الفكري الإسلامي بين الشباب وغيـر الشباب في المجتمع المصري؛ رجاله ونسائه، انتشار النـار في الهشيم، وكان على الرئيس حسني مبارك الـذي تـولى الحكم عقب اغتيال السادات عام ١٩٨١ على يد أحد أفـراد

هذه الجماعات الإسلامية، وعلى الأحزاب السياسية الجديـدة التي سمح النظام بقيامها، أن يولوا هذه الظاهرة الدينية جانبا كبيرا من اهتمامهم.

فأما الشيوعيون فلم يمانعوا في الانخراط في حزب جديد هو حزب التجمع الذي ينكر اقتصـاره علـى الماركسـيين، ويصر على أن بابه مفتوح لكافة القوى التقدمية في الـبلاد، معترفا - بذلك - بأن ثمة قوى تقدمية غير ماركسية، وبـأن مسعاهم السابق إلى اجتذاب الأنصار من العمال والفلاحـين إلى الشيوعية قد فشل. كذلك أكدوا أن فكرهم في زيه الجديد غير مستقى مـن أيـديولوجيا مسـتوردة، وأن الاشـتراكية الراديكالية ليست بالضرورة ماركسية لينينية، بل هـي فـي مصر والعالم الإسلامي – شأنها في أنحاء أخرى من العـالم – قد أضحت تمثل اتجاهات جديدة متنوعـة مـن التـراث الراديكالي القديم. وقد خلف حـزب التجمـع وراء ظهـره بصورة واضحة وصية لينين للحزب الشـيوعي السـوفييتي بالحرص - فوق كل اعتبار آخر - على النقاء الأيديولوجي للحزب، وبالتضحية في سبيله بكثرة أعضائه، رائيا أن مائـة صابرة صادقة أكثر فاعلية من ألف مـن ذوي الاتجاهـات

والمواقف المائعة، فقد أضحى الإكثار من عدد أعضاء حزب التجمع الآن من أهدافه الرئيسة، وبات على استعداد للتضحية من أجل هذا الهدف ببعض مبادئه حتى الأساسي منها. وقـد كان عليه - إذ يرى تزايد قوة الاتجاهات الدينية في مصر- ألا يستثيرها أو يغضبها فيجلب بذلك على نفسه مـن جديـد تهمة الإلحاد القديمة، وينفر أتقياء المسلمين منه، فكان أن أكد أهمية الدين كعنصر فعال في الحياة السياسية، وانبرى قادته وكتابه يشيدون بالإسلام، بل ويسعون إلى التقرب من بعض الجماعات الإسلامية الأقل تطرفا ورجعية من أجل زعزعـة الحكم. ولم يصرفهم عن هذا المسعى غير فقد الأمـل فـي استجابة تلك الجماعات لندائهم.

أدرك الشـيوعيون – إذًا - ضـرورة الوصـول إلـى الجماهير، وضرورة المشاركة الشعبية الفعالة فـي معتـرك السياسة، وأهمية تحرير الحزب من المركزية المفرطة ومن السيطرة السياسية للصفوة ومفاهيم الأنتيليجنتزيا، وباتوا أكثر استعدادا لقبول مبدأ تعدد الاتجاهات داخل حـزب التجمـع. وهو مع احتفاظه بشعار الاشتراكية، صـار أكثـر انشـغالا

بقضايا التحرر الوطني والديمقراطية والوحدة القومية منه بقضية الصراع الطبقي.

وقد كانت تنازلاته المتتابعة بالذات – وهي التي طمع الحزب من ورائها في زيادة عدد أنصاره – هي العدو الأول لنجاح الحزب في صورته الجديدة. فقد أدرك الناس في يسر ما طرأ على موقف الشيوعيين من ضعف اضطرهم إلى التسول والاستجداء، وإلى تغليف النوايا والأهداف، في حين أدرك الشيوعيون القدامى أن النقاء الفكري للحزب قد ضاع، وأن موقفه الأيدلويوجي قد ماع، فتركوا صفوفه عن احتقار لصورته الجديدة، ولم تفد هذا التنازلات حتى في اجتذاب العمال والفلاحين.

وأما عن حزب الوفد الجديد، فقد اعتمد في إعادة تأسيسه وجمع الأنصار – شأن الحركات الإسلامية – على خيبة أمل الغالبية من أفراد الشعب في الحلول المجربة، لا منذ مائة عام كما عند الإسلاميين، ولكن منذ ثورة عام ١٩٥٢ فحسب، فقد استغل حزب الوفد ما لمسه لدى الكثيرين من حنين إلى الماضي، إلى مظاهر الحياة القديمة غير المعقدة والخالية من التوتر والضغوط العصبية والتزاحم والتكالب على كسب

المال، وقبل أن تفسد الأخلاق وتخلو العلاقات الاجتماعية من التراحم والتآخي، وحين كانت المواصلات صالحة لاستخدام الآدميين، والشوارع لا تعرف الزحام، والسماء خالية من سحابات التلوث، وحين كانت يافطات "شقة للإيجار" تصادف الأعين في كل شارع، وسيارات الأجرة تقف لكل من يشير لها بالوقوف، ثم الحنين إلى الموسيقى القديمة والأفلام القديمة وعلم البلاد القديم.. إلى آخره.

ولسبب ما، ارتبطت كل هذه الخيرات والمباهج في أذهان بعض الناس بحزب الوفد، وكأنما هو الذي كان مسئولا قبل الثورة عن توفيرها، وكأنما هو الذي صمم راية مصر الخضراء، وأنتج الأفلام القديمة، ووضع الألحان لأغاني سيد درويش وفرقة الموسيقى العربية، ثم كأنما بوسعه – متى تولى الحكم – أن يعيد كل شيء إلى ما كان عليه قبل أن تفسده الثورة.. حتى سيجار الباشا زعيم الوفد نفسه أصبح رمزا من رموز الماضي محببا إلى النفوس!

غير أن حزب الوفد لم ير الاقتصار في سبيل كسب الشعبية على هذا الحنين الشائع، وذلك حين نظر حوله فلمس القوة المتصاعدة للحركة الإسلامية في البلاد. وقد تردد زمنا

بين التمسك بعلمانيته التقليدية التي جلبت له في الماضي تأييد غالبية الناخبين القبط، وبين التحالف مع إحـدى الجماعـات القوية من جماعات التيار الديني (وهـي جماعـة الإخـوان المسلمين)، فارتأى أن من شأن هذا التحالف أن يفيـده فـي المعارك الانتخابية أكثر مما يفيده التمسك بالعلمانية، خاصـة إن وفق في أن يوحي إلى الأقباط - من طرف خفي - بـأن تحالفه مع الإخوان مجرد تحالف تكتيكي مرحلي.

"موقف" الحزب الوطني

فإن كان حزب الوفد (وهو القوي نسبيا) قد رأى ضرورة ملحة في التحالف مع جانب من التيار الإسلامي، وإن كـان حزب التجمع (وموقف معظم أعضائه من الدين معروف) قد وصل إلى أنه من الحكمة مهادنة النزعات الدينية، فليس من المستغرب أن يتبنى القضية الإسلامية حزبان تافهـا الشـأن (هما حزبا العمل والأحرار)، وعلى نحو أكثر حماسا، أمـا الحزب الوحيد الذي لم يحذُ حذو سائر الأحـزاب فـي هـذا الصدد، فهو الحزب الوطني؛ وذلك لمجرد أنه قد صادف أن يكون الحزب الحاكم، والحزب الحاكم هو دائما أقل حاجة من غيره إلى انتهاج سياسة انتهازية، غير أن نقطـة الضـعف

الظاهرة في الحزب الوطني هي خلـو برنامجـه مـن أيـة أيديولوجيا متبلورة أو طابع مميز، وهو ما قد نعـزوه إلـى طبيعة الظروف التي نشأ فيها هـذا الحـزب أثنـاء حكـم السادات، فنقطة البداية في نشأة أي حزب سياسـي هـي أن يتجه أفراد يجمعهم فكر واحد إلى إقامة تنظيم لـه برنـامج يعكس هذا الفكر. وهو بالضبط ما لم يحدث في حالة تأسيس الحزب الوطني الذي جاء بناء على تعليمات أنور السـادات، واختير أعضاؤه (بل وأعضاء من الأحزاب الأخرى، أحزاب المعارضة!) بصورة عفوية تحكمية، ثم أقبل على الانضـمام إليه عدد كبير من الانتهازيين الذين ما كانوا لينضموا إليـه لولا أنه في السلطة.

أصبحت صورة الأوضاع السياسية في مصر – إذًا- على النحو التالي: مشكلات ضخمة متفاقمة، وحزب حاكم تعـوزه سياسة بينة المعالم والأهداف، وأحزاب معارضة أهمها حزب الوفد الذي يعمل من منطلق غريـب، لا هـو بالكـافي ولا بالمقنع ولا بالفعال، ألا وهو الحنين إلى الماضي، ثم حـزب التجمع الذي تضيع هويته الأصلية شيئا بمرور الأيام، وتيار

إسلامي جارف يشعر الجميع بضرورة مراضـاته، وتـؤمن الحكومة – رغم عدائه لها – بأهمية مراعاته.

وفي اعتقادنا أن مثل هذا الوضع ما كـان لينشـأ لـولا المواقف التي اتخذتها الحكومة، وكافة الأحزاب، والليبراليون في مصر من خطر ذلك اليمين المتطرف.

فالحكومة وحزبها – رغم جو الديمقراطية والحرية الـذي وفراه – لم تصغ لنفسها المبادئ والأفكار والمثل التي يمكنها أن تلهب مخيلة الجماهير، وتثير حماسهم، وتضمن تعلقهـم بها، وجديتهم في الدفاع عنها ضد كل خطر أو عـدو. وقـد كان على الحزب الوطني – إزاء ما يتمتع به فكر الجماعات الإسلامية المتطرفة من قدرة هائلة على اجتـذاب قطاعـات واسعة هامة من الشعب – أن يضطلع بمسئوليتين جسيمتين:

الأولى: أن يطرح هو بدوره في الساحة فكـرا متكـاملا شاملا قادرا على المنافسة، مدركًا أنه ما من أمل في نجـاح مقاومته لتلك الجماعات ما لم يخرج بأيديولوجيا أخرى قادرة هي أيضا على اجتذاب الجماهير، وتطرح الحلـول العمليـة لمشكلات العصر.

والثانية: أن ينبري المفكرون فيه لفضح المزاعم الفكرية لأعدائه الذين باتوا يهيمنون على الشـارع وعلـى مسـتقبل الأمة، وأن يظهرهم في صورتهم الحقيقية، صـورة أفـراد محدودي الفكر والتعليم والثقافة، ويبـين اسـتحالة تحقـيقهم للوعود التي يكيلونها كيلا لأمتهم.

أما عن اليسار والوفد والمثقفين الليبراليين، فقد كان عليهم أن يدركوا أين يكمن الخطر الأكبر علـى الدولـة، وعلـى الديمقراطية والحرية وعليهم جميعا، ومن هو عدوهم الأول، فيدفعهم هذا الإدراك إلى توحيد الصفوف في جبهة صـامدة مناضلة إلى حين استئصال خطره. غير أن الذي يحدث الآن هو خلاف ذلك: فاليسار والوفد سعيدان إذ يريان الإرهـابيين المتطرفين يهدمون بمعاولهم هيبة النظام وسـلطانه، ظـانين أنهما هما المستفيدان من زوال هذه الهيبة وهـذا السـلطان. والمثقفون الليبراليون – كعادتهم في كل عصـر وقطـر – قاعدو الهمة خاملون، عاجزون رغم استنارتهم- أو بسببها – عن الوقوف في وجه همجية ديناميكية غير عقلانية. وقد كان على كل من هذه الفئات، وعلى الحكومة وحزبها، أن يـرى في أفراد الفئات الأخرى حلفاءه الطبيعيين، وأن يعي أنه مـا

كان ينبغي أن يكون خلافه مع هذا أو ذاك سببا يحـول دون التلاحم في جبهة قوية نشطة، ضد عدو قوي نشـط، يهـدد بابتلاعهم جميعا فيما بعد.

العنصر الإيجابي في الموقف

ثمة - على أية حال - عنصر إيجابي في هـذا الوضـع المعقد، يتمثل في إدراك لدى القيادات الفكريـة فـي كافـة الأحزاب المصرية لحقيقة هامـة؛ هـي أن التيـار الـديني المتطرف في الوقت الراهن، وربما لفترة طويلة قادمة، هـو أكثر التيارات القائمة التحاما بالجماهير العـريض، وأقربهـا إلى المشكلات الحقيقية للشعب، وأن أفراده أكثـر تعرضـا ومشاركة ومعاناة لآلام الفرد العادي من غيرهم، وبالتالي فهم أعمق الجماعات تأثيرا في الفرد العادي، حتى مع الإقـرار لبعض الأحزاب الأخرى، خاصة حزب التجمع الذي يضـم عددا أكبر مما يضمه غيره من نخبة المفكـرين المتعمقـين المخلصين، بأنه أقدر على الفهم والتحليل ووصـف الـدواء للداء. وهو في اعتقادي أمر مؤسف؛ حيث أن التيار الـديني بسماته الحالية غيـر مؤهـل لاسـتنباط الحلـول السـليمة لمشكلاتنا؛ ولأن الغالب أن المجتمع الذي سيقيمه أفراده على

أنقاض النمط الفاسد لمجتمع اليوم، لن يكـون أفضـل ممـا هدموا. فهؤلاء وإن تحلوا بشجاعة رائعـة تجعلهـم علـى استعداد للتضحية بأرواحهم في سبيل العقيدة، يفتقرون إلـى نمط من الشجاعة أهم، هي تلك التي تتجلـى فـي مواجهـة صريحة صادقة مع الماضي والحاضر مهما كانت المواجهة مرة، في حين تتميـز نظـرتهم إلـى التـاريخ والمسـتقبل برومانسية تشوه هذه النظرة، هذا بالإضافة إلى استغراق فكر غالبيتهم في تفاهات وجزئيات تعميهم عن جـوهر الأمـور، وتعصب ينذر بطبيعة ما هو آت إن هم نجحوا في الوصـول إلى السلطة، أو حتى في مجرد فرض إرهابهم الفكري الذي نلمس الآن بوادره.

وقد شرعت القيادات الفكرية المخلصة في بعض الأحزاب في استنباط الدرس الواجب استنباطه من هذا كله: ألا وهـو ضرورة النظر في إمكان وسبل تحقيق الالتحـام بالجمـاهير العريضة على نفس النحو الذي نجح التيار الديني المتطـرف في تحقيقه. وحيث إنه قد ثبت على نحو قطعي تمسك الشعب (وعن حق) بدينه وتقاليده، فـالمفروض أن ينبـري هـؤلاء المفكرون ليعلموه كيف يصل بين العقيدة وبين الفكر العلمـي

الحديث، وأن يوضحوا مغزى الرؤية الدينية بصدد الاحتياجات السياسية والاجتماعية والاقتصادية المعاصرة، ويركزوا على الأوضاع الراهنة كل الضوء وكل الفراسة ونفاذ البصيرة التي هي حصيلة دراسة متعمقة لقرون طويلة من التاريخ الإسلامي.

مثل هذه المهمة يمكن - لو أن مفكري الأحزاب وقادتها نهضوا بها - أن تعفيهم من ضرورة التدني إلى ذلك الدرك المقزز من الانتهازية الرخيصة، وهي انتهازية لن تحقق لأحزابهم أهدافها؛ لا على المدى القريب ولا على المدى البعيد، ولن تفلح – في زعمي – إلا في تمييع برامجها، وإخفاء معالم مبادئها، وتنفير المخلصين من أتباعها منها، والميل ببعضهم إلى الانشقاق عليها.

عن هتلر.. والملكة إليزابيث..

والشيخ عمر عبد الرحمن

عاصرت في طفولتي وصباي نشأة ظاهرتين غريبتين في ألمانيا وبريطانيا، متشابهتي الدلالات.. وقد شهدت في مستهل سن المراهقة انهيار الظاهرة في الدولة الأولى، وشهدت في

مستهل شيخوختي انهيار الظاهرة في الدولة الثانية.. وها أنا اليوم أراقب تصاعد ظاهرة مماثلة في عالمنا الإسلامي، لا أدري ما إذا كان العمر سيمتد بي؛ حتى أشهد لها انهيارا كانهيار سابقتيها. وهو مع ذلك انهيار حتمي مؤكد.

ويمكن تلخيص الظاهرة في العبارة التالية:

"هي نوع من الحنين القوي إلى الماضي، وإلى أمجاد وهمية لحضارة دارسة قديمة في ماضي الأمة التي تسود فيها الظاهرة.. وهو حنين ناجم عن متاعب وتحديات حضارية ضخمة تشعر بها تلك الأمة، فتسعى معها إلى السباحة ضد تيار جارف، ظانةً أنها بإحياء بعض مظاهر وعناصر تلك الحضارة السالفة يمكنها أن تستعيد أمجادا تنسبها إلى ماضيها السعيد المشرق، شديد الاختلاف عن حاضرها المظلم التعس، وإلى سلفها الصالح" الذي تحسب أنه كان يتمتع بكل ما يفتقر إليه المعاصرون من أبنائها من القوة والشهامة، وكريم الخلق والسجايا".

(١)

فأما في ألمانيا، فإنه مع بزوغ الحركة النازية القائلة بتفوق الجنس الآري على غيره، تبنى أنصارها الدعوة إلى

إحياء التيوتونية البدائية "المجيـدة" ذاهبـين إلـى أن اللغـة التيوتونية كانت لغة جنس أشـقر الشـعر، أزرق العينـين، موطنه شمالي أوروبا، وأن الطبيعة حبت تلك المنطقة، وذلك الجنس، وتلك اللغة، من سمات النبل ما لا يشـاركها فيهـا غيرها، بحيث يمكن القول في ثقة بأنها فضلت ذلك الجـنس على العالمين.

فإن نحن نظرنا إلى خلفية تبني النازيين لتلـك الـدعوة، رأينا أن ألمانيا وقد خرجت من الحـرب العالميـة الأولـى مهزومة مهيضة الجناح، واقتطعت منهـا أغنـى أقاليمهـا، وفرضت عليها معاهدة فرسـاي المجحفـة أثقـل الشـروط والمهانات، وأصاب اقتصادها الركود والتدهور والتضـخم، وعمالَها البطالةُ، ومثقفيها الحيرةُ والبلبلـة، وشـعبها كلـه الإحساس بالمذلة والضياع، قد شـاع فيهـا الاعتقـاد بـأن المسئولية عن هذا الانهيار القومي الشامل تقع علـى عـاتق الحضارة الغربية الحديثة المنحلة الرخوة الآيلة إلـى زوال، وعلى إقبال الألمان في العصر الحديث على النهل في سذاجة من تلك الحضارة بمنابعهـا المسـمومة.. فكـان أن خـرج "مفكرو" النازية بفكرة أن المخرج الوحيد من هذه المعضلة،

أو من هذا الفخ الذي وقعت الأمة فيه، هو عودة هذه الأمـة إلى ماضيها التاريخي، واستلهام تراثها "المجيد" الذي وضـع أسسه أجدادهم التيوتونيون منذ ألفي عام، ممن أقامت قبائلهم وسط غابات ألمانيا جنةَ الله في أرضه، بفضل الأخلاقيـات التيوتونية البدائية، وتضامن أفراد القبائل فيما بينهم، والطاعة العمياء لإرادة زعاماتهم القوية المخلصة الملهمة.

هي - إذًا- نفس الغريزة الحيوانية التـي تـدفع صـغار حيوان الكنغر في حديقة الحيوان إلى القفز إلى أحضـان الأم والاحتماء داخل كيسها كلما أزعجهم التفاف زوار الحديقـة من الآدميين حولهم للحملقة فيهم..

وما أحسبني في حاجة إلى أن أذكر القارئ بما آلت إليـه هذه التجربة النازية من دمار شامل..

(٢)

كذلك شهدت بريطانيا منذ اعتلاء جورج السادس العرش في ديسمبر عام ١٩٣٦، وخلال سنوات العقد الأول من عهد إليزابيث الثانية، ظاهرة لا أحسب الكثيرين قد تنبهوا بعد إلى شدة شبهها بالدعوة النازية إلى إحياء التيوتونية، أو إلى تماثل الدوافع وراء الظاهرتين.. وأعني بهذه الظاهرة عودة الشعب

في بريطانيا في الحقبة المشار إليهـا إلـى تمجيـد التـاج البريطاني، وازدهار شعبية العائلة المالكة وأفرادها، وحرص الصحف وسائر الإعلام على تتبع كل صغيرة وكبيـرة مـن أخبارها، واهتمام الشعب البالغ بهذه الأخبار، واحتشاده على جانبي الشوارع التي تمر بهـا المواكـب الملكيـة للهتـاف والتصفيق والتعبير عن مشاعر الولاء والحب لهذا الملـك أو هذه الملكة أو هذا الأمير.. وهي شعبية لم تعرفهـا العائلـة المالكة البريطانية (وسمعة لـم يصـل إلـى مثلهـا التـاج البريطاني) في أي وقت من الأوقات منذ وفاة الملكة إليزابيث الأولى عام ١٦٠٣.

قد يشار في تفسير ذلك إلى الحاجة العملية إلى مثل هـذا التضخيم من أهمية العائلة المالكة، بعد تأسـيس الكومنولـث البريطاني، باعتبارها همزة الوصـل بـين الـدول العديـدة المستقلة الأعضاء في ذلك الكومنولث، بحيث أصـبح للتـاج البريطاني دور جديد من المصلحة دعمه.. غير أنه حتى لو صح هذا القول، فإن هذه الاعتبارات الدسـتورية العمليـة لا تكفي وحدها لتفسير تلك الظـاهرة الفرديـة فـي التـاريخ البريطاني الحديث.. وإنما يفسر تلك العودة الأخيـرة إلـى

الالتفاف حول التاج، وتعليق آمال البريطانيين عليه، إحساس الشعب في أواخر الثلاثينيات، ثم في العقدين التاليين، (وهـو إحساس لم يقلل من عمقه وقوته غفلة الكثيرين عن حقيقته)، بأن مجد بريطانيا السياسي قد بات في طريقه إلى الانحسار، وأنها قد بدأت تتخلى عن مكانتها العليا في معترك السياسـة الدولية للولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، خاصة بعد مـا تبين لكل ذي عينين أن الإمبراطورية القديمة في سبيلها إلى التقلص والزوال.. وقد تسبب هذا الإحسـاس فـي أواخـر الثلاثينيات في تدهور شعبية وسمعة البرلمـان البريطـاني، وإحياء شعبية وسمعة التاج الـذي كـان أهـم المؤسسـات البريطانية في عصر النهضة والقوة السياسـية والعسـكرية، وهو العصر الذي بات البريطانيون في زمـن أفـول نجـم بلادهم يتطلعون في حنين إليه.

غير أن هذه الظاهرة لم تدم لأكثر من ربع قـرن، كـان البريطانيون خلاله قد وطنوا أنفسهم علـى تقبـل الوضـع الجديد، وتصالحوا مع فكرة أن تتحول بريطانيا إلى المركـز الثاني أو الثالث في عالم اليوم، وأفاقوا لحقيقة أنه قد كان من الغباء والسفه الظن أنهم بإحياء شعبية التاج، وسـمعته فـي

العصر الحديث سيعيدون أمجاد بلادهم في عصر نهضـتها وملوكها الأقوياء وسلفها الصالح، وأن ما أظهروه مؤخرا من اهتمام مفرط بالعائلة المالكة كان مبالغًا فيه، ومخزيا في واقع الأمر، وجدير بأن يخجلوا منه.. فكان أن حدث ما شـهدناه جميعا خلال الحقبة الأخيرة من رد فعل قوي فـي الاتجـاه المضاد، هو أيضا مبالغ فيه، ومخزٍ فـي واقـع الأمـر؛ إذ تتكالب وسائل الإعلام البريطانية من أجل تشويه سمعة أفراد العائلة المالكة (من مارجريت إلى آن إلى سارة إلـى ديانـا وتشارلز وغيرهم)، وتعداد فضـائحها وانحرافاتهـا، وهـو تشويه يشارك الشعب البريطاني نفسه فيه، ربما مـن قبيـل التكفير عن تمجيد زائف في الماضي، وشعبية عظيمة لم يكن لها في الواقع ما يبررها.

(٣)

وإذ قد لا نكاد اليوم نسمع ألمانيا يجرؤ على التحدث عن أمجاد التيوتونية السالفة، أو نرى بريطانيا يطيـق الاسـتماع إلى حديث عاطفي عن العائلة المالكة، فإننا قد بتنا نشهد الآن في عالمنا الإسـلامي نشـأة ظـاهرة مماثلـة للظـاهرتين

المندثرتين في ألمانيا وبريطانيا، لا نعلم بالدقة كم سيمتد بها الأجل؟!

ذلك أنه وقد تدهورت أحوال الأمة الإسلامية السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وشاعت بين شبابها ومثقفيها ومفكريها في الحقبة الأخيرة خيبةُ الأمل وفقدان الثقة في مختلف الحلول والمذاهب والأيديولوجيات التي جربتها الأمة واحدة إثر أخرى على مدى قرن من الزمان، برزت فيها جماعات تنحو إلى تمجيد الماضي البعيد من تاريخها، وتسعى إلى إحياء العصر الذهبي عن طريق ارتداء الجلابيب، وإطلاق اللحى، وفرض الحجاب أو النقاب على النساء، والتشبه في كل صغيرة وكبيرة بما كان عليه "السلف الصالح".

وثمة أمران يدفعان الغالبية العظمى من هؤلاء إلى الاستغراق في الحنين إلى ماض قد استأصلوا من معالمه كل ما هو مؤلم مزعج، وأبقوا منه على كل ما هو مشرق مبهج، وكلا الأمرين يتمثلُ في عجز: العجز عن تنبؤ مكانة يرضون بها في إطار النظام الاجتماعي والاقتصادي السائد، والعجز عن مواءمة تعاليم الإسلام مع معالم العصر الحديث،

وعن إقامة الجسور النفسانية مع المجتمعات غير الإسـلامية الأكثر مرونة وتحررا.. فهنا ثورة على الحداثـة، وتنفـيس مرضي عن مشاعر القهر والعقم، وتفضيل واختيار مؤسـف للهروب إلى الماضي على بذل الجهود الشاقة من أجل التأقلم والتكييف والتغيير.. وهنا حضارة مهزومة أطلـت برأسـها هنَيهةً من قوقعتها في محاولة للحاق بالعصر الحديث، ثم إذا بها عند أول صدمة ترتد بسرعة إلى القوقعة، مفضلة البقـاء فيها إلى أبد الآبدين على مواجهة المصـاعب والصـدمات والتحديات، ومحاولة إيهام نفسها وإيهام الغيـر بـأن هـذا التفضيل من جانبها للقوقعة نـاجم عـن كراهـة لمظـاهر الحضارة الحديثة، وعن تعلق بماضٍ مجيد، وعـن التـزام بتعاليم دين هو من هذا العجز والجبن برئٌ.

(٤)

من المؤكـد - إذًا- أن الشـعوب تلجـأ وقـت المحـن والأزمات إلى إيجاد صلة بماضٍ هو في زعمهم "مشرق" أو – على الأقل – "آمن هادئ مستقر" ولا ننكر أن الانغمـاس في الماضي يخفف من حدة الضغط العصبي (كمـا يخفـف إخفاء النعامة لرأسها في الرمال من حدة توترها)، ويلهي –

كما تلهي المخدرات متعاطيها – عن الواقع، ويريحنـا ولـو لساعات من التفكير في حاضر دائب التغيير، ولا شكل لـه، وفي مستقبل لا نطمئن إلى الصورة التي سيكون عليها.

غير أنه من المؤكد أيضا – في رأيي – أن ظاهرة الحنين إلى الماضي تنطوي على مخاطر هائلة، أخفها الميـل إلـى تزييف التاريخ، وانعدام الأمانة في تسجيل أحداثه أو تخيلها، واتخاذ موقف من شخصياته هو أشبه شيء بعبادة الأسـلاف التي عرفها أهل العصور السحيقة، وإلى الغضـب والثـورة على كل من تسول له نفسه أن يصور الماضي والأسـلاف صورة واقعية، لا رتوش فيها.. أما الخطر الأعظم فيمكن في أن الاستغراق في الماضي والحنين إليه يشل من قدرتنا على مواجهة الحياة المعاصرة، والتصدي لمشكلاتها بمحاولة جادة نشطة لإيجاد الحلول، والإعداد للمستقبل، ويعطل من إمكانية الخلق والإبداع.

***

إن الحاضر هو الزمن الوحيد الذي نملك أن نعيش فيـه. ولا بد للواقع من أن يفرض نفسه في وقت ما على من شـاء مواجهته ومن لم يشأ.. وإنما تتحقق المأساة وتقـع الصـدمة

حين يتبدد الوهم، ويزول تأثير المخدر بالإفاقة.. كذلك فإنـه لن يكون بوسعنا إصلاح الواقع إلا متى أدركنا زيف تقـديس الماضي الميت ومثُله وأفكـاره، ومتـى فهمنـا أن تقـديس الماضي لمجرد أنه ماضٍ ينطوي على جهـل، وأنـه أشـبه بالسراب الذي لا يعكس غير أوهامنا وأحلام يقظتنا، ومتـى تصدينا لفضح استغلال بعض الأحزاب والجماعات للتعطش الزائد إليه.

الإسلام هو الحل

(١)

- والله إنك لعدو نفسك يا أستاذ حسين.

قالها وهو يقلب ناظريه بين ثيابي الرثة، وأثاث مسـكني البالي، مطقطقا بلسانه، وهازا رأسه هز المشفق الآسِف.

- غيرك من المؤلفين يكسب الآلاف المؤلفـة – بـل والملايين في بعض الحالات – من كتاباته الهزيلـة السقيمة، وسيادتك قانع بالكتابة لجريدة "الأهالي" التي لا تتقاضى منها قرشا واحدا!

- ألا يكفي ما تأتي به إلي مقالاتي من سمعة طيبة لدى جمهور قرائي؟

- وفوق الكفاية!! ولكن حاول يا سيدي أن تصرف هذه السمعة لدى أي بنك من البنوك، لترى ما إذا كانـت ستجلب لك ما يكفي لشراء حذاء بدلا من هذا الحذاء الذي توشك أصابع قدمك أن تطل منه علـى العـالم الخارجي.

- وماذا عساي أن أصنع؟ كنت أكتب مقالين أو ثلاثا كل عام لمجلة "العربي" الكويتية، أستعين بمكافآتها على مواجهة بعض أعباء الحياة، فإذا بحكومات الدول الخليجية مجتمعة تورد اسمي ضمن قائمة أسماء الكتاب المصريين الذين قررت مقاطعتهم ووقف النشر لهم.. وكنت أنشر كتبي عند دار "شمس السعود"، فإذا بصاحبها، ثم أصحاب غيرها من دور النشر، يحجمون الآن عن النشر لي، بدعوى أن كتبي ممنوع دخولها منذ اليوم إلى كافة الدول الخليجية، سيسيء إساءة بالغة إلى حجم توزيعها.. ماذا عساي أن أصنع إذن؟

- ألم أقل لك إنك عدو نفسك؟ دعني أسألك: ما الذي وصل بالحال إلى هذه الكارثة، وإلى هذا القرار بحظر النشر لك؟ أي شيطان ذلك الذي أغراك في يوم ما بمهاجمة حكومات دول النفط، واتهامها بالهيمنة على وسائل الإعلام المصرية، وبإفساد ضمائر كتابنا، بحيث أصبحت الحياة الفكرية في

مصر – على حد تعبيرك البذيء – "تعـرف اليـوم قدرا من العهر والدعارة لم تعرفه في تاريخها كله"؟!

- أليس هذا هو الواقع؟
- أي واقع يا صاح؟! صح النوم! الواقع؟! الواقع هـو أنه ما من أحد الآن في مصر بات بوسعه مواجهـة أعباء الحياة الرهيبة إلا بأن يمد يده يطلب الصـدقة من سادة دول الخليج: كتابنا، فنانونـا، مسـارحنا، وسائل إعلامنا، دور النشر عندنا، فتياتنا ونسـاؤنا، شبابنا العاطل عن العمل، آباؤنا المرهقون، متاجرنا، فنادقنا، أصـحاب الفـيلات والشـقق المفروشـة، حكومتنا، أو ما شئت.. ثم يأتي السيد دون كيخوته – الذي هو أنت – شارعا رمحه، أو قلمـه، ظانـا أن بوسعه ببضع مقالات أن يقف أمام هذا التيـار، وأن يضع حدا له.. صدقني، الجميع يسخر منك من وراء ظهرك، ومن سذاجتك المفرطة ومحاولاتـك غيـر المجدية.

- أوافقك على أنها غير مجدية.. كل ما في الأمر أني لمست واقعا مخزيا مهينا ووجدت نفسي مدفوعا إلى الحديث عنه، والتنبيه إليه.

قال وهو يتأمل حيطان الشقة التي لم تعرف طلاء لأكثـر من عشرين عاما:

- الواقع المخزي هو الذي تعيش فيه أنت.
- لم أعد قادرا حتى على دفع فواتير الكهرباء.

قال:

- اسمع! لا بد من صنع شيء.. وأول ما ينبغي لك أن تبدأ به هو تغيير مفاهيمك ونظرتك إلى الحياة فـي عالم اليوم.. سأروي لك قصة: أثناء خدمة تولستوي في الجيش في سني شبابه، رأى يوما ضابطًا زمـيلا له وهو ينهال بالضرب على جندي في كتيبته؛ لأنـه رآه متأخرا خطوة عن الصف الـذي يقـف فيـه.. فاقترب منه تولستوي قائلا: ألا تخجل من ضرب أخ لك في الإنسانية؟ ألم تقرأ الإنجيل؟ "فنظر الضـابط إلى تولستوي باحتقار شديد ثم قال: "وأنت.. ألم تقرأ تعليمات القيادة العسكرية؟ "!

قد تضحك أنت، غير أن هذا الرد مـن الضـابط حكـيم ومنطقي للغاية، فأولئـك السـاعون إلـى غايـات ماديـة؛ كالانتصار في الحرب، ليسوا في حاجة إلى قراءة الإنجيـل والعمل بتعاليمه. وقد بات الناس كافة في عصـرنا هـذا لا يسعون إلا وراء الثروة والجاه، ولن تفيـدهم تعاليمـك فـي شيء.

- أليست ثمة حاجة إلى أناس يدعون إلى عبادة غيـر عبادة المال والجاه؟
- ليس في زمننا هذا.. قد لا يكون الفقر عارا، غيـر أنهم لن يكافئوك بوسام من أجله.
- أثمة ضرورة لوسام؟
- لا، ولكن ثمة ضرورة لـدفع فـواتير الكهربـاء.. ولتبيض شقتك.. ولشراء حذاء جديد لك.
- والحل؟
- دعني أفكر.. الحل.. الحل.. آه! وجـدتها!.. أنـت كاتب لا مفر من الاعتراف برصانة كتاباتك.. كتبت عدة مؤلفات في الإسلام المطلوب لزمننا هذا: "دليل المسلم الحزين"، "حول الدعوة إلى تطبيق الشريعة"،

"الإسلام في عالم متغير"، إلى آخره. وهـي كتـب أغضبت عليك أصحاب النظـرة الدينيـة الرجعيـة الضيقة من سادة دول الخليج، ومن معظم أصـحاب دور النشر هنا في مصر ممن تمولهم دول الخلـيج، فحاربوك وقاطعوك، واتهموك بالكفر والمروق مـن الدين.. أليس كذلك؟

- نعم أمامك – إذًا- فرصة ذهبية يا صـاح! فرصـة تغدو بها مليونيرا في بحر عام واحد.. صدقني، في أقل من عام واحد. وسآتي إليك بعد عام مـن اليـوم لمطالبتك بنسبة من أرباحك مكافأةً لي على الإيحـاء إليك بالفكرة.
- وهي؟
- فكرة جهنمية! أن تعلن توبتك.
- توبتي؟!
- نعم، تعلن توبتك، تعلن عن اهتدائك إلى الحق، وأنك بعد منام أتاك، أو مرض خطير اعتراك، تعمقت في القراءة عن الإسلام، فبددت قراءاتُك ما اكتنف عقلك من أوهام، فإذا بالحقيقة تبدو سافرة جلية أمام عينيك،

وبهاتف يدعوك إلى التوبة يملأ أذنيك، ثـم إذا بـك تنشر المقال تلو المقال، والكتاب تلو الكتـاب عـن تجربتك الفريدة، وعما عانيته من اضطراب فكـري حتى اهتديت إلى أكمل عقيدة.. وهو أمر كفيل وحده بأن يضمن رواج كتاباتك، ويجمع حولك الآلاف من الراغبين في الاستفادة من خبراتك.

- ولكن..
- لا تقاطعني، أرجوك.. إنه ليس هناك من هو أحـب إلى هؤلاء السادة في دول الخليج من المعلن لتوبتـه وعودته إلى الحق. أعني إلى ما يعتقدون هـم أنـه الحق.. هم لا يهمهم التقي المتدين أصلا بقـدر مـا تهمهم عودة الابن الضال. بل ولا تهمهم التوبة فـي حد ذاتها، وإنما يهمهم الإعلان عن التوبـة.. ومـع ذلك، لا تحاول أنت بنفسك الاتصـال بهـم.. فهـم يعلمون فقرك، وسيفسرون توجهك إليهم بحاجتك إلى أموالهم، فيبخسون قدرك، ولا تنال - عندئذٍ - منهم إلا القليل.. دعني أنا أتوجه إلى عملائهم هنـا فـي مصر، فأسر إليهم أنك الآن تمـر بأزمـة فكريـة

وروحية قاسية، توحي بأنك في سبيل التراجع عـن معتقداتك الآثمة السالفة، وأنك قد بت على مشـارف الحق والهداية بمفهومهم، بدليل أنك قررت التوقـف عن الكتابة لصحيفة "الأهالي"، وتفكـر فـي نشـر مقالاتك التالية في مجلة "الفيصل" السـعودية، لـولا الحظر الذي فرضته مؤخرا حكومات دول الخلـيج على نشر كتاباتك فيها.. اسمح لي بأن أفعـل ذلـك وسترى العجب العجاب.. أنت تسـخر اليـوم مـن أصحاب الفيلات في مارينا وسيدي كرير.. غير أنك لو كنت صريحا مع نفسك لأدركت أن هذه السخرية مجرد قصر ذيل، والعنب حصرم.. ولن يمـر عـام حتى أزورك بنفسي في قصرك في مارينا بـإذن الله تعالى.. فكر يومين أو ثلاثة، ثم اتصل بي.. وتـذكر أنك لست مسئولا عن نفسك فحسب، بل وعن زوجك وأولادك الذين يعانون أضعاف ما تعاني منه أنت.

(٢)

ثم كان أن رضخْتُ، وكان أن اتصـلت بـه لإخطـاره بموافقتي، وكان أن اتصل بي "أحدهم" تليفونيـا بعـد ثلاثـة

أسابيع يسأل عما إذا كان يمكنه أن يحظى بشرف زيـاراتي لتناول فنجان قهوة معي، وكان أن أعلنـوا فـي الصـفحات الأولى من جرائدهم عن توبتي، ثم كان أن أصدرت الـدول الخليجية قرارا برفع الحظر عن نشر كتاباتي.

وتتابعت مقالاتي في مجلة "الحرس الوطني" السـعودية، و"منار الإسلام" بأبي ظبي، و"الأمة" القطريـة، و"المجتمـع" الكويتية، و"الهدي النبوي" بدولـة الإمـارات، و "المختـار الإسلامي" المصرية، وجرائد "الشرق الأوسط"، و "المسلمون" و"الاتحاد" و"الأنباء"، و"النور"، و "اللواء الإسـلامي".. إلـى آخره.

كان المقال الأول عن كيف أنه ما من حقيقة علمية كشف عنها العلم الحديث إلا وقد تضمنها القرآن الكـريم أو ألمـح إليها الحديث الشريف. فالجاذبية الأرضية ذكرها القرآن فـي آية (الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونهـا) ونظريـة النسبية أوردها في آية (فلا أقسم بمواقع النجوم) وتقسيم الذرة مذكور في آية (وما يعزب عن ربك مـن مثقـال ذرة فـي الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فـي كتاب مبين). ونظرية بـراون الخاصـة بالحركـة الدائمـة

للأجسام الدقيقة في الماء مذكورة في آية (وإن من شـيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم).

وكان الثاني عن الجهود العظيمة التي يبذلها جلالة الملك فهد خادم الحرمين من أجل راحة الحجاج وسعادتهم، وعـن مشاعر التقوى المخلصة التي غمرتني أثناء طوافي بالكعبـة عند تأديتي لفريضة الحج، بدعوة كريمـة مـن السـلطات السعودية.

وكان الثالث في الحض على طاعة أولي الأمر، وكيف أن السلطان الغشوم خير من فتنة تدوم، ووجوب الإذعان للحاكم برا كان أو فاجرا، وعن فضائل الصبر والرضا بقضـاء الله وحكمه، مفسرا المظالم الاجتماعية والاقتصادية بأنها اختبار من الله عز وجل، أو عقاب عادل منه على ارتكاب الشـعب للمعاصي، مع تبشير للصابرين بالجنة التي لن يكـون فيهـا أزمة مواصلات، ولا صعوبة تواجه الرجل وحوريتـه فـي العثور على مسكن، ولن تنهار القصور فيها على قاطنيهـا، وستضمن أنهارها الجارية وعيونها اسـتمرار تـوافر ميـاه الشرب في كل زمان ومكان.

وكان الرابع عن كيف اكتشف العلماء الأمريكيون مؤخرا صحة مضمون الحديث المنسوب إلى النبـي ﷺ (الباذنجـان شفاء من كل داء)، وتأكيد العلماء الألمان لصـحة مضـمون الحديث الوارد في البخاري (إذا وقعت ذبابـة فـي شـراب أحدكم فليغمسها ثلاثا، فإن في أحد جناحيها سما، وفي الآخر شفاء) وهو من ثلاث حلقات.

وكان الخامس عن روحانية الشرق ومادية الغرب، وعن كيف أنه كان في منطقتنا الطاهرة (منطقة الشرق الأوسـط) ظهور كافة الأديان السماوية، ومن حضارتها الإسلامية بزغ نور العلوم والفنون، وعن أسلافنا استقى الأوروبيون فكرهم، واقتبسوا مخترعاتهم، واغترفوا من مناهل معارفهم. فكل ما ينعم به الغربيون اليوم إن هو إلا بفضل المسلمين، وكل مـا يزعمون اكتشافه سبقهم إليه العرب من مئات السنين.. إذ من مِن شعرائهم أعظم من المتنبي وأبى نُـواس؟ وهـل كـانوا يفلحون في اختراع الطائرة لولا عباس بن فرناس؟ ومن في الفقه عندهم أعظم من محمد بن إدريس؟ وهل كان هـارفي في اكتشافه الدورة الدموية غير عالة على ابن النفيس؟ وقـد نهب بتهوفن في جل سيمفونياته ألحان إسـحاق الموصـلى،

وأخذ مونتني أفكار مقالاته عن بدر الدين الإربلي. وكـذلك سبق فرويد في تفسير الأحلام ابن سيرين، وسرق نظرية ابن حزم في ميتافيزيقا العشق شوبنهاور اللعين..

وكان السادس عن تدهور الحضارة الغربيـة ومفاسـدها وأهوالها، وعن تفسخ القيم وانحلال الأخـلاق فيهـا، وعـن نسائها اللواتي يغبطن نساء المسلمين على وضعهن المتميز، وفلاسفتها من أمثال شبنجلر الذي تنبـأ بقـرب انهيارهـا، ومفكريها من أمثال جارودي الذي اهتدى في ختـام رحلـة حياته إلى الدين الحق، أو لوبون وكارلايـل اللـذين أشـادا بعظمة الإسلام.

وكان السابع في تفسير مقال للشيخ متولي الشعراوي عن إمكان أن يصاب الجن بالجراح نتيجـة إطـلاق العيـارات النارية عليه (وهو من خمس حلقات).

وكان الثامن عن روعة الحل السعودي، وعظمـة الحـل السعودي، وجمال الحل السعودي، وهو ملخص لسلسلة مـن الكتب التي ألفها الأستاذ جلال كشك في هذه الموضـوعات المتنوعة، وشرح فيها أسباب غيـرة المجتمـع الأمريكـي والمجتمعات الأوروبية المتقدمة من قدرة الحكومة السـعودية

على حل كافة المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية؛ كبيرها وصغيرها.

وتناول التاسع نقاطا متفرقة مثل ضرورة لبس الجلباب وتقصيره إلى ما فوق الكعبين، وضرورة الأكل باليمين، ودخول المرحاض بالقدم اليسرى أولا، وحكم الإسلام في اقتناء الصور الفوتوغرافية، وهل شرب الإنسان وهو واقف مخالف للسنة، وحكم الصلاة بجوار امرأة، وحكم من تزوج بالجن المتشكل بالإنس وما ينشأ عن هذا الزواج من حقوق عائلية، وعما إذا كان الأكل على المناضد يعني الافتقار إلى احترام السنة وإلى حب رسول الله.

وكان العاشر عن حتمية وضرورة رفضنا لمفهوم الديمقراطية الغربية المستقى عن الإغريق، وكيف أن هذا المفهوم يناقض مبدأ الشورى الإسلامية، بل والإسلام نفسه؛ حيث إن الديمقراطية تقضي بحق الشعب في سن القوانين وتغييرها بتغير الظروف والاحتياجات، في حين يرى المسلمون أن الشريعة قوانين إلهية لا يحق حتى للغالبية أن تمسها في أي زمان أو مكان. هذا بالإضافة إلى أن المفهوم

الغربي للديمقراطية لا يناسب مجتمعنا العربـي، ولا يحقـق للمسلمين أدنى مصلحة.

(٣)

كانت المكافآت السخية التي تقاضيتُها عن نشر مقـالاتي في الصحف والمجلات الخليجية كافية لتسوية كافة ديـوني، وشراء احتياجاتي الأساسية، وتبييض شقتي، بـل وإدخـال تحسن ملحوظ في مستوى معيشتي. وسرعان مـا تهافتـت الإذاعة والتليفزيون علي – بتعليمات من وزير الإعـلام – يطلبان مني إعداد حلقات أسبوعية عن موضوع محبب إلـى قلوب السامعين والمتفرجين، وهو كيف أن العلم يدعو إلـى الإيمان.

فما تم نشر مقالي الثلاثين في الصحافة الخليجيـة، حتـى اتصل بي صاحب دار "شمس السـعود" للنشـر والتوزيـع، يدعوني إلى تناول العشاء عنده في داره.

دخلت حجرة صالونه فإذا بي يغص بعدد كبير من الفنانين والفنانات، ومن الكتاب و"المفكرين" الإسلاميين المعـروفين (بعضهم يلبس الجلباب وقد أطال لحيته)، وقد صفت أمـامهم مناضد صغيرة مستديرة عليها الكئوس وزجاجات الويسـكي

والنبيذ والبيرة وجرادل الثلج وأطباق المزات الشهية، وبعـد أن استقبلني زملائي من "المفكرين" الإسلاميين بالأحضـان والترحاب الحار، قادني صاحب الدار من ذراعي إلى حجرة مكتبه الملحقة بالصالون، وأبدى إعجابـه الشـديد بمقـالاتي الثلاثين (خاصة تلك المتعلقـة بالديمقراطيـة والشـورى)، واستأذنني في جمعها في كتاب، ثم ناولني شيكا بمبلـغ لـم أصدق بصري حين وقع عليه، وهو المبلغ الذي اشتريت به فيما بعد فيلتي في مارينا على الساحل الشمالي.

فما عدنا إلى الصالون واستقر بنا المجلس، حتـى دلفـت إليه سيدة محجبة لا يظهر من حجابها غير الوجه واليـدين. وقد أصاب الحاضرين لرؤية حجابها من الذعر مـا جعلهـم يبادرون بإخفاء كئوسهم التي كانت أمامهم أو بأيديهم تحـت المناضد أو الكراسي.. غير أنها سرعان ما ردت إلى الجميع اطمئنانهم حين خلعت طرحتها وعباءتها بحركـة سـريعة، وبرزت في مايكروجيب يكشف عن معظم مفاتنها، وطلبـت لنفسها من صاحب الدار كأسا مـن الويسـكي دون مـاء أو صودا.

وللمرة الثانية خلال هذه الأمسية لم أصـدق بصـري إذ تعرفت عليها، واكتشفت أنها الممثلة الشهيرة عزيزة بركـات التي قرأنا مؤخرا في الصحف نبأ اعتزالها الفـن لأسـباب "دينية".

حق المسلم في حرية الرأي والاجتهاد والتعبير عن رأيه

مقدمة:

من الطبعِي، ومن المشروع، أن يقبل أهل كل عصر، وسكان كل مصر، على قراءة كتابهم المقدس وغيره من الكتب الأساسية في عقيدتهم، على ضوء احتياجات جيلهم، وقيم زمانهم، ومشكلات إقليمهم، حتى مع توهمهم أن دراستهم لهذه الكتب موضوعية مجردة.. فالوهابيون في شبه الجزيرة العربية، وإن خالوا أنهم يستهدفون العودة إلى إسلام السلف الصالح، إنما أعطوا الأولوية لعقيدة التوحيد في الإسلام؛ بسبب ما شاع في عصرهم وفي بلادهم من خرافات وممارسات تحجب مبدأ التوحيد. أما الحركة السنوسية في شمال أفريقيا فقد ركزت اهتمامها على التنظيم الاجتماعي للأمة الإسلامية بسبب افتقار المجتمع البدوي هناك إلى حكومة مركزية قوية. وأما حركة الأفغاني ومحمد عبده فقد كان ظهورها مرتبطا أساسا بمواجهة المسلمين لمعضلة استفحال الهيمنة الاستعمارية الغربية، فصرفت جل اهتمامها

أو كله إلى موضوع كيفية نهوض المسلمين مـن كبـوتهم، وعلاج مظاهر ضعفهم وتفككهم، وتنظيم أنفسهم مـن أجـل التصدي لتلك الهيمنة الحضارية. وقد كان الرجلان وأتباعهم في اقتراحهم الحلـول للمشـكلات الاجتماعيـة والسياسـية والحضارية، متأثرين تأثرا عميقا بالمفـاهيم الغربيـة لهـذه المشكلات، وبصياغات الغرب لحلولها.

وقد كانوا بدعوتهم هذه يعبرون عن الاتجاهـات القائمـة بالفعل لدى طبقة المتعلمين المتزايد عددهم من سكان المدن، وهم الأكثر احتكاكا بمظاهر المدنية الغربيـة التـي أقبلـت السلطات على التوسع في الاقتباس منها. وإنه لمـن الشـائق حقـا أن نقـرأ فـي العـدد الأول مـن مجلـة " العروة الوثقى" التي اشترك الأفغاني وعبده فـي تحريرهـا، تحديدا لأهداف المجلة، ومن بينها.. ٣- الدعوة إلى التمسـك بمبادئ السلف المماثلة في واقع الحال لمبادئ الدول الأجنبية القوية المتقدمة!

وقد شكا المبشرون المسيحيون من أن هؤلاء المصـلحين الإسلاميين التوفيقيين، إنما يتبنون الأفكار والقيم المسـيحية، ويسعون إلى تشييد صرح إسلام جديد "مسـيحي"! غيـر أن

الواقع أنهم لم يتبنوا القيم المسيحية، وإنما نسبوا إلى الإسلام إلى الإسلام القيم الليبرالية الإنسانية البورجوازية التي عمت أوروبا خلال القرن التاسع عشر، وهي قيم غير مشتقة عن المسيحية، ودافعوا عن هذه القيم الليبرالية التي اعتقدوا أنها التعاليم التي جاء الإسلام بها.

ولا شك عندي في أن موضوع "حقوق الإنسان" هو من بين تلك القيم الغربية الليبرالية التي شاء المفكرون الإسلاميون في مجتمعنا أن ينقبوا عن جذور لها في أصول ديانتهم. وقد كان التوفيق حليف البعض فيما حاول بيانه والتدليل عليه، بينما جانب البعض الآخر من المبالغين المتطرفين (وما أكثرهم في بلادنا!)، إذ ذهبوا إلى أنه في حين تدعى الأمم الديمقراطية الحديثة أن العالم الإنساني مدين لها بتقرير حقوق الإنسان، وتتنازع فيما بينها فضل السبق إلى ذلك، تتوافر الشواهد والأدلة على أن المجتمع الإسلامي هو أول من قرر المبادئ الخاصة بحقوق الإنسان في أكمل صورة، وأوسع نطاق، وأنه كان أسبق المجتمعات في السير عليها، وأن الديمقراطيات الغربية الحديثة لا تزال متخلفة في هذا السبيل تخلفا كبيرا عن النظام الإسلامي.

هذه المبالغة لا أقرها، ولا أرى مستساغا صدورها عـن مثقف عالم مثل الدكتور علي عبد الواحد وافي فـي كتابـه "حقوق الإنسان في الإسلام" ويكفيني هنا أن أشـير إلـى أن عددا من تلك الحقوق التي نص عليهـا الإعـلان العـالمي لحقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة في ١٠ ديسـمبر ١٩٤٨ (وهو الإعـلان التـي امتنعـت المملكـة العربيـة السعودية- وفي أرضها كان مهد الإسلام - عن التصـديق عليه) كان لمدة طويلة غريبا على المجتمع الإسلامي، مثـل عدم التمييز بسبب الدين، والمساواة الكاملـة فـي الحقـوق والحريات بين الذكر والأنثى، وتحريم الرق، وحق المرء في تغيير دينه، وحق كل من الرجل والمرأة في الـزواج مـن شخص على غير دينه.

كذلك فإنه من بين الحقوق التي نصـت عليهـا المـواد الثلاثون من الإعلان، ما لم يكن ليخطر ببـال المجتمعـات السابقة على القرنين التاسع عشر والعشرين، مثل الحق فـي العمل، وفي الحماية من البطالة، وفي الانضمام إلى نقابـات العمال، وفي نفس الأجر عن نفس العمل، وفي التعليم، وفي

حماية حقوقه المعنوية والمادية الناجمة عن إنتاجه العلمي أو الأدبي أو الفني.. إلى آخره.

ومع ذلك، فالمؤكد أن الكثير من حقوق الإنسان بمفهومها الشائع اليوم، قد نص القرآن عليه، أو أشارت السنة الصحيحة إليه، واتخذها المجتمع الإسلامي، خاصة في عهد الرسول - عليه الصلاة والسلام - وخلفائه الراشدين، نبراسا له، وهاديا يهتدي به، من أمثلة ذلك المساواة أمام القانون، والحق في الحياة، وفي المحاكمة العادلة، وحماية الشرف والسمعة والأسرة والملكية، وحرية الاجتماع والاختلاط.. إلى آخره. كما أنه من المؤكد أن المجتمع الإسلامي، بفضل الإسلام، كان من أوائل المجتمعات التي حرمت التمييز على أساس العِرق.

وسأقصر الحديث هنا على حق واحد من هذه الحقوق أُؤمن بكل إخلاص بأن الإسلام قد أقره وضمنه، ودعا إلى احترامه، وبأن باستطاعتي الكلام عنه دون مكابرة أو مبالغة أو مغالطة، كما أؤمن بأنه من بين الحقوق المهدرة الضائعة التي فرط المسلمون فيها في مرحلة مبكرة من تاريخها، ولا تزال إلى يومنا هذا مهدرة ضائعة. هذا الحق من حقوق

الإنسان هو حق المسلم في حرية الرأي والاجتهاد والتعبير عن رأيه.

حرية الرأي

وأبدأ بالإشارة إلى أنه ليس ثمة كتاب مقدس، هو أحفل من القرآن بالآيات التي تحض الناس على النظر والتفكير وتحكيم العقل، ولا أحوى منه على عبارات مثل: أو لم ينظروا.. فلينظر الإنسان.. أفلا يتدبرون.. أفلا يعقلون.. لعلهم يتفكرون.. لو كانوا يفقهون.. أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف.. فهنا ثقة مطلقة بأن تقليب النظر، وإعمال الفكر والرأي، والنقاش القائم على مقارعة الحجة بالحجة، أمور كفيلة وحدها بالإقناع والهداية: ﴿ **فَإِن أَعرضوا فَما أَرسلْنَاك عليهم حفِيظًا إِن عليك إِلا الْبلاغُ** ﴾. وهو حريص على أن يغرس في الرسول الكريم آداب الدعوة: ﴿ **لا إِكْراه فِي الدين** ﴾، ﴿ **أَفَأَنْتَ تُكْره الناس حتى يكُونُوا مؤْمِنين؟** ﴾، ﴿ **ادع إِلى سبِيل ربك بِالْحِكْمةِ والْموعِظَةِ الْحسنَةِ وجادِلْهم بِالتِي هِي أَحسن** ﴾، ﴿ **وما أَنْزلْنَا عليك الْكِتَاب إِلا لِتُبين لَهم الذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وهدى ورحمةً لقَومٍ يؤْمِنُون** ﴾، ﴿ **فَذَكر إِنما أَنتَ مذَكر. لَستَ عليهم بِمسيطِرٍ** ﴾، ﴿ **فَإِن**

حاجوك فَقُلْ أَسلمتُ وجهي للهِ ومن اتبعن وقُل للذِين أُوتُـوا الْكِتَاب والأُميين أَأَسلمتُم فَإِن أَسلموا فَقَدِ اهتَدوا وإِن تَولـوا فَإِنما علَيك الْبلاغُ﴾، ﴿ **وكَذب بِهِ قَومك وهو الْحق قُل لسـتُ علَيكُم بِوكِيلٍ** ﴾، ﴿ **وأَعرِض عن الْمشْرِكِين. ولَو شَاء االلهُ ما أَشْركُوا وما جعلْنَاك علَيهِم حفِيظًا وما أَنتَ علَيهِم بِوكِيلٍ﴾**.. إلى آخره.

بل لقد ذهب القرآن إلى أبعد من مجـرد تقريـر حريـة الإنسان في قبول الرأي المخالف ورفضه، فمضـى يحـرر العقل البشري من قيد ثقيل الوطأة خانق، ألا وهو تعلق الناس بالقيم والآراء البالية، والعقائد الموروثة عن الآبـاء، رغـم مخالفتها للعقل، ومناقضتها لكل منطق، فقـوم النبـي ﴿ **مـا يعبدون إِلا كَما يعبد آباؤُهم من قَبلُ** ﴾. غير أن عقائد الآباء ليست صائبة بالضرورة ﴿ **أَولَو كَان آباؤُهم لاَ يعقِلُون شَيئًا ولاَ يهتَدون** ﴾. فإن كانت معتقداتهم فاسدة فلا ينبغي قبولهـا ﴿**يا أَيها الَّذِين آمنُوا لاَ تَتخِذُوا آباءكُم وإِخْوانَكُم أَولِيـاء إِنِ استَحبوا الْكُفْر علَى الإِيمان ومن يتَولهم منْكُم فَأُولَئِـك هـم الظَّالِمون** ﴾ كذلك فإنه بمضي الأيـام والعصـور، وبنمـو المعارف وتراكمها، قد يدرك الأبناء من الحقائق ما لم يكـن

للسلف - من آباء وأجداد - به علم ﴿ **يا أَبتِ إني قَد جاءني مِن العِلْمِ ما لم يأْتِك فاتبِعني** ﴾. وإذ المرء بطبيعته عدو لمـا يجهل، فالغالب أن يتشبث الآباء بمعتقداتهم البالية ﴿ **بل كذبوا بما لم يحيطُوا بعِلمِه** ﴾ ومن حق الأبناء أن يجادلوا السـلف فيما ذهبوا إليه ﴿ **إذْ قالَ لأبيهِ يا أَبتِ لِم تَعبد ما لا يسمع ولا يبصر** ﴾. ﴿ **إذْ قالَ لأبيهِ وقَومِهِ ما هذِهِ التماثِيلُ التِي أَنْتُم لها عاكِفُون. قالُوا وجدنَا آباءنَا لها عابِدِين. قالَ لقَد كُنْتُم أَنْـتُم وآباؤُكُم فِي ضلالٍ مبِينٍ** ﴾. كما أن من حق الجيـل الجديـد حينئذ، بل وواجبه، أن يجتهد وأن يترك نهج السـلف ﴿ **وإذْ قالَ إبراهِيم لأبِيهِ وقَومِهِ إنني براء مما تَعبدون** ﴾. ذلـك أن الحق أحق أن نخشاه من السـلف ﴿ **فَـاذْكُروا اللهَ كَـذِكْرِكُم آباءكُم أَو أَشَد ذِكْرا** ﴾. فإن ثبت لنا بـالتروي والتفكيـر أن السلف قد جانب الصواب والحق، فعلينا أن نختار الصـواب والحق ﴿ **قُلْ أَولَو جِئْتُكُم بِأَهدى مِما وجدتم عليهِ آبـاءكُم** ﴾ غير أن هناك من الناس من للتقاليد على عقله وقلبه سـلطان مبين، ويأبى قبول أية بدعـة مسـتحدثة، وأي رأى جديـد، لمجرد أنهما لا يتفقان مع هذه التقاليد، ومع هـوى نفوسـهم ﴿ **كُلما جاءهم رسولٌ بما لا تَهوى أَنْفُسهم فَرِيقًا كَذبوا وفَرِيقًا**

يقْتُلُون ﴾، ﴿ **ما هذَا إِلا سِحر مفْتَرى وما سمِعنَا بِهـذَا فِـي آبائِنَا الأَولِين** ﴾. وقد كان هذا هو موقف قوم النبي - عليـه الصلاة والسلام - منه ﴿ **قَالُوا حسبنَا ما وجدنَا علَيهِ آباءنَا** ﴾ كلما دعاهم إلى رأي جديد ﴿ **قَالُوا أَجِئْتَنَـا لِتَلْفِتَنَـا عمـا وجدنَا علَيهِ آباءنَا**؟﴾، وقالوا عنه إنه رجل حاقد على ديـنهم ﴿ **ما هذَا إِلا رجلٌ يرِيد أَن يصدكُم عما كَان يعبد آبـاؤُكُم** ﴾، وقالوا له: ﴿ **أَتَنْهانَا أَن نعبد ما يعبد آباؤُنَا**؟﴾، ﴿ **إِنا وجـدنَا آباءنَا علَى أُمةٍ وإِنا علَى آثَارِهِم مهتَدون** ﴾. وهذا موقف لا يستسيغه عقل ﴿ **أَتُجادِلُونَنِي فِي أَسـماءٍ سـميتُموها أَنْـتُم وآباؤُكُم**؟﴾ فهم قوم يأبون تحكيم المنطق والفكر ﴿ **لَهم قُلُوب لا يفْقَهون بِها** ﴾؛ ﴿ **قُلْ هلْ يستَوِي الأعمى والْبصِـير أَفَـلاَ تَتَفَكَّرون**؟﴾. والتفكير هو واجبنا الأول ﴿ **وأَنْزلْنَا إِلَيك الـذِّكْر لِتُبين لِلناسِ ما نُزلَ إِلَيهِم ولَعلَّهم يتَفَكَّـرون** ﴾، ﴿ **إِن شَـر الدواب عِنْد اللهِ الصم الْبكْم الـذِين لاَ يعقِلُـون** ﴾. ولـيكن شعارنا دائما ﴿ **وقُل رب زِدنِي عِلْما**﴾. فإن طلع علينـا قـوم برأي جديد، ناقشناه معهم بالمنطق ﴿ **قُلْ هلْ عِنْدكُم من عِلْـمٍ فَتُخْرِجوه لَنَا** ﴾. أما الجدال عن غير علم ومنطق، فمرفوض ﴿ **وإِن كَثِيرا لَيضِلُّون بِأَهوائِهِم بِغَيرِ عِلْمٍ** ﴾، ﴿ **ولَئِن اتبعـتَ**

أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق﴾.

لقد كان جل ما جاء به الإسلام مما ارتآه الجاهليون مـن "محدثات الأمور"، وكان الرسول ﷺ أعظم رافض لاتباع سنة من كان قبله. ويقيني أنه - عليه السلام - لم يكـن كأولئـك الثوريين المجددين الذين يروي التاريخ أنهم صارعوا قومهم وجاهدوا في سبيل نصرة آرائهم، حتى إذا ما نجحوا وقبلـت أفكارهم واستقرت، وأضحت جزءا مـن كيـان مجـتمعهم، واعتبرهم الناس أبطالا مصلحين، جزعوا وتنكروا لكل تجديد لاحق، حتى لو أن هذا التجديد كان في اتجاه فكرهم نفسـه، وهاجموا كل بدعة مستحدثة، حتى لو أن هذه البدعة لم يكن لها من غرض غير مواءمة فكر البطل المصـلح، مـع مـا يستجد من ظروف، واتهموا دعاة التجديد بالمروق والخيانة، وأكدوا ضرورة الولاء لمبادئ الآباء والسلف الصالح، وهـو ما فعله كل من لوثر وكالفن وستالين وعشرات غيرهم.

أكرر: كان - عليه السلام - أعظم رافض لاتباع سنة من كان قبله، وأحرص الناس على الاجتهاد من أجـل الانتقـال

بالناس من عصر إلى عصر، ومن آفاق محدودة ضيقة إلـى آفاق أوسع، وعلى زيادة قدرتهم على مجابهة التحديات.

فهل يعقل بعد كل هذا أن نصدق أن يكون قد قال: "لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتـى لـو دخلوا جحر ضب تبعتموهم" أو "ألا وإياكم ومحدثات الأمور، فإن شر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكـل بدعـة ضلالة، وكل ضلالة في النار"؟! وهل يستساغ قبول القـول بأنه حرم على الأجيال التالية ما أحله لنفسه، وما حثنا القرآن الكريم على النهوض به والإقدام عليه من الاجتهاد، وتقليـب النظر وإعمال الفكر، والاستفادة من تراكم المعارف واتساع نطاق الخبرات، من أجل زيادة القدرة على مجابهة تحـديات ومواقف مما لم يحط آباؤنا وأسلافنا بعلمه؟

وهو ما ينقلنا إلى الحديث عن الحق في الاجتهاد.

الاجتهاد

حقٌ هو أم واجب؟

الاجتهاد لغة بذل الوسع في طلب المقصود. والمجتهد هو من يبذل وسعه ليحصل له ظن. وهو في هذا علـى نقـيض

المقلد الذي يعرفه السبكي في "جمع الجوامع" بأنه "من يأخـذ بمذهب غيره دون دليل" وقـد ورد فـي حـديث نبـوي أن للمجتهد أجرا إذا أخطأ، وأجرين إذا أصاب. فالاجتهاد إذن لا يقتضي عدم الوقوع في الخطأ، وذلك بالنظر إلى أن نتيجتـه هي دائما "ظن".

وقد ظل المسلمون قرابة قرنين ونصف قرن بعد الهجرة، لا ينكرون على الإنسان حقه في إعمال فكره فـي المسـائل الشرعية، للتوصل إلى حلول خاصة به: قد أجاز أبو حنيفـة اعتماد المسلم علـى الـرأي الشخصـي وإعمـال الفكـر والاستحسان، بل وأكد الإمام مالك حق المسلمين في استبعاد بعض الأحكام التي استنها الرسول متى نشـأت اعتبـارات فقهية تجبها، أو كان ثمة نص قرآني يقضي بغيرها. وكـان أساس هذه النظرة هو اعتقاد شعوري أو لا شـعوري بـأن القوانين والأنظمة ينبغي أن تواكب تقدم العقل البشري، وكلما نما هذا العقل وأضحى أكثر اسـتنارة نتيجـة للاكتشـافات والحقائق الجديدة، وجب تطوير الشـرائع والأنظمـة حتـى تساير الزمن. فإن لم نطورها وأصررنا على الإبقاء عليهـا كما كانت، وعلى أن تحكم مجتمعنا القوانين التـي حكمـت

مجتمع أسلافنا الأقدمين، كنا كالرجل يصـر علـى ارتـداء المعطف الذي كان له وهو صبي.

غير أن اتجاها ظهر بعد ذلك في أمتنا يذهب إلى تضييق معنى الاجتهاد، وقَصر الحق فيه على كبار الفقهاء ممن يقررون الأحكام، وإلزام غيرهم بالأخذ بما توصل إليه هؤلاء. وفي بداية القرن الرابع (أي: حوالي سنة ٩٠٠ ميلادية)، ساد الاعتقاد لدى فقهاء المذاهب الأربعة بأن مؤسسي هذه المذاهب، والبعض ممن عاصرهم، هم وحدهم الذين لهم أن يصلوا بفكرهم إلى حلول لما يعرض من مسائل، وأن كافة المسائل الرئيسية قد تمت مناقشتها جملة وتفصيلا، وصيغت الحلول النهائية لها، فلا يحق أن يوصف أحد من وقتها وإلى أبد الآبدين بأنه أهل للاجتهاد، وعلى كل جهد أن ينحصر مستقبلا في نطاق الشرح والتطبيق لما ذهب إليه الأوائل. وبهذا قفل باب الاجتهاد، ولم يسمح للمسلمين بغير التقليد، وشاع القول بأنه لا يصح للمؤمن الحق أن ينقاد لما يمليه عقله عليه، وأنه ليس ثمة حاجة إلى العقل في معرفة الحقيقة الدينية التي هي في القرآن والسنة وأقوال السلف.

ومع ذلك فقد ظل هناك دائما في العالم الإسلامي أفـراد يرون رأي "فضالي" الذي بسطه في كتاب "كفاية العوام" فـي أنه ليس بوسع الإنسان أن يصل بالتقليد إلى إيمـان ينجيـه، وينكرون الجمود الناجم عن قفل باب الاجتهـاد، ويصـرون على حقهم في الرجوع إليه. كان ومن بين هؤلاء ابن تيمية، وابن رشد، ثم السيوطي الذي ذهب إلى أنه من الواجـب ألا يخلو زمن من مجتهد واحد على الأقل. غير أن أطرفهم رأيا وأعمقهم نظرة في اعتقادي هو مسكويه، الذي أجـاب فـي كتاب "الهوامل والشوامل" على سؤال لأبي حيان التوحيـدي عن حق الإنسان المسلم في الاجتهاد، وسبب اختلاف الفقهاء فيما بينهم حول ما هو حرام وما هو حلال، بقوله:

"...أما ما سوغ للفقهاء أن يقولوا في شيء واحـد: إنـه حلال وحرام؛ فلأن ذلك الشيء ترك واجتهاد النـاس فيـه. فبعض الأحكام يتغير بحسب الزمان، وبحسب العادة، وعلى قدر مصالح الناس؛ لأن الأحكام موضـوعة علـى العـدل الوضعي، وربما كانت المصلحة اليوم في شيء، وغدا فـي شيء آخر، وكانت لزيدٍ مصلحة، ولعمروٍ مفسدة، والاجتهاد الذي يجري مجرى التعبد أو لعموم المصلحة، فـي النظـر

والاجتهاد نفسه، لا في الأمر المطلوب، ليس يضر فيه الخطأ بعد أن يقع فيه الاجتهاد موقعه. مثال ذلك: أن المـراد مـن ضرب الكرة بالصولجان إنما هو الرياضة بالحركة، فلـيس يضر أن يخطئ الكرة، ولا ينفع أن يصيبها، وإن كان الحكم قد أمر بالضرب والإصابة؛ لأن غرضه كان في ذلك الأمـر نفس الحركة والرياضة، وكذلك إن دفن حكيم في برية دفينـا وقال للناس: اطلبوه، فمن وجده فله كذا. وكان غرضه فـي ذلك أن يجتهد الناس فيعرف مقادير اجتهادهم؛ ليكون ذلـك الطلب عائدا لهم بمنفعة أخرى غير وجود الـدفين. فإنـه لا يضر أيضا في ذلك أن يخطئ الدفين، وإنما الفائدة كانت في السعي والطلب، وقد حصلت للطائفتين جميعا، أعني الـذين وجدوه والذين لم يجدوه.

"وأصناف الاجتهادات والنظر الذي يجري هذا المجـرى كثيرة. فمن ذلك كثير من مسائل العـدد والهندسـة وسـائر الموضوعات، ليس غرض الحكماء فيهـا وجـود الغـرض الأقصى من استخراج ثمرتها، وإنما مـرادهم أن ترتـاض النفس بالنظر، وتتعود الصبر على الرواية والفكر إذا جريـا

على منهاج صحيح، ولتصير النفس ذات ملكة للفكر الطويل، فإذا حصلت هذه الفائدة فقد وجد الغرض الأقصى من النظر.

"وليس ينبغي أن يتعجب الإنسان من الشـيء الواحـد أن يكون حلالا بحسب نظر الشافعي، وحراما بحسب نظر مالك وأبي حنيفة. فإن الحلال والحرام في الأحكام لـيس يجـري مجرى الضدين أو المتناقضين. فينبغي للعاقل إذا نظر فـي شيء من أحكام الشرع أن يجتهد في النظر، ثم يعمل بحسب اجتهاده ذلك. ولغيره أن يجتهد ويعمل بما يؤديه إليه اجتهاده وإن كان مخالفًا للأول، واثقا بأن اجتهاده هو المطلوب منه، ولا ضرر في الخلاف".

وقريب من هذا الرأي الرائع لمسكويه ما كتبه الفيلسـوف البريطاني المعاصر أ. ج. آير A. J. Ayer:

"دأب أحد مشاهير علماء الرياضيات على تذكير طلبتـه، بأنهم حين يفكرون في معضلة رياضية صـعبة مستعصـية على الحل، يصيبون من خلال تفكيرهم فيها كل ما هـو ذو قيمة حقيقية. وهو قول يصدق على الفلسفة أكثر مما يصدق حتى على الرياضيات؛ فالمعضلات الكبـرى فـي الفلسـفة لا تزال بعد أكثر من ألفي عـام مستعصـيةً علـى الحـل،

ولا شك في أنها ستظل دوما كذلك. غير أن البنية الأساسية للحضارة الغربية، وكافة المناهج الرئيسية للفكر عندنا، لست إلا ثمارا جانبية إيجابية لهذا الفشل"!

ولنضرب لذلك مثلا:

ينص قانون "أوم" الذي كشف العلاقة بين شدة التيار الكهربائي وشدة المقاومة له، على أن "فرق الجهد الكهربي = شدة التيار × المقاومة" غير أن قيمة هذا القانون الحقيقية (على ضوء نظرية مسكويه وفكرة آير) ليست في نتيجته بقدر ما هي فيما جال بخاطر أوم من تساؤلات قبل توصله إلى قانونه، والمفاهيم الكامنة وراء تساؤلاته، كمفهومه عن شدة التيار وقوة البطارية المولدة له باعتبارهما مقادير تقاس وتعقد المقارنات، وتكشف العلاقة بينهما، ونظره إلى كل هذا على أنه من الأمور الواجب أخذها في الاعتبار عند دراسة التيار الكهربائي، ثم طرق البحث والتجربة وقياس المقادير، وتحديد الأجهزة اللازمة للتجربة ووسائل استخدامها.

فالطالب المقبل على دراسة علم الكهرباء، غير مطالب بتصديق قانون أوم، لكنه مطالب بفهم الأسئلة، وباستخدام الأجهزة بين يديه في التحقق من صحة القانون. وهم يعلمونه

كيفية طرح الأسئلة واستخدام الأجهزة، ولا يفرضون عليـه قبول نظريات الأقدمين دون جدل أو نقـاش أو تمحـيص. يعلمونه كيف يتحقق من صدق ما يقال، ولا يوهمونـه بأنـه متى قرأ كتب الأسلاف قد أضحى من العلماء العارفين. ولو أن الناس جميعا نسيت قانون "أوم" وبقيـت لهـم تسـاؤلاته ومنهاجه في البحث عن الإجابات، لأمكنهم إعـادة اكتشـاف القانون في بحر ساعة أو أقل. أما إن هم حفظوا القانون دون إدراك لقيمة التساؤلات ومنهاج البحث، فسيكون القانون فـي أيديهم كالساعة في يد هجمي لا علم له بطريقة تشغيلها.

فالذي يعنيه مسكويه - إذن - هو أنه كما أن الله تعالى لم يطالب قوم النبي بتصديقه دون مناقشة، وقبول رسـالته دون جدال، وإنما طالبهم بالنظر والتفكر والتدبر حتى يتحققوا من صدق ما يقول ويذهب إليه، كذلك فإن المقصود والمرغـوب فيه لا معرفة ما إذا كان هذا الأمر أو ذاك حراما أم حـلالا، ولا الإلمام برأي الشافعي أو رأي أبي حنيفة فيه، ولا تقبـل الأحكام لمجرد أن علماء السلف قالوا بها، وإنما المقصود هو الاجتهاد ذاته، وإعمال الفكر، وطرح الأسئلة بطريقة سليمة، واستيعاب المفاهيم التي تمكننا من طرح المزيد من الأسئلة،

ومنهاجية البحث عن إجاباتها. وإنما تكمن أهمية كل هذه الأمور في إمكان اختبار مدى مسايرتها لمصالح الناس المتغيرة بحسب الزمان، وحسب العادة، والتحقق من فاعلية التغيير المطلوب في الأحكام على ضوء اختلاف الأحوال والظروف. وبالتالي يصبح من حق كل إنسان مسلم ذي عقل أن يقدم على التفكير والاختبار، وتوسيع نطاق التجارب، وتطهيرها من النتائج الباطلة، والأفكار البالية، لا أن يستخدم النتائج التي توصل إليها الأوائل في كبت شكوكه، ومنع الآخرين من التساؤل والتأمل والاجتهاد.

حق الإنسان

في اعتناق الرأي الذي يراه

وهنا يثور التساؤل عما إذا كان من حق كل إنسان أن يعتنق ما يعن له من آراء وأفكار، مهما كانت هذه الآراء باطلة، والأفكار سقيمة. فالكثيرون (ومن بينهم واضعو الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة)، يذهبون إلى تأكيد حقه هذا ما لم تؤدِ آراؤه إلى إقدامه على

تصرف غير مرغوب فيه، أو منع غيره من التفكير كما يحلو له.

بيد أنه مهما بدا هذا القول سديدا في مجال التشريع وسن الدساتير وإعلانات حقوق الإنسان، فما من شك عندي في أن الآيات القرآنية التي ذكرناها في بداية هذا الحديث قد ذهبـت إلى أبعد مما نصت عليه شرائع البشـر، ودسـاتير الأمـم، وإعلانات حقوق الإنسـان؛ إذ قضـت أو ألمحـت إلـى أن الإنسان لا يملك حق اعتقاد رأي (كتكذيب قـوم النبـي لـه وإصرارهم على عبادة الأوثان)، أو حق اتباع سـنة الآبـاء الأولين، ما لم يكن قد درس الرأي وقلب فيه نظره واجتهـد، حتى توصل إليه بالصبر والاختبار والبحث الجاد. فهو حـق يتصل اتصالا وثيقا بالأساس الذي بنى المرء عليه اعتقـاده، وبالسبل التي سلكها من أجل الوصول إليه، لا بالرأي نفسه، ولا بما إذا كان قد ثبتت صحته أم فساده. وهنا يكون التساؤل عن وزن الأدلة التي جمعها، وصبر على تقصيها، ثم اسـتند إليها في تكوينها لرأيه. فثمة فارق ضخم بـين مـن حيـره سؤال، فانبرى يفتش عن إجابة عليه، دون تعصب أو هـوى أو ميل مسـبق، يـزن الآراء المختلفـة والمتناقضـة فيـه

ويختبرها، وبين من قاده هواه إلى هذا الرأي أو ذاك، مهما كانت الحجج التي تنتقص من قدره، ولمجرد أنه راغب في اعتناقه لسبب أو آخر؛ يأبى أن يقرأ إلا ما يزيده ثقة في رأيه، ويكره الاستماع إلى من يخالفه فيه، فمثل هذا الشخص الأخير في زعمنا، وعلى ضوء فهمنا للقرآن، لا حق له في أن يكون له رأي.

ذلك أن معتقدات الفرد منا ليست مسئوليته وحده، ولا بالتي تخصه هو وحده، وإنما تخص المجتمع بأسره، فكل جيل إنما يرث حصيلة أفكار الجيل الذي سبقه، تكون أمانة لديه حتى يورثها الجيلَ الذي يليه بعد إنمائها وتطهيرها. وهي مسئولية جسيمة بالنظر إلى إسهامها في تكييف مستقبل أبنائنا. وإذ كان لكل رأي شخصي، مهما بدا تافها، تأثير في مصير الآخرين، يصبح من واجب معتنقه أن يتأكد من أنه جاء نتيجة بحث حر غير هياب، لا نتيجة تكاسل عن تمحيص، أو رغبة في السلوان وإغراق الهموم، وميل إلى خلق السراب وخداع النفس، ويصبح من واجبه أن يحذر من التعجل في بلورة معتقداته حذره من الطاعون الذي يمكن أن

يصيب جسما فردا، ثم إذا بالعدوى تنتقل منـه إلـى الآلاف غيره.

(أفلا تتفكرون)؟

لقد حذرنا القرآن الكريم، كما سبق القول، من مغبة التعلق بالآراء الموروثة عن الآباء رغم مخالفتها للعقل والمنطـق، فاعتناق الشخص للرأي لمجرد أنهم لقنوه إياه في طفولته، أو أقنعوه به في صباه، وميله بعد ذلك إلى كبت كل شك بصدده يقفز إلى خاطره، والثورة على كل سـؤال مـن شـأنه أن يزعزع من ثقته فيه، يجعلان من حياته خطيئـة فـي حـق مجتمعه، أو كما قال ميلتون:

"إذا صدق المرء رأيا لمجرد أن القس فـي كنيسـته قـد ذكره، أو أن المجتمع الذي يعيش فيه قـد اعتنقـه، دون أن يعرف لهذا الرأي أسبابا ومبررات، فإنه حتى لو تبين أن هذا الرأي هو الصواب بعينه، يصبح هذا الصواب نفسه كفرا"!

ويقول كوليريدج:

"من بدأ بتفضيل المسيحية على الحق، لا مفر مـن أنـه سيفضل بعد ذلك كنيسته أو طائفته ومذهبه على المسيحية، ثم ينتهي بتفضيل نفسه على كل ما عداها".

ففي كل مرة يتبنى الإنسان رأيا دون الاطمئنان إلى أسسه وأدلته، تضعف قدرته على ضبط النفس، وعلى وزن الأدلـة وتمحيصها تمحيصا عادلا موضوعيا. قد أسرق مـن آخـر مبلغًا من المال فلا يضار هو من سرقته بسبب تفاهة المبلغ. غير أنه من المؤكد أني ألحق الضرر بمجتمعي؛ إذ جعلـت من نفسي لصا. فانتقال الملكية بالسرقة لا يضـير المجتمـع بقدر ما يضيره أن يتحول- كما تحول مجتمعنا فـي زماننـا هذا – إلى وكر لصوص، فتنتفي عنه صفة المجتمع. كـذلك فإنني متى اعتقدت رأيا دون استناد إلى أدلة شافية، وبراهين كافية، قد لا ينجم عندي ضرر كبير من جراء هذا الاعتقـاد ذاته الذي قد يكون سليما. غير أني بكل تأكيد ألحق الضـرر بمجتمعي؛ إذ جعلت من نفسي امرءا ساذجا سريع التصديق، وأضعفت فيها القدرة على التساؤل والاختبـار والتمحـيص، وأهدرت بذلك آدميتي.

أذكر أني سألت يوما أستاذ علـوم بالجامعـة الأمريكيـة بالقاهرة عما إذا كان يمكن لطالب يعتقد أن الأرض مسطحة غير كروية، أو أن الشمس هي التي تدور حولها، أو أن عقل المرأة دون عقل الرجل، أن يكون طالبا نجيبا في العلـوم أو

الرياضيات أو غيرها. فأجاب الأستاذ بقوله: إنـه احتمـال مستبعد. فالرأي الفاسد الواحد يجر وراءه حشدا مـن الآراء الفاسدة المماثلة، وذلك لسببين:

الأول، أن اعتناق الرأي الخاطئ الأول دون تمحيص، فيه دلالة على فساد موقفه من المنهاجية العلمية.

والثاني، أن عقائد الشخص عادة ما تكون في نظام وتلاحم عضوي، يصعب فيها فصل الرأي عن غيره. ومهما بدا رأي معين تافها هامشيا ولا أهمية له، فإنه يهيئ العقل لتقبل المزيد من شاكلته، ويضعف من قدرتـه علـى اسـتقباله للـرأي المخالف، أو للرأي الذي يستند إلى منهاجية مخالفة، وبالتالي فهو يسهم في تكييف طبيعة العقل كلـه، ويطبـع شخصـية معتنقه بطابعه.

معنى قفل باب الاجتهاد

إن قفل باب الاجتهاد إنما يعني أن تمحيص الأدلة المتعلقة برأي معين، لا يجوز أن يتم إلا مرة واحدة، وتظل النتيجـة بعد ذلك قائمة إلى أبد الآبدين، وهو يعني بالتالي قمع حريـة الشك في هذا الرأي أو ذاك، وهي حرية أساسية بالنسبة لتقدم العلوم والفكر والحضارة، ويمكن بسـهولة أن يـرد علـى

القائلين بقفل باب الاجتهاد، بأنه لو كـان تمحـيص الأدلـة السابق الذي أخذتم به تم على أكمل وجه كما تدعون، بحيث لم تعد ثمة جدوى للعودة إليه، لكان بالإمكان أن نجاحه بكـل أمانة وثقة كل ما يثور من شكوك حول صحة الـرأي، وأن نقنع الناس دون صعوبة. أما صعوبة أو استحالة الرد علـى التساؤلات والشكوك والآراء المخالفة والاجتهادات الجديـدة، فلا تعني غير أن تمحيص الأسلاف للرأي قبل إغلاقكم باب الاجتهاد لم يكن كافيا، ولا كانت أدلتهم قاطعة، وبالتالي فليس ثمة مبرر لقفل باب الاجتهاد.

قد يعترض البعض بأن انشغاله، وضيق ما في جعبته من الوقت، يحولان دون العناية بتمحيص الآراء ومقارنة الحجج قبل تبنيه إياها. غير أننا نرد عليه بأنه إن كان وقته لا يسمح بتمحيص الرأي، فلا ينبغي أن يسمح وقته باعتناق الرأي.

وإن دفع بأن الأسلاف كانوا رجالا أفاضل عظاما، ومـن ثم وجب الاقتداء بهم في أفعالهم ومعتقـداتهم، أجبنـا بـأن فضلهم قد لا ننكره، غير أن الفضل وحده لا يصـلح دلـيلا على سلامة الرأي، ما لم تتضافر الأدلة الشافية على صحته، وأن النظرة إلى آرائهم باعتبارها مجموعـة مـن الأحكـام

الأزلية ينبغي علينا أن نتقبلها دون نقاش، ودون اقتناع بالأسباب، ودون اجتهاد من جانبنا، لا تسيء إلى أنفسنا فحسب، وإنما تخل أيضا من الواجب الذي فرضه القرآن علينا، ومن واجب مساهمتنا في البناء الذي سنورثه أبناءنا. وبالتالي فإن كل من اعتنق الآراء المجرد أن غيره قد قالها وأخذ بها، منكرا على عقله الحق في أن يفكر فيها بنفسه، تضحي شهادته مردودة، وآراؤه مرفوضة.

إهدار الحق

ذلكم مفهومي عن حق المسلم في حرية الرأي والاجتهاد كما ألمح إليه القرآن والسنة. فماذا صنع المسلمون بهذا الحق بعد ذلك؟

نعلم أن الإسلام في صدره لم يعرف كنيسة أو نظام رجال الدين، ولا كانت في دولته وقتها طبقة منهم متميزة عن غيرها. فالأمور الدينية والدنيوية واحدة لا تمايز بينها. وإمام الجماعة في الصلاة هو قائدها في الحرب. ولا اختلاف في زي يحكمه اختلاف المنصب، والقرآن كتاب مفتوح، بلسان عربي مبين، بوسع الكافة أن تقرأ فيه. ولا كان ثمة من أدعى أن التفسير حكر عليه. وكان النظر في علوم الدين

مرحبا به، مشجعا عليه. كما كان الاجتهاد في أموره متاحـا لكل من قدر عليه. كذلك كان الإسلام أكثر الأديان اتفاقا مـع المنطق والعقل وطبائع البشر، وكانت تعاليمه أقـل التعـاليم حاجة إلى الدخول في صراع مع النتائج التي تتوصل إليهـا العلوم، وبالتالي فإن السلطة في دولته لم تسع إلى الحد مـن حرية العلماء في أبحاثهم، ولا كانت تنكل بهم بدعوى خطـر ثمار علمهم على العقيدة، أضف إلى ذلك أن الإسلام لم يقض بإخضاع المؤسسات الدنيوية لسلطة دينية لا وجود لها أصلا فيه، وأن بساطة العقيدة الإسلامية وخلوها من كـل مظـاهر التعقيد- نَفَيا الحاجةَ إلى كهنوت يتخصص في الغوص فـي أعماقها للخروج على الناس - بعد ذلك - بما يكتشفونه مـن حقائق.

كذا كان الإسلام حين كان الإسلام إسلاما. غير أن الـذي حدث مع قيام الدولة العباسية أن ظهرت تفرقة واضحة بـين الفقهاء وعلماء الدين، وبين غيرهم حين أضحى التعليم الديني أكثر تنظيما، وبات فيه من المناهج ما يسمح بالتخصص، وما يؤذن ببزوغ طبقة شبيهة إلى حد كبير بكهنوت المسـيحية؛ طبقة تحتكر مناصب معينة، ذات زي خاص تعـرف بـه؛

تصدر الفتاوى وتوجِد الرخص لمن شاء من ذوي السلطة أو الثروة التخلص من الالتزام بحكم من أحكام الـدين، تحـاكم وتجلد أو تعزل من قال قولة تخالف عقيدة السلطان وفقهـاء السلطان (كما في محنة خلق القـرآن)؛ تقتـل السـهروردي وتسجن ابن تيمية بتهمة الزندقة، وتصلب الحلاج المتصوف بتهمة الكفر، ترى من حقها أن تقفل باب الاجتهاد، فلا يجوز لأحد بعد ذلك أن يعمل فكره في مسألة قضى الأقدمون بحكم فيها؛ تغرق الكتب أو تُخرقها أو تحرقها (فعلها فـي كتـب ابن رشد)، وتستعيذ بالله وتبرأ إليه من العلوم. فإن كانت لـم تقتل أو تحرق أحدا من العلماء نتيجة لنظرية طلع بها، فلأن العلوم لم تكن قد بلغت في العصور الوسطى مبلغـا يمكـن للفقهاء الاحتجاج عنده بتناقض اكتشـافاتها مـع المعـارف الواردة بالكتب المقدسة.

لم يعد بالإمكان منذ ذلك الحين أن تتكرر قصة المرأة من العامة التي قامت في المسجد تعارض رأيا لأمير المـؤمنين عمر بن الخطاب، فيقر لها عمر بالصـواب وعلـى نفسـه بالخطأ. ولا بات بالوسع أن نعثر في مجتمعنا على تاجر خز يشغل نفسه بالفقه كما فعل أبو حنيفة، أو بقال يتخصص كما

تخصص أبو بكر الباقلاني في درس إعجاز القرآن. فمجـال مثل هذه الدراسات قد ترك بأسره للفقهاء: طبقة متميزة عـن غيرها من الطبقات في السلوك، وفي الخلفية الثقافية، وفـي درجة الإلمام بمظاهر حضارة العصر، بل وحتى في الـزي واللهجة. فإن ألح على رجل عادي سؤال يتعلق بـأمر مـن أمور دينه، لم ينظر في كتب الأقدمين التي بـات لا يطيـق فهمها ويدعوها بالكتب الصفراء، وإنما يلجأ إلى رجل الـدين يلتمس عنده الرأي أو الفتوى، ويقبل هـذا الـرأي أو هـذه الفتوى دون جدال لعجزه عن الجدال.

وقد تقبل رجال الدين المسلمون هذا الوضع بالرضا، وإذ اضطرتهم الحكومات والظروف لأن يقبلوا أيضا عدم التدخل في مختلف شئون الحياة المدنية، حاولوا الإصرار على عدم تدخل المدنيين في الشئون الدينية. فإن أرادت الحكومة مـثلا أن تدرس لطلبة مدرسة القضاء الشرعي علوم عصرية إلـى جانب العلوم الدينية، احتجوا على تدريس الطبيعة لأنه:

ومن يقل بالطبع أو بالعلّه فذاك كفر عند أهل الملّه!

وإن طلع طه حسين بكتابه "في الشعر الجـاهلي" تقـدموا ببلاغ إلى النائب العام يطالبون "بإبادة الكتاب، وإحالة المؤلف

إلى النيابة، وإلغاء وظيفته"؛ لأنه تعـرض لقصـة إبـراهيم وإسماعيل في القرآن، وللقراءات السبع، ولنسب النبـي، وإن كتب الدكتور هيكل سيرة نبوية، أو كتـب توفيـق الحكـيم مسرحية عن الرسول، هاجوا وعجبوا كيف يجرؤ رجال من غيرهم على التصدي لمثل هذه الموضوعات التـي خالوهـا حكرا عليهم.

فإن كانت الظروف لم تُتِح لهم في ذلك الوقـت فرصـة تحقيق مرادهم، فقد مكنتهم في الحقبة الأخيرة من منع عرض أفلام كفيلم "الرسـالة"، أو تمثيـل مسـرحيات كمسـرحيتي الشرقاوي عن الحسين، وإرهاب الحكيم؛ إذ شرع يكتب عن مناجاته لربه ثم أحجم، ثم إذا بهم الآن يسعون إلـى تجـريم طبع الكتب الدينية دون تصريح مـنهم، وفـرض عقـوبتي الحبس أو الغرامة مع المصادرة في أحوال المخالفة، تمامـا كما كانت تفعل الكنيسة في أوروبا في العصور الخالية.

لقد تبلور الاتجاه العلماني في الغرب كرد فعـل لتعنـت الكنيسة في رفضها أن يكون لغير رجالها شأن فـي بحـث مسائل العقيدة، مما اضطر المدنيين إلى التحول بطاقاتهم إلى مجادلات رفضوا بدورهم أن يكون للكنيسة دخل فيها. وقـد

كان المفروض ألا تثور في العالم الإسلامي هـذه المشـكلة لأسباب أهمها أن الإسلام لا يعرف كنيسة أو رجـل ديـن، ويشجع الكافة على النظر في علومه والاشتغال بها. غير أن الظروف التاريخية شاءت أن تقوم طبقة مـنهم، وأن يـدعي أفراد هذه الطبقة لأنفسهم حقوقا مماثلة في أمور كثيرة لحقوق رجال الكنائس المسيحية، وأن تنطوي تصرفاتهم على نفـس التعنت وضيق الأفق والتحكم وانتهاك حقوق الإنسان.

وقد شهد القرن العشرون في العالم الإسلامي بزوغ اتجاه محمود من جانب المثقفين من غير رجال الدين إلى النظـر في علوم الإسلام، والكتابة فيها، وتأكيد حقهم في الاجتهـاد. وكان المفروض والمنطقي أن يحظى هذا الاتجـاه بمباركـة الفقهاء وترحيبهم وتشجيعهم. غير أن الذي حدث كان خلاف ذلك، وكان على غرار موقف اليسوعيين الـذين أنكـروا أن تكون مسائل العقيدة من شأن الهـواة غيـر المتخصصـين، وأصروا على ضرورة إذعان الرجل العادي للحقـائق التـي يدلي بها رجال الكنيسة. فكان أن بـدأ يظهـر فـي العـالم الإسلامي نوع من الإرهاب للمثقفين والكتاب من غير رجال الدين، من شأن امتداد نطاقه، وعجز المثقفين عن استئصـال

شأفته، أن يؤدي إلى وأدِ الاتجاه الصحي الذي كـان علـى وشك أن يفرض نفسه، وإلى شيوع علمانية مناهضة للـدين ورجاله، وإفساح الطريق في مجال الدين للمزيد فالمزيد من التحجر والجمود والرجعية.

قد شهدنا في العشرينيات ما صنع هؤلاء بكتـاب الشـيخ علي عبد الرازق "الإسلام وأصول الحكم"، وهو أحد الكتـب النادرة التي أفلحت في أن تهز الحياة الفكريـة فـي العـالم الإسلامي خلال النصف الأول من القرن العشرين. وقد كان في صدوره وصدور كتاب "في الشعر الجاهلي" بعـده بعـام واحد، دلالة على خصب الفكر المصري وحيويته فـي تلـك الحقبة، وعلى ما كان يمكن أن تكون عليه ثمار هذه النهضة وهذا الاتجاه العلمي الخالص لو كان قدر لهما أن يزدهـرا. غير أن الرجعية وأنصار القديم اتخذوا من هـذين الكتـابين موقفا نجح في إرهاب صاحبيهما، فأحجم علي عبد الـرازق عن إعادة طبع كتابه بعد محاكمـة الأزهـر لـه، واتهامـه بالزندقة، ومنعه من التدريس، في حين اضطر طـه حسـين إلى حذف فصول من الطبعات التالية لكتابه، وتغيير عنوانه. فإن كان طه حسين قد زعم - فيما بعد - أن الكتـابين "قـد

نجحا في إرساء دعائم الفكر الحر فـي الإسـلام بصـورة حاسمة"، فإن الواقع كان مخالفا لهذا الزعم مـن جانبـه؛ إذ ترتب على الإرهاب الذي تعرض الـرجلان لـه، إرهـاب غيرهما، فلم يقدم أحد بعدهما على تجربة مماثلـة، ونشـر بحوث تتمتع بما تمتع به بحثاهما من حرية. وهو أمر كفيـل وحده بأن ينبهنا إلى مدى الخسارة وقتل المواهـب اللـذين تحملهما ولا يزال يتحملهما الفكر الإسلامي بسـبب إرهـاب أناس لا ينتجون ولا يسرهم أن ينتج الناس؛ لا يفكـرون ولا يطيقون أن يروا غيرهم يفكر؛ قد أراهم قفل باب الاجتهـاد من مهمة إرهاق الذهن، فإن أرهق غيرهم ذهنـه أرهقـوه وكرهوه وحاربوه وأسكتوه. فهم – على غبائهم – يتمتعـون بحاسة شم خارقة، وبذكاء نفاذ يداني العبقريـة فـي مجـال واحد لا مجال غيره: مجال التنبه إلى كل نبوغ يمثل إدانـة دامغة لخمول ذكرهم، ونصب الكمين لصاحب كل نشاط هو بمثابة إصبع اتهام تشير إلى تقصيرهم. وأي وسيلة أنجح في سبيل الإسكات والقمع لدى شعب أمي - من الاتهام بـالكفر والمروق من الدين؟ وأي امرئ أسوأ حالا من عاقل يجـري عليه حكم جاهل؟

لقد زعم هؤلاء أن الإلهام في أمر الدين قد انقطـع مـن عشرة قرون، وأنه انقطع إلى الأبد. وهو زعم كزعمـك أن الله - عز وجل - قد اعتزل العمل من ألف عام، وأن صوته لم يعد يسمع منذ ذلك الحين. وفي زعمنا أن أولئك الـذي لا يؤمنون بأن الإلهام هو بالضرورة مستمر من أجل التصـدي للاحتياجات المتجددة للبشر، لا يمكـن أن يكونـوا مـؤمنين بالإلهام والوحي أصلا، وهو عندنا كفر لا كفر بعده.

ثم كان أن ابتلي مجتمعنا في السنوات الأخيرة إلى جانب ابتلائه بهؤلاء، بقوم جدد من الدجالين المشعوذين، تمكنوا من إقناع الآلاف والملايين عندنا بأوهامهم وخرافاتهم، فأودعوهم ثقتهم الكاملة، وتركوهم يفكرون نيابة عنهم حتى يعفَوا مـن مهمة التفكير الشاقة، ووهبوا أنفسـهم لهـم حتـى ينتهكـوا أعراضهم الفكرية، هاتفين بهم: "إيماننا بكم أقوى من إيماننـا بشهادة أعيننا"! وكلما تمادى هؤلاء الدجالون فـي اعتـدائهم على أعراضهم، عظم استعداد الغوغاء لإعطـائهم المزيـد. فالحرية التي يزعمون أنها أغلى ثمرة، ويتشدقون بأنها أعظم حق من حقوق الإنسان، قد طرحوها تحت أقدام مشـعوذين يقبضون على نواصيهم، مقبلين الأيدي التي تمسك بخناقهم.

هؤلاء الدجالون، دون استثناء، ما شهدوا هـذا السـلطان الذين بات في أيديهم، حتى سعوا إلى توسيع نطاقه، فبدلا من أن يهنئوا أنفسهم على تمكنهم من عواطف العامة، بـاتوا لا يرضون إلا بأن تذعن لهم الكافة، لا الغالبية فحسـب، ولـن يهدأ خاطرهم حتى تخضع القلـة الحـرة المسـتنيرة لهـم ويستعبدوها. فإذا الرأي المخالف وقد كفروه، والفكـر الحـد وقد جرموه، والالتزام بالمنطق وحده وقد حرموه. وإذا الأمر لا يتعدى وحشية صرفة، وعطشا لا يرتـوي إلـى المزيـد فالمزيد من السلطة والجاه.

بوسع أولئك وهؤلاء إخافة الأقلية المسـتنيرة بإظهـارهم قدرتهم على استخدام الإرهاب، واستعدادهم لتكفير المخالفين. وعلى من يتصدى من الصفوة لهـم أن يعلـم أنـه إمـا أن يسكرهم أو يكسروه؛ إما أن يتصدى لهم بكليته أو أن يـذعن لهم بكليته. أما أنصاف الحلول هنا فلا طائل وراءهـا. فـإن زعم البعض أنه ما من فرص كبيرة في النجاح أمام مفكـر مستنير لا يملك من القوة غير قوة إيمانه بمعتقده، يقف وحده في مواجهة منظمة قوية قد فرضت إرهابها، لا تحاول الـرد وإقناع العقول والمجادلة بالتي هي أحسن، وإنما تسعى إلـى

إخراس الألسن وقمع حرية الفكر، وحق المسلم في الاجتهاد، أجبتهم بأن ثمة في كتب التاريخ ما يعزي هذا الرجل ويشد من أزره؛ وهو أنه ما من معركة انتصر فيها رجال الدين والدجالون في مراحلها الأولى، إلا خسروها في مرحلتها الأخيرة.

وإن ذكرنا البعض بأن هناك من الدول الغنية من يهمها - لأسباب معينة - أن تعم هذه الرجعية في مجال الدين، ومن الدول القوية من يفيدها أن تبقى على تخلّفها أمةُ المسلمين، فتساند الأولى بأموالها هؤلاء المتحجرين، وتعضد الثانية بنفوذها تيار الرجعيين الجامدين، وتفرض جميعها الضغوط على دور النشر العربية؛ حتى تحجم عن النشر للمفكرين المستنيرين، وتقنع بوسائلها الخاصة رؤساء تحرير الصحف حتى توقف نشر كتاباتهم، ثم تشتري بعد ذلك - أو قبل ذلك- ذمم وأقلام شرذمة تلو شرذمة من المفكرين، بدعوتهم إلى الكتابة في صفحها ومجلاتها بأجور مغرية؛ حتى تتمشى كتاباتهم مع الخط الذي تحدده لهم، وحتى يئدوا آراءهم التقدمية وأْدا، ويدافعوا عن رجعية ما كانوا في الماضي يحلمون بأن يجيء اليوم الذي يدافعون فيه عنها، ويكفرون

من الكتاب المستنيرين الصامدين من لا يرضى مستخدموهم عنه، أقول: إن ذكرنا البعض بهذا كله، أجبناه بأن ثراء هذه الدول لن يطول أمده، ونفوذها غير مخلد عهده، وقد يكتب لأنصار الاستنارة فيها الانتصار، ولحماة الرجعية الاندحار، ولدعاة الجمود الانحسار والانكسار. والله المستعان.

العلاقات الطائفية في مصر

أكتب هذه السطور بعد مرور شهرين على أحداث الفتنة الطائفية الدامية التي وقعت في حي إمبابة بالقاهرة، والتي أحرقت خلالها كنيسةٌ، ودمرت كنيسةٌ، وحطمت متاجر يملكها أقباط، ودمرت مساكن يسكنها أقباط، وقتل عدد من الأقباط ما بين رجال ونساء.. وقد قيل في تفسير الأحداث إنها نشبت حين أبرز بعض أقباط إمبابة صورة العذراء والمسيح أثناء احتفال المسلمين بالمولد النبوي؛ وقيل: بل هي نتيجة منافسة بين تاجرين من تجار الدجاج؛ أحدهما مسلم والآخر قبطي. وقيل: إنها مؤامرة حاكها الأصوليون الإسلاميون بقصد تعكير الجو الذي تجري فيه دورة الألعاب الأوليمبية الأفريقية، وإبراز ضعف النظام الحاكم في مصر أمام أعين الضيوف الأفارقة.. ثم صدر بيان وزارة الداخلية

ينكر كالعادة أن يكون الأمر فتنة أو صدداما خطيرا بين الطائفتين، ويزعم أنه مجرد مناوشة عابرة بين بعض الأفراد غير المسئولين، سرعان ما احتوتها قوات الأمن. وهو زعم سرعان ما رددته الصحف القومية المصرية.

هذا الموقف من وزارة الداخلية، ومن الحكومة المصرية بوجه عام، ومن صحافتها المسماة بالقومية، سواء من أحداث إمبابة الأخيرة، أو أحداث الفتنة التي تلتها في أسوان، أو الأحداث العديدة التي سبقتها في كل من أسيوط وسوهاج والمنيا وعين شمس والزاوية الحمراء وغيرها من مدن الصعيد وأحياء القاهرة، ومن عشرات الصدامات بين المسلمين والأقباط التي عرفتها مصر خلال عهدي أنور السادات وحسني مبارك، هو في رأيي موقف لا يختلف في كثير أو قليل عن مسلك النعامة التي تدفن رأسها في الرمال تعاميا عن الخطر الذي لا يختلف في كثير أو قليل عن مسلك النعامة التي تدفن رأسها في الرمال تعاميا عن الخطر الذي يلاحقها.. وهو موقف قد نفسره برغبة السلطة في إخفاء حقيقة الوضع عن الدول الأجنبية؛ حتى لا يتحدث فيها أحد أو صحيفة عن المظالم التي يتعرض القبط لها، فتسوء بذلك

سمعة النظام الحاكم الذي سيتهم حينئذ بالضعف والعجز عن قطع دابر الفتن الطائفية، أو برغبة السلطة في إخفاء حقيقـة الأحداث عن الرأي العام في مصر؛ حتى لا تسري عـدوى الفتنة من محافظة إلى محافظة، ومن مدينة إلى أخرى.

غير أن الذي أجده غريبا حقا، وأمرا لا مبرر لـه مـن المنطق ولا سند له من العلم، هـو إقبـال كافـة المفكـرين والكتاب المصريين تقريبا – مسيحيين ومسلمين – على إلقاء تبعة الفتن الطائفية إمـا علـى المخططـات الاسـتعمارية والصهيونية من نوايا خبيثة تجاه الأقباط أو النظام، أو علـى الأمرين معا.. وقد حدث مؤخرا أن نشرت مقالا في صحيفة "الأهالي" أعقب فيه على أحداث إمبابة، فـانبرى الصـحفي جلال كشك في العدد التالي من الصحيفة يقول: "إن الهـدف من مقالي هو تأكيد أن الفتنة الطائفية ليست حادثا عارضا في المجتمع المصري، ولا هي من صنع يد ثالثة تريـد إزالـة مصر من طريق الإمبراطورية الإسرائيلية"، ثم يقـول: "إن تاريخ مصر كله لم يعرف فتنة طائفية واحدة قبل الاحـتلال الأوروبي"، وتحداني أن أذكر مثالاً واحدا لفتنة حدثت قبـل عهد مصر بهذا الاستعمار الأوروبي.

وقد رددت عليه في مقال تال بقولي: "إن هذا الزعم منه إن دل على شيء، فإنما يدل على أن الكاتب لم يقـرأ كتابـا واحدا لأي من النويري أو ابن أيبك الدواداري أو ابن شاكر الكتبي أو المقريزي أو بدر الدين العيني أو ابن تغري بِردي أو الصيرفي أو السخاوي أو ابن إياس، والعشرات غيـرهم؛ لأني زعيم له بأن كتابا واحدا لأي من هـؤلاء المـؤرخين الكبار لتاريخ مصر الإسلامية يحوي المئات من الأحاديـث والروايات عن الفتن الطائفية في مصـر قبـل أي احـتلال أوروبي لها.. ثم نقلت له بالحرف الواحد حديثَ المقريـزي (شيخ المؤرخين المصريين) في كتابة "السلوك لمعرفـة دول الملوك" عن أحـداث وقعـت فـي مصـر عـام ١٣٢١ م (٧٢١هـ)، أحرقت فيها ستون كنيسـة، وأديـرة عديـدة، وسبيت الراهبات، وأُحِل فيها دم النصارى، وحفرت الحفـر لإحراق الرهبان والأقباط فيها، واضطر الكثير من النصارى إزاء سوء معاملتهم وإهانتهم وضربهم إلى الدخول في ديـن الإسلام.. وقلت في ختام مقالي: إنه إن احتاج إلـى عشـرة أمثلة أخرى سقتها له، أو إلى مائة، فأنا رهن إشارته، أو إلى ألف فما عليه إلا أن يأمر فأطيع.

وقد لامنى الكثيرون من القراء – مسيحيين ومسـلمين – (ومنهم أصدقاء حميمون) على هـذه الإشـارة منـي إلـى الأحداث التاريخية التي لا تدع مجالا للشك فـي أن الفـتن الطائفية ليست حادثًا عارضا في مجتمعنا، وفي أن بواعثهـا كانت - ولا تزال - جزءا من تكوين الفـرد العـادي فـي مصر، وإن كانت لا تظهر في الغالب واضحة للأعـين، ولا تبدو عواقبها المقيتة إلا في عهد الانحلال السياسي، وضعف السلطة الحاكمة، وغياب المشروع الحضاري، وفقدان الأمل في الإصلاح الاقتصادي ورفع مستوى المعيشة.

غير أنني كنت أجيب على هذه الانتقادات قائلا: إنه كمـا أنه ليس للمريض أن يتوقع علاجا حقيقيا من الطبيب متى ما أخفى عنه الحقائق الأساسية المتصـلة بمرضـه وبتاريخـه وأعراضه، كذلك فإنه في اعتقادي أنه لا أمل فـي تصـدينا لعلاج الفتن الطائفية، أو في تحسـين وضـع، ولا بالوسـع الشروع في إزالة مظالم، ما دمنا سنظل إلى أبد الآبدين نكرر ما اعتدنا أن نكرره من تعابير مبتذلة بالية؛ لمجـرد طمأنـة الخواطر، وإراحة الضمائر، وغرس الوهم في الأذهان بـأن الأمور هي على خير ما يرام، لولا حفنة مـن المتعصـبين،

ولولا دسائس المستعمرين والصهيونيين، وأنه لولا هذه وتلك لخلت العلاقات الطائفية من كل شائبة.. أقول: إنه لا أمل في علاج وضع، ما دمنا نخلط الأماني بالواقع، وننسب الخطْـب كله – كما هي عادة العرب في كل ضائقة أو أزمة يمـرون بها – إلى خطط تحاك في الخارج، أو إلى نوايا خبيثة لـدى بعض العناصر الفاسدة في الداخل، ثم نصرح - كما تصرح وزارة الداخلية المصرية - بأنه ليست ثمة مشكلة، وأن الأمر لا يتعدى بعض الحوادث الفردية من الاغتيـالات، وبعـض الحوادث العارضة من المناوشات الدامية، وبعض الحـوادث المؤسفة من إحراق دور العبادة، وبعض المزايدات الدينيـة التي يأباها الضمير المصري!

وإنما يكمن الحل الحقيقي في رأيي في مواجهة واضـحة صريحة، لوضع قبيح صريح..

***

وأبدأ فأقول: إن من بين العبادات التي يرددها الكثيرون – عن حسن نية لا شك – أن "تعاليم الأديان الكبرى تمجد مبدأ التسامح" أو أن "جميع الأديان لديها في جوهرها فكرة الأُخوة العالمية، ورسالة مشتركة مـن الرحمـة والمحبـة"، أو أن

"المصدر الرئيسي للتسامح يوجد في التعاليم الدينية التي تبشر بعدم التمييز والإخاء والاحترام المتبادل بين البشـر".. إلـى آخر مثل هذه العبارات التي سأرد عليها الآن في ثلاث نقاط:

النقطة الأولى: وهي ملاحظة فرعية تتعلـق باسـتنكاري لاستمرار اسـتخدامنا للكلمـة Tolerance (أي: التسـامح والاحتمال) حتى يومنا هذا.. فهي كلمة إن جاز اسـتخدامها في القرن السابع عشر وقت كتابة جون لوك لرسـالته فـي التسامح لمقاومة ما ساد في زمنه من اضطهاد ديني، فهي لا تعني اليوم غير قلة الاكتراث بالتفرقة بين الحقيقة الروحيـة والخطأ الروحي، ولا سند لها علـى الإطـلاق مـن حـب الآخرين واحترامهم.. هي كلمة توحي في واقع الأمر بنـوع من الاحتقار للدين ذاته. فإن قال لي امرؤ إنـه "يحتملنـي"، فالمؤكد أنه ليس صديقي. وإن قال: إنه يتسامح مع آرائـي، فالمؤكد أنه لا يحترم هذه الآراء.. وفـي اعتقـادي أن مـن الواجب في زمننا هذا أن نتجاوز الاحتمال والتسـامح إلـى الاعتراف والمعايشة.

النقطة الثانية: تتعلق بقول البعض: إن الاختلافات بـين الأديان ظاهرية أكثر منها حقيقة، وأنها جميعـا متفقـة فـي

جوهر تعاليمها، وأنه بالإمكان التوفيق بينها وتوحيد أساسـها كخطوة في سبيل تعزيز التسامح الديني.. مثل هذا الموقـف التوفيقي في رأيي يضع نفسه فوق الأديان كافـة، وينتحـل صفة الإله وامتيازاته، ويحِل الفلسفة محل الدين، وهو بالتالي موقف لا ديني. وعندي أن كل معايشة وكـل حـوار بـين الأديان يفقدان مغزاهما ما لم يكونا دينيين، ولو صـح هـذا الرأي الذي طالما سمعناه، ليس فقط من العـوام ومحـدودي الثقافة، بل ومن زعماء الطوائف الدينية في مناسبات معينة، لصارت حصيلة الفكر البشري أشد فقرا وضحالة مما هـي عليه اليوم. فلو كانت الأديان جميعا على اتفاق فيما بينها لما كانت ثمة حاجة إلى أكثر من دين. وإنما هي رؤى متباينـة يعكس كل منها مفهوما مخالفا عن الكون والحياة والسـلوك البشري.. وليس إله هذا الدين بإله ذاك. فما الإله في مفهومي غير حصيلة مكونات هذه الرؤى المباينة للرؤى الأخرى:

﴿ **لَكُم دِينُكُم ولِي دِين** ﴾.. والاعتراف بهذه الحقيقة التـي يدركها في قُرارة نفسه كل ذي دين يأبه به، خطوة إيجابيـة في سبيل التعايش الديني والاحتـرام المتبـادل بـين أفـراد الطوائف الدينية المختلفة، شريطة أن يستقر في النفوس مبدأ

أساسي: هو أن كل رؤية تحمل جانبا من الحقيقة لـم تركـز عليه سائر الرؤى، وأن ثراء الروح البشرية والفكر الإنساني هو في الاطلاع على كنه تلك الرؤى المتباينـة، ومحاولـة الغوص إلى أعماقها للاستفادة من الجديد الفريـد الإبـداعي المتميز فيها، وأن معيار رقي الفرد وعظمته الروحيـة هـو مدى فهمه وتوقيره لكافة ضروب الفكر التي أسـهمت فـي تشكيل البشرية.

النقطة الثالثة: وتتعلق بالزعم بأن كافة الأديـان أمـرت بالتسامح واحترام الأديان الأخرى.. وهو قول لن ندعه يمر.. أي دين بالضبط أمر بالتسامح واحترام الأديـان الأخـرى؟ اليهودية التي أباحت السرقة من مال غير اليهود، والزنا بغير اليهود، واقتضاء الربا من غير اليهود؟ أم المسـيحية بقـول عيسى عليه السلام: "أجبرهم على الدخول حتى يمتلئ بيتـي" (إنجيل لوقا ١٤: ٢٣)؟ أم الإسلام والقرآن يذكر صراحة:

﴿ **ومن يبتَغِ غَير الإِسلاَمِ دِينًا فَلَن يقْبلَ مِنْه** ﴾ آل عمران ٨٥؟

إنه لمن السهل، ومن المألوف، أن يسترشد البعض بعبارة أو آية أو حديث من هنا أو هناك لإثبات ما يؤيد حجته فـي

أي موضوع شاء. غير أنه من حقنا أيضا أن نسـألهم: هـل هذه العبارة أو الآية أو الحديث هو كل ما ورد في الكتـاب المقدس أو كتب الحديث بصدد الموضوع الذي تتحدثون فيه؟ هل تعني هذه العبارة أو الآية أو الحديث حقا ما تعنـون، أم أنكم تفرضون على ما اخترتموه تأويلا ومعاني لم يقصـدها النص؟ وعلى سبيل المثال أذكر أن البعض يستشهد - وهـو في معرض التدليل على أن الإسلام قضى بالتسامح وحريـة العقيدة – بآية: ﴿ **لاَ إِكْرَاه فِي الدين**﴾، ويتغافـل عمـا أورده الطبري في تفسيره من أن الآيـة نزلـت قبـل أن يـؤمر المسلمون بقتال أهل الكتاب. فهلا استشهد بآية ﴿ **قَاتِلُوا الذِين لاَ يؤْمِنُون بِاللهِ ولاَ بِالْيومِ الآخِرِ ولاَ يحرمون ما حـرم اللهُ ورسولُه ولاَ يدِينُون دِين الْحق مِن الذِين أُوتُوا الْكِتَاب حتى يعطُوا الْجِزيةَ عن يدٍ وهم صاغِرون**﴾؟ أو آية: ﴿ **فَإِذَا لَقِيتُم الذِين كَفَروا فَضرب الرقَابِ** ﴾؟ أو آية: ﴿ **وقَاتِلُوهم حتـى لاَ تَكُون فِتْنَةٌ ويكُون الدين للهِ** ﴾؟

والخلاصة أن الخطوة الإيجابية الثانية في سبيل التعـايش الديني تتمثل في إدراك الحقيقة التالية: وهي أنه إن كان كـل من الأديان يرى لنفسه الحق في أن يعـم وأن يسـود علـى

حساب الأديان الأخرى، فإن فكرة التعايش والاحترام المتبادل هي من إنجازات العقل البشري، ومن أعظم ثمار الحصـيلة البشرية من الخبرة التاريخية الطويلة المرة – هي من خلـق الإنسان لا من وحي الأديان..

الأديان بطبيعتها تتنافس فيما بينها علـى أرواح البشـر، وهي بالضرورة غيورة متميـزة، شـأن مشـاعر القبليـة والوطنية.. ولا يكمن خطأ المتعصب في اعتقاده أن دينه هو أفضل الأديان. فهو أمر طبيعي ومشروع. ولو لم ير المـرء لدينه الحق في الشمولية والعالمية، لما كان هذا دينه. إنـه لا يلتمس لنفسه طريقا، وإنما يلتمس لها الطريـق. ولا يسـعى وراء حقيقة وإنما يسعى وراء الحقيقة.. وإنما يكمن خطـؤُه في عجزه المطلق عن إدراك ما يدور بين الله وروح المؤمن من أتباع الديانات الأخرى، وعن إدراك حقيقة أنه ليس ثمـة دين خاطئ إن كان معتنقوه يرونه كافيـا لسـد احتياجـاتهم الروحية والحياة الفاضلة على هديه، وعن إدراك أن جهـود المبشرين أشبه شيء بمحاولة الاستعماريين فـرض ثقـافتهم وحضارتهم وأسلوب عيشهم على مختلف أنحاء العالم مما لا يمكن أن ينجم عنه سوى فقر الفكر البشري.. كـذلك يكمـن

خطأ المتعصب في عزله نفسه عن الجوانب الإيجابيـة فـي الأديان الأخرى، واتخاذه لمعتقده ووجهة نظره مقياسا للحكم على معتقدات الآخرين. ومن هنـا تـأتي أهميـة الحـوار وضرورة التلاقي والتلاقح. فما تلاقي الأديان غيـر مظهـر واجب آخر من المظـاهر المتزايـدة لتلاقـي الحضـارات والشعوب في عصرنا هذا. ولا يعني هذا مطالبة أتبـاع أي دين باطراح أية حقيقة جوهرية فيه. وإنما يعنـي تجاوزنـا الاستماع في صبر، والجدال في أدب، إلى التفتح الذي يمكننا من الاستفادة والتعلم من الآخرين، بل وإلى تصحيح بعـض مفاهيمنا عند الضرورة، وإلى التفرقـة بعنايـة أكبـر بـين الجوهري في الدين، وبين الرمزي وغير الرمزي، ثم إعادة صياغة الجوهري، وإعادة تفسير الرمزي.

على المسلمين مثلا أن يبذلوا جهدا أكبر في التعرف على تعاليم السيد المسيح وتفهمها، وألا يثبطهم إيمانهم بتحريـف التوراة والإنجيل عن دراستهما. وعلى المسيحيين أن ينظروا مثلا في إمكان إعادة صياغة عقيدة التثليث بهـدف التركيـز على وحدانية الله التي يقول بها الإسلام، وأن يشـرعوا فـي تقييم محمد الرسول تقييما أكثـر إيجابيـة، ينطـوي علـى

الاحترام والتقدير والفهم، وهو ما لن يتعارض مع جوهر المسيحية. وعلى الجميع أن يبدوا استعدادا لتقبل نتائج الفكر العلمي الحديث في الدين، وتعديل مناهجهم الفكرية. وعلى هؤلاء وأولئك أن يدركوا أن إقدام المرء على تعميق فهمه لدين الآخرين يعني تعميق فهمه لدينه هو. وأن المتدين الحق ليس من كان بوسعه تفنيد الأديان الأخرى، والسخرية من معتقدات أهلها كما يفعل الدجالين في برامجهم التليفزيونية في مصر، وإنما المتدين الحق هو من كان بوسعه أن يميز الحقائق الواردة في الديانات الأخرى، ثم ينتقل بعدها إلى ما هو أبعد من ذلك.

***

أعود بعد هذا كله إلى الأوضاع الطائفية في مصر، فأزعم أن ثمة خطرا حقيقيا يتهدد الوحدة الوطنية فيها. فالتطرف الديني الذي يهدد بنسف الوحدة في ازدياد، وكذا الإحساس لدى عدد غفير من المسلمين المصريين بأن الانتماء إلى العالم الإسلامي يجب الانتماء إلى مصر، والشعور لدى عدد متزايد من الأقباط بأن "الأقباط قد يضطرون في مستقبل غير بعيد إلى أن يحملوا السلاح دفاعا عن حقهم في المواطنة

الكاملة، وأن تدفق التيار الإسلامي يدفع الأقباط إلى تعصب طائفي لا يقل في رجعيته عن طائفية الخصوم" – وهو ما صرح به أحد أقطابهم لمراسل صحيفة لوموند الفرنسية (عدد ٢٣ أغسطس ٨٤).

وأقولها هنا صراحة ودون التواء: إني أرى القبط مسئولين إلى حد ما عما يحدث لهم، وذلك بانطوائهم التقليدي، وسلبيتهم وحذرهم المشهورين في العالم كله، واختيار الكثيرين من أفضل العناصر فيهم وأكثرها ثقافة وخبرة ومهارة للهجرة من وطنهم، دون المجابهة الإيجابية النشطة لعدو إيجابي نشط، والاشتراك اشتراكًا فعالا مع المسلمين المستنيرين في إيجاد مخرج من هذه الورطة، ومساعدة الحكومة باقتراحاتهم على تعزيز التعايش الديني بين الطائفتين.. وإنه ليحزنني أن أرى مواقفهم لا تتعدى في الأغلب ردود الفعل إزاء ما يحدث، إما بالهجرة إلى الخارج، أو الشكوى والتبرم في مجالسهم الخاصة، أو الصبر على مضض، أو الثأر مما يلحق بهم. أما التخطيط لإنقاذ الوحدة الوطنية فلا يكادون يعرفونه. وأما بصدد حقهم في المواطنة والمساواة الكاملة في قطر لهم فيه ما للمسلمين، فإن مثقفيهم

وقادتهم لا يفعلون أكثر من أن يرددوا في المحافل العامة ما لا يؤمنون به، ولا يؤمن به أحد من أن كل شيء على ما يرام، لولا مؤامرات تُحاك في الخارج وتعصب لدى بعض العناصر في الداخل.

نقطة ثانية: لطالما لمست في وطننا وفي غيره أن أفضل العلاقات بين أفراد الطوائف الدينية المختلفة هي تلك التي تسود بين الملحدين من كل طائفة، ممن قد تلاشت لديهم العقيدة، وجمع بينهم الشك في صحة الأديان جميعا.. هنا يختفي التعصب وضيق الأفق، والشك المتبادل والحيطة والحذر، ويصبح من المتصور والممكن أن تقوم الصداقة الحرة، والألفة الحقيقية، ويضحي شعارهم بيت الشاعر القروي:

سلام على كُفرٍ يوحد بيننا وأهلا وسهلا بعده بجهنّمِ!

وربما وافقني القارئ على أنه من المؤسف أن يكون للإلحاد مثل هذا الفضل، ولا يكون للعاطفة الدينية، وأنه من المحزن أن نرى المتدينين في كل من الطائفتين، وقد غلبت عليهم مشاعر الشقاق والمرارة والشك تجاه متديني الطائفة الأخرى، في الوقت الذي تجابه الأديان كلها قوى عاتية

تعارضها وتسعى إلى هدمها جميعا، هي أعتى وأبلغ خطـرا مما كانت عليه في أي عصر مضى.. قد كان ثمـة أزمـات كتلك التي عرفها الإسلام وقت محنة خلق القرآن، أو كتلـك التي عرفتها أوروبا في عصر الإصلاح الديني. غيـر أنـه كانت أزمات داخل الدين، في حين نجد الأزمة الراهنة تتمثل في هجوم ضد الدين، سواء جاء هـذا الهجـوم مـن جهـة الماركسية، أو الإنسانية، أو المادية العلمية، أو نمط الحيـاة المعاصرة. وقد زاد عدد أولئك الذين بات الـدين لا يلعـب دورا كبيرا أو صغيرا في حياتهم، ولا يعرفون القيم الدينيـة التي هي وسيلة فعالة لمقاومة فقر الحياة الروحية في المجتمع الحديث. فبدون هذه القيم يصـعب أن يكـون ثمـة سـلوك متجانس، ويضحي سلوك الفرد في أغلب الحالات مجموعـة من التصرفات وردود الفعل لا رابط يجمع بينها.

وقد أحست الكنائس المتصارعة في الغرب بهذا الخطـر الذي يتهددها جميعا في السنوات الأخيرة، فسعت بنجاح إلى رأب الصدع بينها، وفتح باب الحوار من أجل إقامـة جبهـة متحدة ضد العدو الحقيقي، بل ومدت جميعهـا يـدها إلـى اليهودية للمشاركة في الدفاع، وأعلنت أن المطلوب هو مجرد

احترام الدين في حد ذاته، وتقدير العاطفة الدينية حيثما وجدت، وأيا كان موضعها، في سبيل إحداث التقارب وتحقيق التلاقي. وبقينا نحن في مصر نعيش في بيت قد انقسم أهله على أنفسهم، ولا يغطي سقفه غير جزء من مساحة أرضه.

***

بقيت كلمة أخيرة، لئن كان المثل العربي يقول: (الناس أعداء لما جهلوا)، فإني لا أرى جهلا من فئة بعقيدة فئة أخرى، كجهل كل من المسلم والقبطي في مصر بعقيدة الآخر. لا هذا قرأ الكتاب المقدس عند الآخر، ولا تعلم عقائده في مدرسته، ولا تطلع إلى معرفتها حين شب ونما.. إن سألت القبطي عن الإسلام أجابك بأنه دين يحرم الخمر ولحم الخنزير ويحلل زواج الرجل من أربع. وإن سألت المسلم عن المسيحية أجابك بأنها دين يحلل الخمر ولحم الخنزير ويحرم زواج الرجل من أكثر من واحدة. وقد كان المفروض أن تتدارك المدارس ووسائل الإعلام والآداب عندنا هذا الخلل الذي هو، دون شك، أحد أسباب التعصب وسوء العلاقات. غير أنها لم تفعل؛ فحصص الدين في المدارس مقصورة على أبناء كل طائفة، وكان يمكن أن تدرس للجميع ديانات

الجميع. وثمة ستة قرون من تاريخ مصر المسـيحي (هـي أطول من تاريخ الولايات المتحدة بأسره)، لا يكـاد المسـلم المصري يعرف عنها شيئا. والصحف والمجـلات لا منبـر فيها لفكر قبطي، ويكاد الأمر يقتصر على صحيفة واحدة أو صحيفتين لا يقرؤهما غير القبط. والإذاعـة والتليفزيـون لا يلقيان بالا إلى عقيدة القبط. بل على العكس من ذلك، ففيهما نسمع أحد الشيوخ يقول: إنه لا ينبغي لمسلم أن يتخذ قبطيـا صديقا له، ونسمع شيخا آخر يقول: إن الأقباط كانوا دائمـا يخونون مصر كلما تهددها أو اجتاحها غزو أجنبي.

كذلك يبدي أدباء القبط وكتابهم تقصـيرا عظيمـا فـي تصوير أحوال طائفتهم وطريقة عيشها، سواء في الروايـات أو المسرحيات والأفلام. أما الأحزاب السياسية، فإن كل مـا تسعى إليه باتجارهـا بالـدين، وإبرامهـا التحالفـات مـع الأصوليين الإسلاميين، هو الوصول إلى كرسي من خشـب، حتى إن استندت قوائمه إلى فوهة بركـان. فمـا عسـانا أن نتوقعه بعد هذا غير الجهل، وغير مشاعر الإحباط والمرارة، وتعذر قيام علاقات صحية من التعايش الديني؟

وأخيرا فإن الافتقار إلى الصدق التام، والصراحة الكاملـة في غرض الأمور، وإلى الحوار الحر المباشـر مـن أجـل معرفة الأسباب الحقيقية للنفور والشك، ومن أجل الوصـول إلى حلول معقولة، كفيل بأن يبقي الأوضاع على حالها. كما أني زعيم بأن التركيز على دور المستعمرين، وإلقاء التبعـة على الأصوليين المتطرفين، أمران لا أقول إنهما لا يقـالان إلا للأطفال، بل هما لا يقالان أصلا حتى للأطفـال؛ خشـية تشويش إفهامهم، وتشويه مداركهم.

يوم صلى النبي على أخ نصراني له

قال قتادة: لما مات نجاشي الحبشة، وهو نصراني، قـال رسول الله لأصحابه: اخروجوا فصلوا على أخ لكم قد مات. قالوا: ومن هو؟ قال: النجاشي.. ثم صلى النبي وكبر أربـع تكبيرات، واستغفر للنجاشي، وقال لأصحابه: استغفروا لـه. فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلي على حبشي نصراني لم يره قط، وليس على دينه! فأنزل الله آية: ﴿ **وإن من أهـل الكِتَابِ لمن يؤْمِن بِاللهِ وما أُنْزِلَ إِلَيكُم ومـا أُنْـزِلَ إِلَـيهِم خَاشِعِين للهِ لاَ يشْتَرون بِآياتِ اللهِ ثَمنًا قَلِـيلاً أُولَئِـك لَهـم أَجرهم عِنْد ربهم**﴾ - آل عمران ١٩٩.

ولا بد أن النبي قد تذكر ساعتئذٍ ما كان أتباعـه يعانونـه على يد قريش من محنة وبلاء في مكة، حتـى فكـر فـي إرسالهم إلى الحبشة، "فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهـي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيـه" وقـد أرسلت قريش في أعقابهم وفدا إلـى النجاشـي كـي يسـلم المهاجرين إليه، وبعثت معه الهدايا الكثيرة إلـى النجاشـي والبطارقة حتى يعملوا بما يريد. غيـر أن النجاشـي أبـى غاضبا أن يرد المهاجرين المسلمين إلى بلادهـم وقـومهم،

وقال لوفد قريش: "والله لا أسلمهم إليكم! هو قوم جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، وإن هذا الـذي أتى به محمد والذي جاء به يسوع المسيح ليخرج من مشكاة واحدة، خذوا هداياكم؛ فلا حاجة لي بها. فوالله مـا أخـذ الله مني الرشوة حين ثبت لي ملكي، فآخذ الرشوة فيه" ثم التفـت إلى أصحاب النبي قائلاً: اذهبوا فأنتم آمنون بأرضـي. مـن سبكم غَرم! من سبكم غرم! من سبكم غرم!

***

ولإيضاح هذا الموقف النبيل الذي وقفه كل من نجاشـي الحبشة من أصحاب رسول الله، ورسول الله مـن نجاشـي الحبشة، نقول:

إن الإسلام دين الله، وهو لم يظهر خلال القـرن السـابع الميلادي كما يظن البعض، وإنما منذ بدء الخليقة؛ ذلك أنـه حين خلق الله الكون، قضى بأن تعمل قوى الطبيعـة وفـق أنماط وقوانين شرعها لها. ولم يكن ثمة بد من إطاعة هـذه القوى لتلك القوانين إلى أبد الآبدين. هذه الأنماط والقـوانين الطبيعية هي آيات الخالق. وبوسع كل من له عقل يفكـر أن يفهم منها - متى تأملها - حكمة الله وعزته.

كذلك فإنه حين خلق الله الإنسان، وضع للحيـاة البشـرية نمطا وقوانين ينبغي على الإنسان إطاعتهـا والحيـاة علـى هديها؛ فقد شرع الله منذ البداية قواعد السلوك الواجب علـى المرء الالتزام بها تجاه خالقه، وتجاه الناس من حوله، ورسم له المبادئ كي تحكم تصرفاته، وسلوكه الفردي والاجتماعي. ومع أن الإنسان ليس إلا ظاهرة أخرى من ظواهر الطبيعة، فهو يختلف عن سائر المخلوقات في أنه حر وذو وعي بذاته. ورغم أن الله حدد له – كما حدد لسائر المخلوقات – الطريق الأمثل للتصرف والسلوك، فإن الإنسان وحده هو الذي وهب القدرة على الاختيار بين انتهاج هذا الطريق وبـين الحيـدة عنه، فهنا – إذن - خير أبدي، لكن الإنسان حر في تبنيه أو عدم تبنيه. وهي مسئولية جسيمة أشارت إليها الآية ٧٢ مـن سورة الأحزاب إذ تقول: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منهـا وحملهـا الإنسان، إن كان ظلوما جهولا﴾.

عرض الله إذن الأمانة (أي حق الاختيار) على السماوات (القوى الروحية) وعلى الأرض والجبال (عـالم الطبيعـة)، فأحجمت في فزع عن تحمل المسئولية عـن حريتهـا. أمـا

الإنسان فقد قبلها وقبل معها فكرة حريته في أن ينظم شئونه وفق النمط الذي أراده الله له، أو وفق غيره. فإن كان علـى النجوم أن تسير بدقة في مدارها حسبما شاء الخالق لها، فإن الإنسان حر في انتهاجه الصراط المستقيم أو انتهاج غيره.

ويكمن خطر هذه الحرية فيما يتهدد المجتمع البشري من التحلل والفوضى متى كان اختيار الإنسان غير سليم. كـذلك فإن الله قد وعد أولئك الذين يسيرون على الصراط المسـتقيم الجنة، وأعد لغيرهم عذاب النـار ولـم يشـأ الله أن يتـرك البشرية دون هداية بصدد الطريقة المثلى للحياة والسلوك. فقد أطلع الإنسان منذ البداية على قانونه الذي استنه له، وحدد له ما يجب أن يفعله وما يجب أن يتجنب فعله. وبذا فقـد بـدأ التاريخ البشري والإنسان يدري ماهية الخير والشر، غير أنه بمرور الوقت ضل وتعثر. وأهمل الناس أو نسوا أو حرفـوا الرسالة حتى نسيت البشرية كل ما يتعلق بالشـرع الإلهـي. فهجران الناس للطريق السوي لم يصدر – إذن - عن مجرد عصيان لإرادة الله، وإنما عن جهل وتخبط وحيرة. وشـاءت رحمة ربك أن يبعث برسول يشرح الرسـالة مـن جديـد، وليفصح عن نفس المعاني القديمة للقانون الأزلي.. غيـر أن

الناس بمرور الوقت أهملوها من جديد، ومنهم من حرفهـا، حتى نسيتها الكافة.. وتكررت الظاهرة عدة مرات في عـدة أقطار. غير أنه بالرغم من تعدد الرسل، كانت الرسالة دوما واحدة. وقد حفظ القرآن لنا أسماء بعض هؤلاء الرسل، ومن بينهم موسى وعيسى. فأما رسالة موسى فقد أطاعها قوما ثم وقع بعضهم بعد ذلك في خطئين: الأول: أنهم حرفوا الكتاب المقدس، والثاني: أنهم توهموا أن الرسـالة الموجهـة إلـى العالمين موجهة إلى قومهم فحسب، لا إلى البشرية قاطبة.

لذلك أرسل الله عيسى بن مريم حتى يعود بالنـاس إلـى الطريق الحق. وقد فهم أتباعه من النصارى جيدا أن البشرية جمعاء هي المقصودة بالرسالة. غير أن القرآن أشار إلى أن بعضهم أخطأ إذ ركز اهتمامه علـى عيسـى دون فحـوى الرسالة، وأكد جانب تقوى الفرد دون ضرورة السـعي وراء إقامة عدالة اجتماعية في المجتمع البشـري. وهكـذا عـاد الإسلام الذي كان قائما منذ الأزل ليظهر من جديد في القرن السابع الميلادي، وليوضح الرسالة الأبديـة مـرة أخـرى.. وعلينا أن نتذكر دائما هذه الحقيقة: أن المسلمين ليسوا فقـط من قبلوا رسالة محمد ﷺ عند تبليغه إياها أو بعد ذلك، وإنما

هم مسلمون أيضا أولئك الذي قبلوا أيا من رسالات الأنبيـاء قبل محمد، وعملوا بما أوصت به، وآمنوا بالله واليوم الآخر وبما أنزل إليهم، وكانوا في علاقتهم بالله والنـاس خاشـعين صالحين، ولم يشتروا بآيات الله ثمنا قليلا (أي لم يحيدوا عن تعاليم الرسالة في سبيل كسب دنيوي)، ولـم يـدعوا هـذه الرسالة تندرج في طي النسيان.

وهذا هو سر إيواء النجاشي النصـراني لمسـلمي مكـة وإكرامه لهم، وهو السر فـي أن محمـدا ﷺ صـلى علـى النجاشي المسيحي، ودعا المسلمين إلى الصلاة عليـه. وقـد أخطأ المنافقون خطأ فاحشا؛ إذ قالوا: إن النجاشـي، وهـو الرجل الصالح، ليس على دين الإسلام، وكان خطؤهم أفـدح إذ استنكروا الصلاة عليه، والاستغفار له، واعتبار النبي إياه أخا له ولسائر المسلمين. وجاءت الآية ٦٢ من سورة البقرة تؤكد أن النصارى واليهود والصابئين المؤمنين الصالحين ﴿ **لَهم أَجرهم عِنْد ربهم ولاَ خَوفٌ علَيهم ولاَ هم يحزنُون**﴾.

***

ثم لننظر بعد ذلك في مفهوم العدالة فـي معاملـة أهـل الكتاب من اليهود والنصارى الوارد في القرآن والسنة:

فقد ذُكر أن مسلما من الأنصار يدعى طُعمة، سرق درعا من جار له، ومضى به إلى يهودي يطلب منه الاحتفاظ بهـا عنده، ولم يخبره بأنها مسروقة. ثم افتضح الأمـر وكـادت التهمة تثبت ضد طعمة الأنصاري. فأسرع قومه إلى رسول الله يتوسلون إليه أن يدافع ويجادل عن طُعمة، وأن يلصـق التهمة باليهودي. فقام النبي (وكان هواه مع قوم طعمة) فبرأه وعذره على رءوس الناس. فإذا هو وقد نزلت عليه الآيتان: ﴿**إنا أَنْزلْنَا إِليكَ الْكِتَاب بِالْحق لِتَحكُم بين الناس بِمـا أَراك اللهُ ولاَ تَكُن للْخَائِنين خَصِـيما. واسـتَغْفِر اللهِ إِن اللهَ كـان غَفُورا رحِيما**﴾ - سورة النساء ١٠٥ و ١٠٦ ومعناهما: إنا أنزلنا إليك القرآن يا محمد لتقضي بين الناس بما أراك ربك من الحق، فلا تدافع عن الخائنين، واسـتغفر الله، وسـله أن يصفح عنك إذ جادلت عن هذا الأنصاري اللص.

أبان الله لرسوله وللمؤمنين - إذن - أنه لا يجوز لأحد أن يدافع عن أحد إلا بعد أن يتيقن من أنه على حق، أو أن يدفعه الهوى أو المصلحة الظاهرة إلى الانحياز إلـى طـرف دون طرف في أي نزاع. كما بين أن لليهود والنصارى مثل مـا للمسلمين من حق في عدل الحـاكم أو القاضـي أو الفـرد

العادي، وأنه على الناظر في أية قضية أو خصومة أن يقـع في نفسه الميل إلى محاباة أحـد أطرافهـا نتيجـة توافـق المصالح، أو الانتماء إلى نفـس الجماعـة أو الملـة، أو أي اعتبار من الاعتبارات.

فهنا مفهوم عن العدالة لم يكن مألوفا لـدى العـرب فـي الجاهلية أو في بداية الدعوة الإسلامية حـين كـان النـاس يعتبرون قولة "انصر أخاك ظالما أو مظلوما" عين الحكمـة، ونصيحة واجبة الاتباع.. لم يكونوا يرون في القتل أو السرقة جريمة إن كان القتيل أو المسروق منه من غير قبيلتهم، ولا كان المسلمون في السنين الأولى من الدعوة يرون في إهدار حقوق أهل الملل الأخرى غير ملتهم خرقا للمفهـوم الإلهـي عن العدالة، حتى نزلت هاتان الآيتان فأوضحتا أن عـدل الله يسع الكافة، بغض النظر عن دين المـرء وانتماءاتـه، وأن الجاني – وإن كان مسلما – علـى الحـاكم أو القاضـي أن ينتصف منه، والمجني عليه – وإن كان غير مسلم – ينبغـي على الحاكم أو القاضي أن ينتصف له.

وقد كان لا بد من مرور بعض الوقـت حتـى يتشـرب المسلمون الأوائل هذه المفاهيم الجديدة، وحتى يتركوا الـنهج

الذي سار عليه آباؤهم لعدة قرون سابقة. غير أن أفرادا من المقربين إلى رسول الله سرعان ما تخلقوا بأخلاقه، وتفهموا مقاصد الدين الجديد وغاياته. وكان من أبـرزهم الفـاروق عمر، الذي يروى عنه أنه قال لأحد المتخاصـمين عنـده، (وكان عمر يبغضه ولا يرتاح إليه): والله لا يحبك قلبي أبدا! قال الرجل: فهل يمنعني ذلك من عـدلك؟ قـال: لا. قـال: فلا بأس إذن؛ إنما يأسف على الحب النساء!

***

بل إن مفهوم العدل في القرآن يمتد حتى يشمل الـوثنيين أنفسهم! ففي الواحدي أن آية ٥٨ من سورة النساء ﴿**إن اللهَ يأمركُم أَن تُؤَدوا الأمانَاتِ إِلى أَهلِها وإذَا حكَمتُم بين الناس أَن تَحكُموا بِالْعدل** ...﴾ نزلت في عثمان بن طلحـة سـادن الكعبة. ذلك أن النبي حين دخل مكة يوم الفتح، أغلق عثمان باب الكعبة (وكان لا يزال على شركه) وصعد السطح، وأبى أن يعطي النبي المفتاح. فصعد إليه علي بن أبـي طالـب، ولوى يده، وأخذ من المفتاح عنوة. وإذ أنزل الله تعالى هـذه الآية، أمر رسول الله عليا أن يرد المفتاح إلى عثمـان بـن طلحة ويعتذر إليه عما بدر منه، فلما فعل علي ذلك قال لـه

عثمان: آذيت ثم جئت ترفق؟! فقال علي: لقد أنزل الله قرآنا فيك. وقرأ عليه الآية، فقال عثمان: أشهد أن محمدا رسول الله، وأسلم.

فهنا مثل واضح لأسلوب النبي في الدعوة ونشر الإسلام يذكرنا بخرافة لافونتين عن الريح والشمس اللتين تراهنتا أيهما أقدر على أن يجرد رجلا في أحد الحقول من عباءة يلبسها. فأما الريح فهبت تحاصره وتشدد من هجومها، فإذا الرجل يزيد من تشبثه بالعباءة وإحكام قبضته عليها. وأما الشمس فقد طلعت في هدوء وثقة إلى كبد السماء، تبث حرارتها، حتى رأى الرجل من المناسب أن يخلع العباءة من تلقاء ذاته ويلقي بها جانبا!

وقد كان عنف علي بن أبي طالب كفيلا بأن يزيد من عداء عثمان بن طلحة للإسلام؛ إذ يسلب عنوة حقه في السدانة، لولا تدخل رسول الله ورده الأمانة إليه وأمره عليا أن يعتذر عن تصرفه العنيف معه. وكتب السيرة مليئة بالمواقف التي حقق فيها الرسول بسماحته وحلمه ما لم يحققه السيف والعنف، والغلاظة والفظاظة. ﴿**وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**...﴾

***

ومع هذا، فها نحن نشاهد بيننا من الغلاة والمتطرفين من يظنون أنهم تأدبوا بآداب القرآن والسيرة، ويحسـبون أنهـم اتخذوا من النبي أسوة ومثلا يقتدى، في حين يشـهد حـالهم وسلوكهم مع إخوانهم في الدين، ومع إخـوانهم مـن أهـل الكتاب، بأن المسلم كلما ازداد فظاظة وكراهة لمخالفيه فـي الرأي أو الملة كان أقرب إلى الله تعـالى، وأنـه بإحراقـه للكنائس واعتدائه على النصارى وممتلكاتهم قد بات أدنى إلى الإيمان الحق!

لقد كان القديس فرنسيس داسيسي يحض أتباعه دائما على أن يعكس مسلكهم وعلاقاتهم بالناس أثر العقيدة في نفوسـهم وأخلاقهم. وكان من رأيه أن هذا هو خير طريق إلى اجتذاب الناس إلى الدين والمسيحية السمحاء؛ إذ من المؤكـد أنهـم سيتساءلون عما عساه قد هذب علـى هـذا النحـو خلقهـم وطباعهم ومعاملتهم، حتى إذا ما عرفوه مالوا إلى اختبـاره بأنفسهم.

والذي نعلمه أيضا أن الإسلام إنما انتشر ووطد دعائمـه في أنحاء عديدة من أفريقيا السوداء وجنوب شرقي آسـيا، لا

بالعنف والقهر، ولا حتى بالتبشير والدعوة، وإنما بفضل خلق التجار المسلمين الوافدين إلى تلك المناطق للتجارة، وأمانتهم ودماثة طبعهم ووقارهم، مما دفع الناس إلى سـؤالهم عـن تعاليم دينهم، ثم اعتناق هذا الدين الذي كان له الفضل الأكبر في غرس هذه الفضائل.

فإن كان مسلمو هذا الزمان مؤمنين حقا، فمـا بـالهم لا ينتهجون طريق هؤلاء؟ طريق القديس فرانسيس، أو طريـق التجار المسلمين فيما مضى، أو طريق رسول ﷺ الذي كـان يستشير أصحابه في بعض المواقف بشأن مشرك أو منـافق، فيوصي بعضهم بقتله، وبعضهم بإخراجه من المدينة، فيهدئ النبي من غلوائهم، ويتبسم قائلا:

- بل نترفق به ونحسن إليه.

موقف البدو من دولة الإسلام

﴿ قَالَتِ الأعراب آمنا قُل لم تُؤْمِنُوا ولَكِن قُولُوا أَسـلَمنَا ولمـا يـدخُل الإيمان فِي قُلُوبِكُم ﴾

سورة الحجرات١٤

كان تقبل العرب لتعاليم الإسلام في حياة الرسول ﷺ على ثلاث مراتب:

الفريق الأول: وهو ذلك الذي تقبل جوهر التعاليم وروحها تقبلا داخليا تاما، وبكل إخلاص وإيمان، ومنه تكونت فيمـا بعد نواة النظام الديني. وقد كان هذا الفريق بطبيعـة الحـال صغيرا في بداية الدعوة، إلا أنه كبر ونما نموا مطردا بنمـو حجم الجماعة.

والفريق الثاني: وأبرز ممثليه أولئك الذين تأخر اعتناقهم للإسلام من أهل مكة (خاصة من بني أمية)، فجاء ولاؤهـم للإسلام ولاء شكليا، وقبولهم لتعاليمه وواجباتـه دون تمثـل روجه. وإنما كان اعتناقهم للإسلام عن ابتغـاء لمـا يجنيـه الانتماء إلى الجماعة الجديدة من مكاسب. وقد كانت وجهـة نظر هؤلاء أن فروض الإسلام وشـعائره تُلائِـم مـزاجهم

التجاري إلى حد كبير، ولا تتطلب منهم سوى اليسير من الوقت والمال، في حين يخلي لهم حق التمتع بما بقي من هذين ليحققوا مصالحهم ومآربهم. وكان للإسلام في نظر هؤلاء التجار من أهل مكة فضل آخر، هو ذلك الحزم الأكيد الذي أخذ به الأعراب ممن كانوا مصدر تهديد دائب لقوافلهم التجارية.

والفريق الثالث: هو من هؤلاء البدو أو الأعراب الذين اضطرتهم الظروف اضطرارا إلى قبول دولة الإسلام ونظامها الجديد، بعد تهديدهم بمواجهة تمردهم وانحرافاتهم بعقوبات لم يتردد النبي ﷺ ولا الخلفاء من بعده في إيقاعها بهم. وقد ورد وصف هؤلاء في عدة آيات من القرآن الكريم (خاصة في سورة التوبة)، منها:

﴿ **الأعراب أَشَد كُفْرا ونِفَاقًا وأَجدر أَلا يعلَموا حدود ما أَنْزلَ اللهُ علَى رسولِهِ واللهُ علِيم حكِيم. ومِن الأعرابِ من يتخِذُ ما ينفِقُ مغْرما ويتَربص بِكُم الدوائِر علَيهم دائِرةُ السوءِ واللهُ سمِيع علِيم**﴾ التوبة ٩٧، ٩٨.

البدو والفتوحات الإسلامية

وقد كان هؤلاء البدو في جاهليتهم يتعيشـون - بصـفة أساسية كلما مستهم ضائقة أو أصاب القحـط مـوارد شـبه الجزيرة العربية الضئيلة أصلا - من شن الغـارات علـى جيرانهم من القبائل، ونهب القوافل التجارية المارة بمواطنهم في الصحراء. وكانت هذه الغارات بما ينجم عنها من خفض متجدد بصفة دورية لعدد الأفواه اللازم إطعامها، تمثل الحل الأوحد لمشكلة عجز موارد شبه الجزيرة عن إشباع حاجات سكانها. فلما جاء الإسلام الذي حرم على المسـلم سـفك دم المسلم، ووضع بذلك حدا لهذه الغارات في الأمـة الجديـدة، كان لا بد من إيجاد حل آخر لهـذه المشـكلة. وقـد أدرك الرسول ﷺ أن الاكتفاء بإخماد مقاومة البدو إنمـا يعنـي أن جيشه سيظل دوما في صراع مستميت عقيم مع قبائلهم، وأنه لا بد من وسيلة ترفع الأعراب في إسـلامهم إلـى إحـدى المرتبتين الأوليين، أي أن توفر لهم من الظروف ما يرفعهم - على الأقل – إلى المرتبة التي تتفق عندها مصالح الإسلام مع مصالحهم الخاصة.

وقد هدأت المشكلة إلى حد كبير بإيفاد النبي السرايا إلـى غير المسلمين من اليهود ومن بقي على وثنيته من أهل شبه الجزيرة، ثم بقرار خليفتيه (أبي بكر وعمر) بإرسال الحملات إلى خارج بلاد العرب، بعد أن دان أهلها – كافة - بالإسلام ولم تعد ثمة حاجة إلى القيام بغزوات فيها. ومن ثم فقد كـان من بين أفضال الفتوحات الإسلامية الأولـى خـارج شـبه الجزيرة (في الشام وفارس ومصر وغيرهـا) إيجـاد بـديل ترضاه القبائل العربية للحروب فيما بينها، (وهو مـا حفـظ على الإسلام وحدته في بلاد العرب)، وضمان غنائم للبـدو أوفر مما كانت تدره عليهم حروبهم وغاراتهم على القوافـل، وتوفير الحل الناجع للمشكلة الاقتصادية في شبه الجزيـرة. ولا شك أيضا في أن تلك الفتوحات خدمت المآرب التجارية الطموحة للتجار من أهل مكة الذين كانت لهم – في معظـم الحالات – إمارة جيوش الفتح، وكذا ولاية الأمصار المفتوحة دون غيرهم، وقد كان سبيل الخلفاء الأول إلى تفادي ما يمكن أن يطرأ على صفوف أجناد المسلمين من شغب وصراعات، وإلى بث الحماس في قلوب الغزاة، تأكيد أن فرض الجهـاد يشمل الأقطار خارج شبه الجزيرة، وأنه من واجب المسلمين

العرب العمل على نشر الإسلام؛ حتى يعم غير العرب من الشعوب.

موقف البدو من السلطة السياسية

غير أن المصالح المادية لقبائل البدو والمكيين ظلت متضاربة رغم ما أحرزوه من انتصارات باهرة، وحققوه من فتوحات واسعة. فقد كانت قبائل البدو تطمح إلى أن تجعل من الأراضي المفتوحة مراعي لقطعانها من الإبل والمواشي، بينما رغب المكيون في استثمار مواردها طلبا لفوائدها التجارية، وأملا في توسيع نطاق نشاطهم التجاري الذي مارسوه في جاهليتهم، بالسيطرة على التبادل التجاري بين أنحاء إمبراطوريتهم الجديدة.. وقد أجبر المكيون من قادة الجيوش وولاة الأمصار رجال قبائل البدو على التخلي عن الأراضي الزراعية والمراعي التي غلبوا عليها، وعلى تركها في حوزة أبناء الأقطار المفتوحة؛ حتى يبقى البدو والعرب عامة جندا في جيوش تواصل الغزوات والفتوح؛ لضم المزيد من الأقطار، وتحقيق المزيد من الفوائد التجارية للمكيين.

لذلك فإنه لم يمض زمن طويل حتى أحس الأعراب بأنهم فقدوا حريتهم في الحركة والتنقل، وفي ممارسة النشاط

المحبب إليهم (وهو الرعي)، وبأنهم اضطروا إلى ممارسـة نمط من الحياة في الأمصار لم يألفوه، لمجرد خدمة مصـالح التجار المكيين الذين لم يدعوا فرصة إلا اغتنموها للاستفادة من تجارة العراق والشـام ومصـر، وتكـوين المؤسسـات التجارية الضخمة التي يعمل فيها العبيد والموالي. وقد بلـغ سخط رجال القبائل أوجه حين قـوى التجـار المكيـون - وغالبيتهم من الأمويين – نفوذهم السياسي في ظـل خلافـة عثمان بن عفان (وهو أموي)، وسيطروا سيطرة تامة علـى الموارد الاقتصادية في الإمبراطورية.

وقد تم قتل عثمان على أيدي رجال القبائـل السـاخطين المتمردين على الأوضاع السائدة، مما أثار حربا أهلية وقف فيها الأتقياء في جانب رجال القبائل بسبب سخطهم على تلك النزعة الدنيوية، وتلك المادية الطاغية اللتين اتخذتا من الدين الإسلامي مجرد ستار. وقد انبرى معاوية المكـي الأمـوي لمقاومة هؤلاء وحربهم. وسرعان ما تبين للأتقياء والفقهاء – خاصة بعد مصرع علي بن أبي طالب – أن النـزاع بـين المكيين والقبائل البدوية ليس نزاعا بـين الأسـس الدينيـة والأسس الدنيوية للوحدة، وإنما هو نزاع بين القوى القبليـة

المخربة، وبين الوحدة التي تخدم مصالح العرب كما يفهمهـا الأمويون. ومن ثم فقد انحاز فريق الفقهاء تدريجيا إلى جانب معاوية ضد ما تنطوي عليه القبلية من خطر الفوضى، حتى مع ما يتسم به المفهوم الأموي من صبغة دنيوية قوية.

الخوارج

وقد قوى من هذا المنحى لدى الفقهاء والأتقيـاء فهمهـم لحقيقة أمر الخوارج الذين انشقوا عن جيوش المسلمين فـي أواخر خلافة علي. فقد كان أفراد تلك الفرقة ينتمـون إلـى قبائل بدوية (خاصة قبيلة تميم من البدو الأقحاح الذين فطروا على عدم الانصياع للسلطان وكان لهم نصيب كبير في جميع الفتن التي نشبت في عهد الأمويين) فقد أنكرت تلك القبائـل ذلك التنظيم الدقيق الذي فرضته علـيهم الدولـة الإسـلامية الجديدة، وذلك الحد من الحرية البدويـة المطلقـة أو شـبه المطلقة؛ مما لم يعهدوه من قبل، وأحسـوا بضـيق - أيمـا ضيق- إذ يرون أنفسهم وقد عادوا بعد الغـزوات، لا إلـى الصحراء التي يعشقونها، وإنما إلى معسكرات أو مـدن لـم يألفوا الحياة فيها. وقد شعرت هذه القبائل البدويـة بحاجـة طاغية إلى العودة إلى الحياة في الصـحراء، وإلـى نمـط

الجماعة الصغيرة ذات العلائق الوثيقة بين أفرادها. غير أنه كان لا بد لهم الآن من إيجاد أساس من دين الإسـلام لهـذه الحاجة، وأن يوهموا أنفسهم أنهم في سعيهم إلى إشباعها إنما يحرصون على الالتزام بأحكام هذا الدين. فكان أن خرجـوا على السلطة ثقيلة الوطأة واتهموها بالكفر، وكان أن هجـروا المدن البغيضة إلى قلوبهم وأسموها دار حـرب، وكـان أن استأنفوا الغارات الجاهلية بغرض السلب والغنيمة وخالوا أنها جهاد، وكان أن ربطت أوثق الوشائج بين أفـراد جمـاعتهم الصغيرة وقالوا: إنهم أهل الجنة!

وقد بذل الخلفاء الأمويون الأول محاولة مخلصة للتوفيـق والتنسيق بين مصالح التجار المكيـين ومصـالح القبائـل، وتزيين مواصلة حروب الفتح في أعين البدو بما ينجم عنهـا من الأسلاب والغنائم. وقد تواصلت هذه الفتوحات العربيـة باسم الإسلام الذي رأى فيه الأمويون الوسيلة المثلى لتوحيـد صفوف العرب، وخدمة مصالح عرب شبه الجزيـرة كمـا فهموها.. غير أن تطاول أمد المقاومة العنيفة التي بدرت من الخوارج والقبائل في وجه الأمويين – خاصة في العـراق – حال دون نجاح الأمويين فـي مسـعاهم لمرضـاة البـدو،

فاضطروا في النهاية إلى تغيير سياستهم تغييرا جوهريا، واتجهوا بالإدارة وجهة المركزية، ولجئوا إلى العنف والقسوة في إخماد ثورات القبائل، ثم إلى إخراج البدو من صفوف الجيش في العراق.

البدو والشعوبية

أما الفقهاء ورجال الدين فقد كانوا – كافةً - في البداية من العرب. وكانوا تجاه الأمويين في حيرة شديدة؛ فتقواهم تحول دون تأييد الطابع الدنيوي لإسلام الأمويين؛ غير أن إدراكهم لما يعود من الخير والقوة على دولة العرب من جراء فتوحات الأمويين واسعة النطاق، وما قد يعود على هذه الدولة العربية القُحة تفكك وانحلال من جراء تطلعات البدو، وما في ثورات الخوارج والشيعة من شطط وغلو، جعل هؤلاء الفقهاء والمتدينين العرب يترددون في معارضة الدولة الأموية.

بيد أنه بمضي الوقت زادت أعداد من دخلوا في صفوف الفقهاء من فرس ومصريين وغيرهم، وقد كان من الطبعي أن يرفض هؤلاء الطابع العربي الذي أسبغه الأمويون على الإسلام، وأن يتمسكوا بتفسيره الأوسع والأشمل مما يتضمنه

حديث "لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وأن يؤكدوا أن الإسلام إنما جاء لشعوب الأرض كافة، عربيها وغير عربيها. وقد عكس هؤلاء الفقهاء - من غير العرب - ذلك السخط المرير الذي كان يشعر به غير العرب من شعوب الأقطار المفتوحة تجاه العنجهية العربية لدى الأمويين، واستئثار العرب دون سائر المسلمين بثمار الإمبراطورية. ومن ثم فقد كانت جهودهم الناجحة في الدعوة للإطاحة بالدولة الأموية بمثابة فصل حاسم بين الإسلام كدين، وبين مفهوم السيادة العربية.

لقد كان الخلفاء العباسيون هم أيضا من أصل عربي مكي. غير أنهم كانوا مدينين بوصولهم إلى السلطة للفرس والخراسانيين، ولجهود الفقهاء المسلمين من غير العرب، مدركين بوضوح لأهمية الدور الذي بات الآن للموالي في توجيه مصائر الدولة الجديدة؛ لذلك جعل الخلفاء العباسيون التعاون مع هؤلاء ركنًا ركينا في سياستهم، فزاد تقلد غير العرب للوظائف الإدارية، وأُحيِيتْ التقاليد الفارسية القديمة في مراسم البلاط وفي شئون الإدارة، وأصبح جيش الدولة النظامي مؤلفا بصفة أساسية من الخراسانيين، ثم من الترك،

دون العرب، مما أراح الخلافة من وطأة العصـبية القبليـة العربية، ومن متاعب الخوارج وقلاقل البدو.

وبالتالي فإنه يمكن القول بأنه وإن كان العباسيون قد جنوا ثمار المعارضة القبلية والبدوية العربية للدولة الأموية، فإنهم لم يسمحوا قط لتلك القبائل البدويـة بنيـل أغراضـها، ولا استخدمتهم دولتُهم في أعمالها، بل وانتهجـت تلـك الدولـة حيالهم نفس السياسة المعادية التي انتهجها الأمويون.

موقف المسلمين العرب من الحضارة الأوروبية

(١)

خلف لنا الأمير أسامة بن منقذ (١٠٩٥ – ١١٨٨ م) في "كتاب الاعتبار" والشيخ عبد الرحمن الجبرتي (١٧٥٦ – ١٨٢٥م) في كتابه "عجائب الآثار" صورتين بالغتي الأهمية والطرافة لحدثين تاريخيين بارزين عاصراهما. وقد جمع بين الحدثين أنهما يمثل عدوانيين أوروبيين مفاجئين على الشرق، وأن العدوانيين فتحا عيون كل من أهل الشرق وأهل الغرب على حد سواء على أوضاع غير مألوفة ألبتة في حياة الطرف الآخر. غير أن القرون السبعة التي تفصل بين الحدثين كانت قد شهدت من التطورات الهائلة - هنا وهناك- ما جعل الصورتين تختلفان اختلافا جوهريا في خلفيتيهما الحضارتين.

فأما ما شهده الأمير الشاعر، فالشطر الأول من الحروب الصليبية في الشام. وبالرغم من أن الشعوب الإسلامية في وقته كانت قد أنهكت نظمها السياسية الفُرقةُ، واستنزفت

طاقاتها الحروب فيما بينها، فقد ظلت نظمها الحضارية أرقى في مجالات شتى من النظم الحضارية في الغـرب. وكـان بوسع أسامة أن ينظر إلى الغزاة الأوروبيين نظرة استعلاء، وأن يصفَهم بأنهم "بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل"، وأن يقول: إن "كل من هو قريب العهد (منهم) بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقـا مـن الذين عاشروا المسلمين"، "ليس عندهم شـيء مـن النخـوة والغيرة" وأن "طبهم ساذج جاهل بالمقارنة مع الطب العربي" و "محاكماتهم غبية غريبة" وهو مع ذلـك يـدعو الفرسـان الداوية "بأصدقائي" ونسمع صديقا إفرنجيا له يدعوه "بـأخي" ويرجو أسامة أن يسمح لابنه (مرهف) بأن يرافقه إلى بلاده "يبصر الفرسان ويتعلم العقل والفروسية، وإذا رجع كان مثل رجل عاقل" فيتعجب أسامة من غباء الرجل وكلامه الذي "ما يخرج من رأس عاقل"، "فإن ابني لو أسر ما بلغ به الأسـر أكثر من رواحه إلى بلاد الإفرنج!".

وأما ما شهده الشيخ المؤرخ الجبرتي فسـنوات الحملـة الفرنسية على مصر التي وصـفها بأنهـا "سـنو الملاحـم العظيمة، والحوادث الجسيمة، والوقائع النازلـة، والنـوازل

الهائلة، وتضاعف الشرور، وترادف الأمور، وتوالي المحن، واختلاف الزمن، وانعكاس المطبوع، وانقـلاب الموضـوع" وهو نظرته إلى الإفرنج وعاداتهم ليس أقل وقارا من أسامة، وليس بأخف حدة في استنكاره لبعض مظاهر سلوكهم. غير أننا نتبين مع هذا اختلاف كبيرا بين موقفيهما.. إن كـل مـا يستنكره الجبرتي من الفرنسيين هو ناجم فـي رأيـه عـن "كفرهم"، وعن أنهم ليسوا من أهل الدين الحق، بينمـا يجـد وقاره حيالهم سندا له في إيمانه بأنه من أهل هذا الدين. أمـا أسامة، فهو وإن نعت الإفرنج بالكفرة، واستنزل عليهم لعنـة الله، فإن وقاره إزاءهم منبثق إلى حد كبير عن تفوق حضارة قومه.. كان بوسع الجبرتي أن يحتقر إقبال الفرنسيين علـى شرب الخمر، وأن يستنكر سفور نسائهم وقلة حيائهن.

غير أنه لم يعد بالوسع أن يصفهم بالبهائم، أو أن يقـول إن محاكماتهم غبية وطبهم ساذج. بل أصبح إذا رأى سـلعة مصرية جيدة الصنع، يقول: إن من يشاهدها لا يشك في أنها من صنع الإفرنج، وأن من يذهب إلى بلادهم "تهذبت أخلاقه بما اطلع عليه من عمارة بلادهم، وحسن سياسة أحكـامهم، وكثرة أموالهم، ورفاهيتهم وصنائعهم، وعدلهم في رعيـتهم

مع كفرهم" ... لقد شهدت القرون السبعة انقلابا في الأوضاع وتغيرا في الموازين. وعاد الإفرنج الذين بهرهم في عصر أسامة ما أنجزته حضارة الإسلام، واقتبسوا منها ما رأوه جديرا بالاقتباس، عادوا بعد تلك القرون السبعة إلى الشرق، ناظرين إلى أهله نظرة علماء الأنثروبولوجيا إلى قبائل البدائيين.

(٢)

كانت الانتصارات الحربية والسياسية التي حققها الإسلام في حقبه التاريخية الأولى قد غرست في نفوس الشعوب الإسلامية شعورا من الاطمئنان والرضا عن النفس، لم تر معها حاجة إلى تقليد ما ابتدعه الغرب منذ بداية عصر نهضته من أسلحة وأدوات ونظم وأفكار، كوسيلة للتصدي لهذا الغرب ذاته. وقد كانت ذكرى هذه الانتصارات الإسلامية هي أيضا مما جعل الغرب يتردد طويلا في شأن الانتقال من طور الدفاع إلى طور الهجوم، خشية أن تتكرر هزائمه في الحروب الصليبية المتتالية. غير أنه ما إن أحرز الغرب انتصاره الحاسم عام ١٦٨٣ على الأتراك العثمانيين المهاجمين عند فيينا، حتى بدأ يدرك حقيقة ضعف خصمه،

ويتطلع إلى الهجوم المضاد. غير أن هذا الهجـوم المضـاد تأخر قرابة قرن من الزمان لعدة أسباب؛ منها: انشغال الدول الأوروبية بتأسيس مستعمرات لها في كل من آسـيا والعـالم الجديد. فما حل عام ١٧٦٨ حتى اشتعلت نيـران الحـرب الروسية التركية التي توالت خلال سنواتها السـت الهـزائم الساحقة على العثمانيين، وبحلول عام ١٧٩٨ كانت الحملـة الفرنسية على مصر، ثم توالت بعد ذلك هجمات الأوروبيين على العالم الإسلامي التي أسفرت عن وقوع جل أقطاره في براثن الاستعمار الغربي.

وقد أزعج المسلمين ما منُوا به مـن هـزائم علـى يـد مخالفيهم في الدين. وكان أن بدأت ثقتهم بأنفسهم تهتز. بل إن الاعتزاز بالدين نفسه سرعان ما تـأثر هـو أيضـا لـدى الكثيرين. ذلك أنه كان منهم من تأثرت نظرته إلى دينـه إذ يرى تفوق المسيحيين الغـربيين فـي مضـماري السـلاح والحضارة، وهو ما استمر حتـى بعـد أن نالـت الأقطـار الإسلامية استقلالها. وكان منهم من لم يفهم الهزيمة الحربية على معناها الدنيوي، وإنما عجب لمـا أصـابه مـن مذلـة والقرآن يقول: "وكان حقا علينا نصر المؤمنين".. ومع ذلـك

فإنه مما يسر لغالبية المسلمين بعد ذلك الإذعـان لمختلـف مظاهر الحضارة الغربية أمران: الأول: اتخـاذ الحضـارة الغربية لنفسها إطارا دنيويا بحتا، وإغفال المستعمرين اعتبار الدين بحيث لم يبد الأمر في صورة استعباد أهل ملة معينـة لأهل ملة أخرى، والثاني: تصديق الغالبيـة فـي الأقطـار المفتوحة لادعاء الغرب أن حضارته إنما هي حضارة كاملة دائمة، وأن الصورة الدنيوية لها بعد تحررها من ربقة الدين هي الصورة النهائية الناضجة للحضارة بوجه عـام، وهـي صورة لا يمكن أن يعتورها تدهور أو يصيبها فساد، بل ومن المحتم أن تقود الإنسانية إلى الطريق نحو الوحدة الاجتماعية.

وقد أحدث اتصال العرب الوثيق بالمدنية الغربية، وغزو هذه المدنية لبلادهم - أثرا عميقـا فـي طبقـة المسـلمين المستنيرين، وفي علاقة أفرادها بما توارثته مـن نظريـات وتقاليد دينية؛ إذ شعروا بحاجة شديدة ملحة إلـى التقريـب والملاءمة بين هذه النظريات والتقاليد بين الأحوال الجديـدة التي وجدوا أنفسهم فجأة في ظلها. وقد كان من المؤسف حقا أن تجيء جهود هؤلاء الساعية إلى التوفيق بين الحياة والفكر الإسلاميين وبين مطالب الحضارة الغربية في الوقت الـذي

تزعزت فيه ثقتهم بتـراثهم بـل وبـدينهم، ونظـروا إلـى المستعمرين نظرتهم إلى أنصاف الآلهة. فلم يكن من الغريب إذن أن تغلب على محاولاتهم نزعة عقلية هي نزعة أوروبية محضة، وأن تتأثر أفكارهم بالتيارات الفكرية السـائدة فـي المدنية الغربية، وأن يتبنوا قيما - كُلها أو جلها - مـن قـيم الغربيين المستعمرين. فإن كان هؤلاء المفكرون قد انبـروا للدفاع عن الإسلام والإشادة به لصد الحملات التـي شـنها المسيحيون للطعن فيه؛ حتى لا يقف حائلا دون غزو مدنيتهم (وبضائعهم)، فإنما تركز دفاعهم على إزالة وصمة مناقضـة تعاليمه للحضارة، وإثبـات مرونـة الأحكـام والأوضـاع الإسلامية، وسهولة تشكلها حتى تطـابق حاجـات الجـنس البشري في كل زمان ومكان.. وقد اكتشف هؤلاء شبها قويا بين الإسلام "الحق" وقيم السلف الصالح، وبين القيم الغربيـة الحديثة. فالإسلام يخاطب العقل، بدليل أنه لـم تكـن لنبيـه معجزة غير القرآن. وقد أبطل عمر قطع يد السـارق عـام الرمادة. والقراءة المتعمقة للقرآن تهدينا إلى أنه فـي حقيقـة الأمر غير مرحب بتعدد الزوجات. وقـد أوصـى الإسـلام بالمساواة بين الجنسين، وحرر المرأة، وجعل الناس سواسية

كأسنان المشط، فأذاب الفوارق بين الفقراء والأغنياء.. وقد كان منهم من أنكر ضرورة الجهاد في زماننا هذا وأسقطه من الفرائض، وكان منهم من دعا إلى السلم والتسامح ونهى عن التعصب، ومنهم من جد في أن يبعث الميل إلى العلم والثقافة، والعناية بالتربية والتعليم، وتحرير المرأة، والاهتمام بالصحة، وكان أذكاهم من دعا إلى التفرقة بين معالم الإسلام الأصلية وبين الزيادات التاريخية التي أضيفت إليه عن طريق الإجماع، والتي يسهل التضحية بها في سبيل حاجات المدنية، ومقتضيات العمران، وذهب إلى أنه لا يقف بين المسلمين وبين النهضة غير حوائل زائفة في إمكانهم إزالتها بإصلاح نظام التعليم، وتطهير الإسلام مما علق به من شوائب عبر القرون، وإعادة صياغة العقيدة الدينية على ضوء الفكر الحديث، والعناية بدراسة العلوم الحديثة وتاريخ أوروبا للتوصل إلى معرفة سر تقدمها.

وهكذا أخذ من سموا بالمصلحين في كل البلاد الإسلامية يدعون دعواتٍ متشابهة، عمادها أن تأخذ شعوبها من المدنية الغربية ما يناسب، وأن يأخذوا من المدنية الإسلامية ما يناسب.. وكانت خلاصة رأيهم: "أن عقدة العقد في موقف

المسلمين اليوم هي التوفيق بين المدنية الغربيـة والمبـادئ الإسلامية. غير أن المسلمين لحسن الحظ ليسوا مخيرين بين التمسك بدينهم وبين اعتناق الحضارة الغربية. فمدنية الغرب غير مؤسسة على دين، وإنما على العلم والتجربة والاختبار، وهي - بالإضافة إلى هذا - محدودة بحدود المـادة. فلـيس هناك ما يمنع من أخذ المدنية الغربية المادية بعـد صـبغها صبغة روحانية إسلامية. والحق أن الاثنين ليسا متخاصـمين بطبيعتيهما، وإنما هما متخاصمان من سوء فهـم سـكانهما. وبالإمكان توثيق العلاقة الودية بينهما واستعانة كل منهما بما عند الآخر من مزايا. فخير للعالم الإسلامي اليوم أن يأخـذ من المدنية الغربية كل علمهـا وتجاربهـا فـي الصـناعة والزراعة والتجارة والطب والهندسة وسائر العلوم، من غير قيد ولا شرط، ثم يحتفظ مع ذلك بروحانيته التي يلون بها هذا العلم، فتجعله موجها لخير البشرية لا لغلو في كسب مـال، ولا لإفراد في نعيم، ولا للقوة والغلبة، ولكن للخيـر العـام. وهذا هو المبدأ الذي يضـيء للمسـلمين الطريـق، ويبـدد حيرتهم، ويحل الكثير من مشكلاتهم. فـدينهم الإسـلامي لا يمنعهم أي منع من ذلك، بل إن الإسلام حث على طلب العلم

ولو في الصين، ولا شيء يمنعهم من ذلـك إلـى تمسـكهم بالتقاليد الموروثة، وتقديسهم للعادات المألوفة، ودينهم بـراء من ذلك.. وإنما بزت أوروبا الشرق المسـلم فـي مضـمار الحضارة؛ لا لأنها مسيحية، وإنما لعنايتها بتطـوير العلـوم وإهمال المسلمين لها. وليس في الإقبال علـى التعلـيم مـن الغرب من بأس، ولا هو مدعاة للخجل، فإنما كان الفضل في نهضة العلوم في أوروبا راجعا إلى استفادتها من النقل عـن المسلمين الذين عنوا بالحفاظ على تراث الإغريق وتطـويره وتنميته".

هكذا كانت دعوة هؤلاء "المصلحين"، وهي دعوة أيـدها المستعمرون وأبهجتهم، خاصة إن صدرت عن رجال الـدين البارزين من أمثال الشيخ محمد عبده؛ إذ رأَوها في مجملهـا دعوة مقنعة إلى التغريب. والذي نتج عن هذه الدعوة هو ما كان متوقعا منها، فتحت الباب على مصراعيه أمام الاقتباس من مدنية الغرب دون حرج، في حين أغفل الشـطر الثـاني وكأنما لم يورده الدعاة إلا من قبيل التمويه والنفاق وتسـهيل الأمر.

فهنا - إذن - إحساس بتفوق الغرب، وإدراك لضـرورة الدفاع، واعتراف بصحة الأسس التي تقوم عليهـا حضـارة الدول الأوروبية تضمنته الإشارة على الشـبه بينهـا وبـين مبادئ الإسلام، وهـو أكثـر صـنوف الإطـراء والمـديح إخلاصا..

(٣)

فإن كان الطابع الدنيوي للحضارة الغربية رد فعل لأهوال الخلافات الدينية في العصور الوسطى، فقد كان من المحـتم أن تحدث في الغرب، إن عاجلا أو أجلا، حركة مضادة لهذا الطابع، وقد بدأت هذه الحركة المضادة في التبلور في الخفاء في الوقت الذي كان سائر العالم – ومنها الأقطار العربية – ينهل فيه من الحضارة الغربية نهلا، ويتخلـى عـن تراثـه الثقافي وعن تقاليده ودينه. وكانت المأساة المضحكة أنه فـي اللحظة التي تم فيها تبني الشعوب غير الغربيـة لحضـارة الغرب الدنيوية، وجدت هذه الشعوب نفسها قد وقعـت فـي شباك أزمة الغرب الروحية التي انتابته فجـأة فـي القـرن العشرين، والتي كان لها صداها في مختلف بقاع العالم. فمنذ نشوب الحرب العالمية الأولى، بدأ الغربيون أنفسهم يدركون

أن حضارتهم الدنيوية الحديثة ليست بالكاملة على الإطـلاق كما خالوها في البداية، وأنها أبعد ما تكون عن الحصانة ضد الانهيار وضد عنيف الأزمات. وقد كان الأمر فـي الواقـع مؤسفا بالنسبة للشعوب غير الغربية أكثر منه بالنسبة لشعوب الغرب. فقد وجدت الأولى نفسها معلقة بـين تـراث وديـن وتقاليد قد هجرتها وفقدت ثقتها فيها، وحضارة غربيـة لـم تملك بعد ناصيتها، ولم تكد تبلغ يدها الثمرة حتى بدت تلـك الثمرة معيبة فاسدة. وكان أن نتج عـن هـذا شـعور حـاد بالمرارة تجاه الغرب، وحدوث انفصام في المجتمـع وفـي نفوس الأفراد لما يلتئم.. صاروا كالغراب الذي مضى يـتعلم مشية الطاووس، فلم يتعلمها، ونسي مشيته.

وقد علمنا التاريخ أنه في المجتمعات التي تمـر بهـزات عنيفة، أو تطورات ضخمة متلاحقة، كثيرا ما تظهر جماعات دينية انعزالية تميل إلى أن تغلق الأبواب على نفسها في عالم خاص بها، وتقلل إلى أقصى حد ممكن من صلاتها وعلاقاتها ببقية العالم. وقد ظهر مثل هذه الجماعات بين كل من اليهود والمسيحيين والمسلمين، وربما بين غيرهم من أتباع الديانات الأخرى. فمن بين أبرز الأمثلة التاريخية على رفض التكيف

وفق الأحوال الجديدة، موقف الفريسيين اليهود من غير اليهود، إذ وضعوا القواعد المفصلة الصارمة التي تكفل تجنب كل صلة بمن هو ليس يهوديا، وذلك حين كانت الهيلينية تهدد بابتلاع الديانة اليهودية واستئصالها من الوجود. كذلك ظهرت في بقاع كثيرة من العالم المسيحي، خاصة منذ منتصف القرن التاسع عشر، جماعات (أشهرها جماعة شهود يهوه)، أفرادها من المسيحيين الأتقياء الذين وجدوا من الصعب أن يوفقوا بين الاكتشافات الحديثة في علوم الفلك والطبيعة والكيمياء والنظريات المتعلقة بتاريخ الأرض وظهور الحياة فيها، وبين مفهومهم التقليدي عن الكتاب المقدس. وكان أن وجهوا همهم الأكبر إلى تجنب الاتصال بالتيارات العلمية والفكرية التي سادت مجتمعهم، ورأوا أنه لا بد من أجل حماية عقيدتهم من عزلة صارمة وسط مجتمع لا بد أن تؤدي به ثقافته وأنماط عيشه إلى الكفر. وكانت النتيجة أن قبلت هذه الجماعات وضع الأقليات في مجتمع أفراده على نفس دينها في الظاهر على الأقل.

وقد كانت هذا هو ما حدث أيضا في العالم الإسلامي مع بداية الثلاثينيات من هذا القرن، حين بدأت تظهر جماعات

إسلامية دعوتها شديدة الاختلاف عـن دعـوة المصـلحين الإسلاميين من أتباع محمد عبده، بـل ورأت فـي هـؤلاء "المصلحين" شبها قويا بدعاة التغريب؛ إذ هم لم يطعنوا فـي قيم الغرب وإنما انتحلوها للإسلام، فلم يقدموا بفعلهـم هـذا بديلا حقيقيا لأمتهم. وقد ذهبت هذه الجماعات الجديدة، بـدءا بجماعة الإخوان المسلمين، إلى أن الإسلام بمفرده قادر على التصدي لكل تفاصيل مظاهر حياة الفرد والمجتمع دون حاجة إلى اقتباس من حضارات وأنظمة أجنبية. ومع ذلك، ورغـم هذا الإصرار منهم على شمولية الإسلام وتفرده، وتميز كـل نظمه ومفاهيمه عن كل النظم والمفاهيم الغربية، لم يفلحوا إلا في إبراز حفنة من النقاط والقضايا، ركزوا عليها وألحفوا في تكرارها إلى حد الإملال، دون أن يتجاوزوها إلى غيرها إلا في النادر، وأعني بهذه النقاط: موضوع الربا وفائدة البنوك. وسفور المرأة وتحديد النسل، والحدود، وكراهـة العلمانيـة والعقلانية، والنفور من استخدام سبل البحث العلمي والمنهج التاريخي في مجال الإسلاميات.

ثم عيب خطير آخر يتمثل في مفهوم أفراد هذه الجماعات عن المعرفة. فهي عنـد المجتمعـات المتسـمة بالحيويـة

والتحضر تعني استخدام المعروف في إماطـة اللثـام عـن المجهول. أما عند هؤلاء فهي لا تعني أكثـر مـن تجميـع المعلومات. والمعلومات في رأيهم ليست بالمتطورة، النسبية، القابلة للاتساع، وإنما هي ثابتة خالدة. وقد نجـم عـن هـذا المفهوم ثلاث عواقب:

الأولى: أن المعرفة عندهم لم تعد عنصرا ديناميكيا فـي الفكر، بل كتلة جامدة، مما أسهم في قهر كل نشاط فكري حر بدعوى مخالفته لأحكام السلف.

والثانية: أن اعتبار المعرفة دائرة مغلقة ثابتة يجعل مـن المحال اطراح شيء من المعارف المقبولة متى ثبت خطؤها أو عدم مسايرتها لأحوال العصر، ويجعل من الصعب تقبـل المعارف الجديدة ما لم تجد لها سندا في فكر الأقدمين.

والثالثة: أن صار سبيل اكتساب المعرفة هو تجميعها من كتب الأسلاف، أو الكتب الحديثة القائمة على كتب الأسلاف، لا التحليل والاستنباط والتجربة والفكر الحر. وكلها عواقـب خلقت عند غير المسلمين اقتناعا بأنه لا يمكـن للإسـلام أن يكون له مستقبل ما دام عاجزا عن مسايرة التطـور علـى ضوء الجديد من الأفكار والنظريات العلمية.

(٤)

لقد أصاب الأفغاني ومحمد عبده وأتباعهما في بيانهم لضرورة إعادة تفسير الإسلام تفسيرا يوائم احتياجات العصر الحديث والمجتمع المتغير. غير أن موقفهم الدفاعي والاعتذاري تجاه الحضارة الغربية حال دون تقديمهم لمثل هذا التفسير الشمولي، ومال بهم إلى الاقتصار في فكرهم على التصدي لقضية هنا وقضية هناك من القضايا التي تشغل الأذهان في الغرب، مثل الديمقراطية ووضع المرأة، وذلك من قبيل الرغبة في الرد على خصوم الإسلام في الغرب، أو الأخذ بمشورة الأصدقاء الناصحين في الغرب أيضا. وقد كان أنصار التيارات الإسلامية الجديدة على حق في انتقاداتهم للموقف "التغريبي" لدى هؤلاء المصلحين التوفيقيين؛ لما ينطوي عليه بالضرورة من إحساس بالنقص دفعهم إلى محاولة التبرير. غير أن أنصار هذه التيارات، باندفاعهم في الاتجاه المضاد، وقعوا في خطأ مماثل؛ إذ بينما ركز الأولون على نفي أن تكون فائدة البنوك من الربا المحرم، ونفي أن يكون الإسلام قد انتقص من حقوق المرأة، وحد من دورها الاجتماعي، والإصرار على أن الشورى

الإسلامية هي بعينها ديمقراطية الغرب السياسـية، وعلـى اهتمام الإسلام بالدعوة إلى تنمية العلوم وتحصيلها، أو بعبارة أخرى: بينما ركز الأولون على بيان اتفـاق الإسـلام مـع المقومات الإيجابية للحضارة الغربية، اتجهـت الجماعـات الإسلامية الجديدة إلى انتقاء قضايا محدودة للغايـة لإثبـات تميز الإسلام واختلافه عن المفاهيم والقيم الغربية، كضرورة عودة النساء إلى الحجاب، وضرورة تأسيس بنوك إسلامية لا فائدة فيها، وضرورة إقامة الحدود الشرعية كقطع يد السارق وجلد الزاني وشارب الخمر، والتفرقة فـي المعاملـة بـين المسلمين وأهل الذمة، أما فيما عدا هذا من مسائل اقتصـادية واجتماعية وسياسية بالغة الحيوية والأهمية، فلا يكاد يكـون ثمة علاج أو برنامج أو فكر، وهو ما يقودنا إلى نتيجة هامة: هي أن فكر الجماعات الإسلامية الجديدة ليس أقـل انشـغالا بالغرب من فكر المصلحين التوفيقيين، ولكن الأفغاني ومحمد عبده وتلامذتهما انشغلوا به على نحو إيجـابي، فـي حـين انشغلت به الجماعات الجديدة على نحو سلبي، وشبح الغرب عند هؤلاء وأولئك هو الشيخ الجاثم الرابض، مغـرٍ ومنفـر معا، يدعو إلى الإعجاب ويستثير الكراهية في آن واحد.

قلة قليلة فحسب من المفكرين الإسلاميين المحـدثين رأت الحل الأمثل في الإقدام على دراسة موضوعية هادئة للأفكار والنظم الغربية من أجل تحديد طبيعة الاسـتجابة الصـحية الواجب على المسلمين أن يتبنوها إزاء الضـغوط الغربيـة المختلفة على مجتمعهم. فإن كان في الحضارة الغربية مـن العناصر ما هو فاسد مفسد، فالكثير من الأفكار والنظريـات التي ورثناها عن أسلافنا المسلمين هو أيضا فاسد مفسد. وما لم نتصد بالدراسة لتراثنا وتقاليـدنا هـي الأخـرى بـنفس الموضوعية والهدوء والمعايير العلمية والحرص على تجنب الآراء التحكمية، فما من أمل يبقى في قدرتنا على مواجهـة التحديات المعاصرة. كما أنه ما لم نول اهتماما بمـا يمكـن للدين أن يحققه لخير الإنسان الاجتماعي والاقتصادي مماثلا لاهتمامنا بما يمكن للإنسان أن يفعله من أجل تمجيد الخالق، فما من أمل يبقى في قدرة الإنسان على حل المعضلات.

غير أنه حتى هذه القلة القليلة المتعلقة نراها اليـوم فـي انحسار. فتفاقم مشكلات المجتمع العربـي، وتعـاظم المـد الفكري والحضاري الغربي، يميلان بـالبعض إلـى هجـر الاعتدال وفقد الثقة بجدواه، والتعاطف مع التطرف باعتباره

السبيل العملي الأوحد إلى مواجهة الأخطار التي تهدد بابتلاع هويتنا، واستفظاع بهظ الثمن الاجتماعي والنفسي الذي لا بد من دفعه إن نحن أردنا اللحاق بركب الغرب فـي مضـمار التقدم، أضف إلى ذلك أن انتشار تأثير الجماعات الإسـلامية المتطرفة في صفوف الجماهير العريضة، وازديـاد فـرص استيلائها على الحكم، على نحو ما حدث في إيران، خـلال سنوات قلائل، دفعا بعض الانتهازيين مـن المفكـرين إلـى التضحية باستنارته، والتعبير عن تعاطفه واتفاقه في الـرأي مع فكر تلك الجماعات، من أجل ضمان الرضا والشعبية، أو الاستفادة المالية من حكومات دول عربية غنية تنفق بسـخاء على وسائل نشر ذلك الفكر. هذا إلى أن ميل السلفيين إلـى الدخول في تنظيمات تجمع شتاتهم، وتنسق خطـاهم، وميـل المجددين المستنيرين، شأن المصلحين التوفيقيين قبلهم، إلـى العمل فرادى، لا يصبرون على تنظيم، يزيد من فرص نيـل الأولين دون الآخرين لأغراضهم.

(٥)

ما من شك في أن مستقبل الأمة يتوقف بصـفة أساسـية على قدراتها على التوصل إلى مفهوم إيجابي يساعدها علـى

مواجهة التوترات الناجمة عن تغييرات هائلة طـرأت علـى المجتمع العربي في القرنين الماضيين، والتغلب على القـوى المخربة التي تدفع المجتمع دفعا إلى المزيـد مـن التفكـك والتحلل.

كذلك فإنه ما من شك عندي في أن كافة الحلـول التـي طرحت في مجتمعنا خلال المائـة سـنة الأخيـرة، معيبـة قاصرة:

فالمحافظون الرافضون لكل تجديد ولكل مساس بالأفكـار والمعتقدات الموروثة، قد فقدوا صلتهم بالعصر واحتياجاتهم، ولم تعد حججهم بالقادرة على إقناع المثقفـين، وهـي التـي يصوغونها دوما في قوالب فكرية شكلية تستند استنادا كاملا إلى أقوال السلف، مما لا يمكن أن يتجاوب المحدثون معـه. بل إنه حتى اللغة يستخدمونها توحي على الفور بخلو جعبتهم من رسالة لعصرنا الذي نعـيش فيـه. ففكـرهم تسـتغرقه التكاليف الشرعية. وما من أحد منهم حاول أن يوجه الإسلام في قنوات خلاقة، وإنما قيدوه بنظـرة رومانسـية دراميـة لتاريخه، أساسها انتفاء تحكمي للمادة، واستبعاد لكل ما ينقض الصورة التي يفضلون أن تكون الأحداث في الماضي قد تمت

عليها. وهم بهذا أغلقوا الباب في وجه أهم عامل كان بوسعه أن يحفظ على الفكر الإسلامي مرونته، ويحول دون تعفن العقائد، ألا وهو المنهج التاريخي العلمي الذي ابتدعه الغرب، والنظرة التاريخية إلى الأمور.

وأما المصلحون الإسلاميون التوفيقيون فموقفهم في جوهره مشابه كما قلنا لموقف دعاة التغريب العلمانيين، وبالتالي فإنهم لم يطرحوا بديلا حقيقيا للقيم الغربية. فإن كان دعاة التغريب قد أعلنوا أن "القيم الغربية هي القيم المثلى فلنتبناها"، فإن المصلحين التوفيقيين قد أعلنوا أن "القيم الغربية شبيهة بالقيم الإسلامية فلنتبناها"! وقد ظل هؤلاء دوما يلهثون في عدوهم وراء التغريبيين كي يبرروا كل جديد؛ ولكي يوجدوا الأسس الدينية لتبني المفاهيم الغربية. فإن كان العلمانيون قد نادوا بأن العلم والعقل هما مفتاحا التقدم والحضارة، فقد تركوا للمصلحين الإسلاميين مهمة إثبات أن الإسلام يقر هذا الموقف.

وأما عن دعاة التغريب والعلمانية، فإنهم مع كل تحمسهم للديمقراطية والمساواة وغيرهما من المفاهيم الغربية، لما يكن بوسعهم قط الادعاء بأنهم يعبرون عن إرادة الشعب، وإنما

أفصح لسان حالهم عن أنهم إنما يسعون للصالح العام باعتبارهم الصفوة، وأنهم أدرى من الشعب باحتياجات الشعب ومصلحته. فهم صفوة حسنة النية. غير أنهم دائما صفوة، مباينة للجماهير في عقائدها وطريقة تفكيرها. صحيح أن المفهوم العلماني والاتجاه إلى محاكاة الغربيين كانا قد انتشرا في صفوف الجماهير من جراء التعليم المدني، ووسائل الاتصال والإعلام المتزايدة، والتصنيع والحياة في المدن، وأنماط الاقتصاد وغيره، وأن تأثير الفرنجة إنما كان ضخما بقدر ما كان الفراغ في الساحة الفكرية العربية ضخما، غير أن الثابت الواضح الآن أن الولاء الأول لدى الجانب الأعظم من الجماهير في العالم العربي هو للإسلام دون غيره، وأن الفكر الإسلامي لا يزال به بعد أربعة عشر قرنا سلطان عليها تصعب زعزعته. وقد كان المسلمون الأوائل إبان ازدهار حضارتهم ينهلون نهلا من منابع الحضارات والثقافات غير الإسلامية، دون تحرج أو تحفظ أو حيرة أو قلق. فقد كانت الثقة بالنفس تعمر صدور هؤلاء وهم الفاتحون السادة. أما وقد وقع المسلمون في براثن استعمار الفرنجة، وباتوا يعانون من الهيمنة الاقتصادية

والسياسية للغرب على أقطارهم، فقـد فقـدوا هـذه الثقـة، وصاروا يرون في كل اقتباس مـن نظـم الفرنجـة مكيـدة للإسلام وفخا، واقتباسا معاديا للدين.

والواقع أنه لولا هذا الخلـل النفسـي، وهـذا الارتيـاب المرضى، وفقدان الثقة، لكان للإسلام المعاصر، في زعمنا، شأن آخر.

تقييم المسلمين للحروب الصليبية

بين التفريط والإفراط

المعروف عن الإنسان العربي اتجاهه إلى اتخاذ مواقـف عقلية متطرفة من الناس والعالم والأحداث حوله، وإلى النظر إلى كل ما يصادفه، وكل من يلقاه، بمنظـار لا يـرى مـن الألوان غير الأبيض الناصع، أو الأسود القاتم، دون الفروق الدقيقة في الأفكار والألوان والظلال، لا يعبر عن رأيـه إلا في صيغة منتهى التفضيل، ولا يرتاح خاطرة إلا أن تطرف في أحكامه.

وقد يرجع البعض هذا الميل إلى طبيعة الصحراء التـي تركت أثرا عميقا في شخصية العربي. ففي الصحراء يعقب الشتاء القارس الصيف القائظ، والليـل ذا النسـمة البـاردة المنعشة نهار خانق. والبدوي فيها يصادف بعد السفر الطويل المضني في أرض قاحلة جرداء، واحاتٍ وافـرة الخضـرة والمياه والظلال. وهو قد يلقى أثناء سيره بناقته التي تحمـل كل ما ملكت يداه عدوا يجرده من كل ثروتـه فـي دقـائق، فينتقل خلال هذه الدقائق من حال إلى حال. ثـم هـا هـي

الوديان الصخرية التي تظل معظم الحول في جفاف الموت، يأتي عليها موسم الأمطار فتغطيها السـيول المتدفقـة التـي تجرف أمامها كل ما اعترض سبيلها.. فليس من المستغرب إذن أن نجد العربي في مسلكه الشخصي ينتقـل مـن حـال الهدوء والاستسلام والتوكل بغتة إلى انفجار عاطفي مـدمر، ومن الكرم المشرف على السرف إلى الحرص المشين وإلى الغدر، ومن الشجار المبالغ في عنفه إلى الصـلح والعنـاق وتبادل القبلات. ويأتي هذا الانتقال في سرعة عجيبة مذهلة، لا تعرف مراحل متدرجة في المشاعر أو الأفكار.

وقد أثر هذا التكوين النفسي في أحكامه، فكان فيها شـديد الميل إلى المبالغة، لا يحسن غير المباركـة أو اللعـن، ولا تخطر بباله ضرورة التزام الدقة؛ فالدقة إنما هي من معـالم المجتمع الصناعي ومن المقتضيات الأساسية للحيـاة فيـه. والفرد فيه إن أغفلها دفع ثمنا باهظا لهذا الإغفـال، فعملـه مرتبط بآلة لا يسمح تسييرها بإغفال الدقة. والمؤاخذة العنيفة والجزاء في انتظاره إن هو تأخر عن عمله بضـع دقـائق. والعلاقات في مجتمعه خالية إلى حد بعيد مـن الاعتبـارات الشخصية، وعليه إزاءها أن يكون دقيقا فيما يقول أو يفعـل.

أما الفلاح أو البدوي الذي يتمتع بقدر أوفى من الاستقلال، ومن الحرية في أن يذهب ويجيء وقتما شاء، وفي إطلاق الكلام على عواهنه، لن يؤدي خطأ مفرد في عمله إلى كارثة، ولا بيان تعوزه الدقة إلى اضطراب في مجريات الأمور، فهو بمأمن من الأخطار التي تنجم عن المبالغة، ولا بأس من أن يطلق لنفسه العنان فيها.. واختصارا فإن المبالغة ظاهرة حضارية شديدة الارتباط بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية.

الاستهانة بالحروب الصليبية لدى المسلمين المعاصرين لها

ومن الأمثلة الصارخة لهذا الاتجاه إلى اتخاذ مواقف عقلية متطرفة، ذلك التناقض الواضح بين موقف المسلمين العرب المعاصرين للحروب الصليبية في الشام (١٠٩٧ – ١٢٩١ م) من تلك الحروب، وبين موقفهم اليوم من أحداثها ومغزاها ودلالاتها.

إذ من منا لا يجده أمرا غريبا صعب التفسير ذلك القدر من اللامبالاة والاستهانة، بل والإغفال، إزاء الحروب

الصليبية، مما نلحظه في المسلمين العرب المعاصرين لهـا، على اختلاف طبقاتهم ومواطنهم، ومستواهم الحضـاري أو الثقافي؛ علمائهم وعامتهم على سواء، وعلى مـدى القـرنين اللذين استغرقتهما تلك الحروب؟ وإنه لمن الشـائق حقـا أن نرى الإمام الغزالي في السنة التي دعا فيها البابا أربان الثاني إلى شن الحرب الصليبية ضد المسلمين (١٠٩٥م)، يعتـزل التدريس ويهجر بغداد ليسلك طريق الزهد والتصـوف، ثـم نراه بعد أعوام قلائل من استيلاء الصـليبيين علـى بيـت المقدس، وفي نفس السنة التي استولوا فيها على مدينة حمـاة (١١٠٨م)، يتم تأليف كتابه "المنقذ من الضلال" الذي لا يمكن لقارئه أن يخمن من خلال قراءته مجريات الأمور العظيمـة التي كانت تحدث وقتها في عالمه الإسلامي.

فإن نظرنا في كتب المـؤرخين المسـلمين المعاصـرين للحروب الصليبية ممن سجلوا وقائِعهـا وبواعثهـا بـبعض التفصيل، لم نجد أيا منهم قد خطر بذهنه أن ينهض بتـأليف كتاب يفرده لأحداث تلك الحروب، وإنما نجدهم يوردون مـا كتبوه عنها ضمن تواريخهم العامة (مثل "الكامل في التاريخ" لابن الأثير، و"مرآة الزمان: لسبط ابن الجوزي)، أو التواريخ

المكتوبة عن الأقاليم المختلفة (مثل "ذيل تاريخ دمشق" لابـن القلانسي، و"زبدة الحلب من تاريخ حلب" لابن العـديم)، أو عن الأسر الحاكمة (مثل "الباهر في تاريخ الدولة الأتابكيـة" لابن الأثيرن و"مفرج الكروب في أخبار بني أيـوب" لابـن واصل)، أو في كتب التـراجم (مثـل "النـوادر السـلطانية والمحاسن اليوسفية" لبهاء الدين بن شداد، و"كتاب الروضتين في أخبار الدولتين" لأبي شامة).

فليس ثمة كتاب عربي - إذن - من العصور الوسـطى عن "تاريخ الحروب مع الفرنج" وعلى من أراد أن يتصـدى لمهمة دراسة موقف المسلمين من تلك الحروب، أن ينتقـي ويوفق، ويجمع ويربط بين فصول من كتب عربية شتى فـي هذه الفروع المختلفة من الكتابة التاريخية، وهو ما اضطلعت به في كتابي "الحروب الصليبية في كتابات المؤرخين العرب المعاصرين لها" (مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٣).

أسباب

قلة اكتراث المسلمين بتلك الحروب

وفي ظني أن أهم أسباب ضعف اهتمام المؤرخين العرب المعاصرين للحروب الصليبية، وضعف اهتمام المسلمين عامة خلال تلك الحقبة بتلك الحرب، هو أن الأقطار شرقي البحر المتوسط التي تأثرت بغزوات الصليبيين كانت وقت بدء الحروب مقسمة بين عدد من الأمراء ضئيلي الشأن، أهم ما يشغل بالهم هو الاحتفاظ بمراكزهم، والتغلب على منافسيهم في المنطقة.. ولم يكن ثمة حافز يحفزهم على الاتحاد فيما بينهم ضد الإفرنج. بل إنه في بعض الأحيان كان بعضهم يعقد أحلافًا مع الإفرنج ضد غيره من المسلمين. وكانت هذه الفرقة في صفوف المسلمين هي التي مكنت الصليبيين من تحقيق قدر من النجاح. أضف إلى ذلك أن أقوى دولة إسلامية وقت سقوط بيت المقدس في يد الإفرنج كانت دولة السلاجقة التي هيمنت على بغداد ومعظم المراكز الشرقية العظيمة للحضارة الإسلامية، وإن كان مقر الحكومة فيها في العادة هو أصفهان التي تستغرق الرحلة منها إلى مكان القتال نحو ستة أسابيع. والمؤكد أن أهل أصفهان ما كان يقلقهم غزو الإفرنج لبقعة صغيرة نسبيا بعيدة عنهم.. بل إنه لِيوسع المرء أن يلحظ قلة الاكتراث بالحروب الصليبية

في كتابات المؤرخ العظيم ابن خلدون. ففي مقدمته الطويلة نجد الإشارات الوحيدة إلى الحروب الصليبية لا تشغل غير فقرات قليلة عن الهيمنة البحرية على البحر الأبيض المتوسط، وجملتين أو ثلاثٍ عن مساجد القدس ومبانيها المقدسة.. واختصارا نقول: إن اهتمام الشطر الأعظم من العالم الإسلامي في العصر الوسيط بالحروب الصليبية لم يكن أكبر من اهتمام بريطانيا بالحرب التي دارت في القرن التاسع عشر عند الحدود الشمالية الغربية للهند، وربما تركت في وعي الرأي العام الإسلامي انطباعا أقل حدة مما أحدثته الحرب الهندية في نفوس البريطانيين.

اهتمام الأوروبيين العميق بالحروب الصليبية

أما حين ينظر القارئ العربي في مؤلفات الأوروبيين عن تاريخ قارتهم في العصر الوسيط، فإنه يعجب للمكانة المرموقة التي تحتلها الحروب الصليبية في تلك التواريخ، واعتبار تلك الحروب المسئول الأول عن نمو وعي الأوروبيين المسيحيين بأنفسهم.. لقد كان لشعور أوروبا

الغربية (بلاد الفرنجة) بالنقص عند مواجهتها للحضارة الإسلامية جوانب متعددة؛ فالتكنولوجيا الإسلامية كانت متقدمة عن التكنولوجيا الأوروبية في كثير من الميادين. وكان أثرياء المسلمين أكثر استمتاعا بالكماليات وأساليب الحياة الرغدة من أثرياء الأوروبيين. ولم يقتصر دور الحروب الصليبية في الشام (وصِلات الأوروبيين بمسلمي الأندلس) على تعريف أوروبا الغربية بالكثير من المنتجات المادية والاكتشافات التكنولوجية في ديار الإسلام، ولا على إثارة اهتمام الأوروبيين بالعلوم الفلسفية، بل إنه دفع أوروبا أيضا إلى تكوين صورة جديدة لذاتها، وصورتين جديدتين (متناقضتين) للإسلام:

فمن ناحية، نجد أن الاتصال المباشر بالمسلمين في ديارهم فتح أعين الغربيين لأول مرة على مدى التشويه الذي كان يلحقه رجال الكنيسة في أوروبا عمدا بصورة تعاليم الإسلام وسيرة الرسول، وأحوال المسلمين وأخلاقهم وطباعهم ومستواهم الحضاري، حتى غدت صورة مشوبة إلى حد رهيب بالأوهام والأخطاء والكذب، وبات من الضروري بعد هذا الاتصال المباشر، والاطلاع على كتب

المسلمين عن دينهم وتاريخهم، إعادة رسم الصورة على نحو أكثر أمانة وموضوعية، وأقرب إلى واقع الأحوال. وبالتـالي فإن المسلمين مدينون إلى حد كبير إلى الحـروب الصـليبية بتصحيح المفاهيم الأوروبية عن الإسلام.

ومن ناحية أخرى مقابلة، فـإن الأوروبيـين المسـيحيين أقلقهم ما شهدوه إبان الحروب الصليبية من إحساس المسلمين الثابت الذي لا يتزعزع بتفوقهم وفضلهم على غيرهم، فدفعهم الإحساس بالنقص إلى التحول إلى ميداني العقيدة والتاريخ في سعيهم لإثبات وجودهم، والتعويض عن عقدة الـنقص فـي مواجهة الحضارة المتفوقة. وكان سبيلهم إلى ذلك ذا شقين:

الأول: سعيهم إلى إقناع المسيحيين الآخرين بـأنهم فـي حروبهم ضد المسلمين إنما يحاربون من أجل نصرة النـور والدين الحق على قوى الظلام، وأنه حتى إن كان المسلمون أقوياء فإن المسيحية هي خير من الإسلام، وأجـدر بالغلبـة والسيادة.

والثاني: تهوينهم المتعمد من شأن أثـر المسـلمين فـي حضارتهم الأوروبية، (وهو تهوين لا نزال نلحظه في كتابات المؤرخين الغربيين غير المنصفين إلى يومنا هذا)، ومبالغتهم

في بيان أفضال التراث اليونـاني والرومـاني علـى هـذه الحضارة. فكان أن نتج عن الحروب الصليبية فـي نهايـة الأمر إقبالٌ نَهِم من الأوروبيين على دراسة التراث الأدبـي والفني والفلسفي والعلمي للإغريق والرومـان، والتظـاهر بالاستخفاف بالإنجازات الإسلامية والعربية في تلك الميادين. وبالتالي فإن الأوروبيين مدينون إلى حد كبير إلى الحـروب الصليبية ببزوغ عصر النهضة في قارتهم.

من التفريط إلى الإفراط

مقابل هذا الإغفال والإهمال غير المغتفرين مـن جانـب مسلمي العصر الوسيط لمغزى الحروب الصليبية وأهميتهـا ودلالاتها، نلمس اليوم من جانب العرب والمسلمين مبالغة في تصوير نوايا الفرنجة تجاههم سواء في زمن تلك الحروب أو زماننا نحن. فعندهم أن الباعث في الزمانين واحـد: وهـو كراهة الإسلام والقصد إلى استئصال شـأفته. ولا أبـالغ إن قلت: إن أحد الأسباب الرئيسة وراء اهتمـام قرائنـا اليـوم بدراسة الحروب الصليبية (وهو اهتمام ملموس تشهد به دور النشر في العالم العربي)، هو محاولة فهم المقاصد الغربيـة في عالمنا المعاصر إزاء الإسلام والمسـلمين. وحسـبنا أن

نشير إلى كثرة تـردد وصـف الأمـريكيين والأوروبيـين بالصليبيين الجدد سواء على ألسنة العامـة أو فـي مقـالات الكتاب الإسلاميين، ووصف النوايا الغربيـة تجـاه الثـورة الإيرانية والنظام الإيراني بالنوايا الصليبية، وإطلاق البعض اسم "الحرب الصليبية الثامنة" على حرب الحلفاء الغـربيين ضد العراق منذ عامين.

فالواضح لنا أن المسيحية لم تعد تلعب دورا ذا بـال فـي الحضارة الغربية الحديثة، وأن الانتصار لها لضمان غلبتهـا على سائر الأديان لم يعد من أهداف هذه الحضارة. كل مـا هناك هو ضيق صدر بمخلفات أية حضـارة أو عقيـدة قـد تعرقل من مسيرة الأمور على ما يوافق هوى الغـربيين، أو من تنفيذ مخططاتهم؛ سواء ما اتصل منهـا بإقامـة البيـت الأوروبي الموحد أو النظام العالمي الجديد. أو تـؤخر مـن إرساء أسس سلطة عالمية تتصدى لمشكلات كوكب الأرض الصغير. وأغلب ظني أنه إذا استمر العالم الإسـلامي علـى تحجره الراهن، واقترن مفهـوم الإسـلام عنـد الغـربيين بالإرهاب والعنف، وإهدار حقوق المرأة والأقليات الدينيـة، واستهانة بحقوق الإنسان، فسيشرع هؤلاء القوم في التساؤل:

"إذا كنا قد نجحنا في تقويض دعائم العقيدة الماركسية رغم ما كانت تحيط نفسها به من سلاح ودعايـة، ورغـم أصـولها الأوروبية، فما بالنا لا نزلزل أركان عقيدة متخلفة متحجـرة لدى هؤلاء البرابرة الهمج الـذين لا يملكـون سـلاحا، ولا يتقنون فنون دعاية، ولا يستمتعون من الدنيا بغذاء أو كسـاء إلا ما نجود به عليهم؟".

ستكون عندئذ ثمة مواجهـة، لكنهـا سـتكون مواجهـة حضارية لا دخل للصليب فيها، ولا هي من جنس الحـروب الصليبية في شيء.

الدرس الأكبر للحروب الصليبية

ما أراه مؤسفا حقا، إزاء هذا الاهتمام الجديد المفاجئ من جانب المسلمين بدراسة الحروب الصليبية، هـو اسـتمرار إغفالهم للدرس الكبير المفرد الذي كان خليقا بهم أن يفيـدوا منه وهم في سبيل هذه الدراسة:

فقد رأى صلاح الدين الأيوبي بوضوح أن ضعف الجسم السياسي الإسلامي، (وهو الضعف الذي أفسح المجال لقيـام الدويلات الصليبية في الشام)، كان نتيجة للانحطاط في الخلق السياسي.. وعلى هذا الانحطاط ثار صلاح الدين. فلم يكـن

ثمة في رأيه سوى طريق واحد لوضع حد له: وهو إحياء الكيان السياسي الإسلامي في ظل دولة واحدة قوية.. وكان يدرك أن مشكلة العالم الإسلامي ليست سياسية فحسب، بل هي أيضا، إلى حد كبير، مشكلة أخلاقية ونفسية، وأن التصدي لها على مجرد الصعيدين السياسي والعسكري من شأنه أن يؤدي إلى الإخفاق في حلها. وقد رأى أنه إن شاء الحصول على نتائج فعالة، فلا بد من أن يعزز إنجازاته وانتصاراته بخلق تيار خلقي نفسي يعمل في صالح الأمة جمعاء، ويكون من القوة بحيث تتعذر معه مقاومته. وقد نجح في هذا بفضل إلزامه نفسه بمبادئ العدل والإخلاص والصدق وإنكار الذات، حتى أصبح المصدر الذي ألهم العناصر والقوى الساعية إلى وحدة الإسلام في وجه الغزاة كافة، والبؤرة التي اجتمعت هذه العناصر حولها.

والمؤسف أنه ما إن مات الرجل، حتى تناسى المسلمون تشخيصه لداء بني قومه ودينه، وهو التشخيص الوحيد الذي كان بمقدورهم أن يفيدوا منه، وركزوا بدلا منه في حديثهم عن الرجل، على انتصاراته وإنجازاته العسكرية.

***

هكذا انتقل المسلمون - إذن - من التفريط إلى الإفراط في تقييمهم لدلالات الحروب الصليبية دون أن يعوا درسها الأكبر.

قصة صلاح الدين الأيوبي

مع السهروردي المقتول

شهاب الدين يحيى بن حبش السهروردي (٥٤٩ هـ/ ١١٥٤م – ٥٨٧ هـ/ ١١٩١ م)، فيلسوف من أعظم فلاسفة الإسلام، وصاحب الكتاب الخالد "حكمة الإشراق" لُقب بالمؤيد بالملكوت، وبالسهروردي المقتول؛ تمييزا له عن آخرين لقبوا بالسهروردي، وصفه ابن أبي أصيبعة في كتاب "طبقات الأطباء" بأنه "كان أوحد أهل زمانه في العلوم الحكيمة، جامعا للفنون الفلسفية، بارعا في الأصول الفقهية والفلكية، مفرط الذكاء، جيد الفطرة، فصيح العبارة".

وقد أمر السلطان صلاح الدين الأيوبي بقتله عام ١١٩١م، فقتل مخنوقا بقلعة حلب، ثم صلب أياما في ظاهر المدينة، وكان عمره وقتها ستا وثلاثين سنة.

حياته

ولد السهروردي عام ١١٥٤ م في سهرورد (من قرى زنجان في عراق العجم)، ونشأ بمدينة مراغة (من أعمال

أذربيجان) حيث درس الفلسفة والمنطق وأصول الفقه إلى أن برع فيها، ثم انتقل إلى أصبهان، فبغداد. وفي سن الثلاثـين رحل إلى حلب في طلب المزيد من العلم، وكـان يحكمهـا وقتها الملك الظاهر، وهو الابن الثاني لصلاح الدين الأيوبي.

يقول ابن أبي أُصيبعة:

"قَدِم السهروردي إلى حلب، ونزل في مدرسة الجلاويـة، وكان مدرسها يومئذ الشريف افتخار الدين رحمه الله. فلمـا حضر السهروردي الدرس، تباحث مع الفقهـاء ونـاظرهم، وتميز بينهم، وظهر للشيخ افتخارِ الدين فضلُ هـذا الشـاب وعلمه. غير أن الشيخ لاحظ فقر ثياب السهروردي، فأشـفق عليه، وجمع بعد الدرس بعض الثياب دفعها إلى ابنه وقـال له:

- تروح إلى هذا الفقير وتقوله له: "والدي يسلم عليك ويقول لك أنت رجل فقيه، وتحضر الدروس بين الفقهـاء، وقـد بعث إليك بشيء تلبسه إذا حضرت".
- فلما وصل الولد إلى السهروردي وذكر له رسـالة أبيـه، سكت السهروردي قليلا ثم قال:
- حط هذا القماش، وتفضل بقضاء حاجة لي.

- ثم أخرج جوهرة في حجم بيضة الدجاجة ما ملـك أحـد مثلها في حجمها ولونها، وقال للغلام:
- تروح إلى السوق وتنادي على هذه الجوهرة، ومهما بلـغ ثمنها لا تبعها حتى تخبرني.

فلما وصل الغلام إلى السوق نادى على الجوهرة، فانتهى ثمنها إلى مبلغ خمسة وعشرين ألف درهم. فأخذها عريـف السوق وطلع بها إلى الملك الظاهر ابـن السـلطان صـلاح الدين، فأعجِب الملك بها وعرض أن يشتريها بثلاثين ألـف. فأستأذنه العريف أن يستشير صاحب الجوهرة بشأن الـثمن. وأخذ الغلام الجوهرة وعاد إلى السهروردي وأخبـره بمـا حدث فأخذ السهروردي الجوهرة، ووضعها علـى حجـر، وضربها بحجر آخر حتى فتتها، ثم التفت إلى الغلام وقال له:

- خذ هذه الثياب واذهب إلى والدك، فقبل يده عني وقل لـه: "لو أردنا فاخر الثياب لكنا اشتريناه"!

أما الملك الظاهر فإنه استدعى العريف ليسأله عـن أمـر الجوهرة. فلما أخبره العريف بما حدث، ركب الملـك إلـى المدرسة الجلاوية، واجتمع بالسهروري وحادثه فأعجب أشد

الإعجاب به، وأخذه معه إلى القلعة، وصار له عنـده شـأن عظيم".

غيرة الفقهاء

كان العالم الفذ الشيخ فخر الدين المـارديني الـذي كـان السهروردي يكثر من التردد عليه في حلب يقول عنه:

"ما أذكى هذا الشاب وأفصحه، لم أقابل أحدا مثلـه فـي زماني. إلا أني أخشى عليه لكثرة تهوره واسـتهتاره، وقلـة تحفظه أن يكون ذلك سببا لهلاكه".

وقد تحققت نبوءة الشيخ.

ذلك أن الملك الظاهر شرع يستدعي الأكابر من العلمـاء والفقهاء والمتكلمين ليسمع ما يجري بينهم وبين السهروردي من المباحث والكلام. وقد بدا للكافة ما كـان السـهروردي يتمتع به من منطق وعلم باهرين، وتفنن في الأدب والشـعر والحكمة. وكان لا يناظر أحدا إلا بزه وغلبه في أية مسـألة تثار. فحسن موقعه عند الملك الظاهر وقربه وصـار مكينـا عنده، كما استمال خلقًا كثيرا من أهالي حلب عرفوا مكانتـه فتبعوه.. يقول ابن رقيقة:

"ومع ذلك فقد ظل السهروردي دائما رث الهيئة، لا يلتفت إلى ما يلبسه، ولا له احتفال بأمور الدنيا.. كنت وإياه نتمشى في أحد المساجد، فرآني صديق لي معه فأتى إلـى جـانبي يهمس في أذني: تماشي هذا الصعلوك؟ فقلت له: اسكت، هذا سيد الوقت وعالم العصر، شهاب الدين السهروردي!"

ويقول ياقوت الحموي في كتابه "معجم الأدباء":

".. إن فقهاء حلب لما ناظرهم السهروردي فلـم يجـاره منهم أحد، ولما لمسوا تقريب الملك الظاهر له وإقباله عليـه وتخصصه به، ازداد تغيظهم وتألبوا عليه وكثـر تشـنيعهم عليه، ورموه بالإلحاد والزندقة، وبانحلال العقيدة والتعطيل، وباعتقاد مذهب الحكماء المتقدمين. ثم إنهم أفتوا بإباحة قتلـه بسبب اعتقاده، وعملوا المحاضـر بكفـره وسـيروها إلـى السلطان صلاح الدين الأيوبي في دمشق وقالوا له:

"أدرك ولدك وإلا تتلف عقيدته، فإن بقي هذا السهروردي في حلب فإنه يفسد دين الملك الظاهر، وإن خرج من حلـب وانطلق فإنه يفسد أية ناحية قصدها من البلاد".

موقف صلاح الدين

وسأل صلاح الدين عندئذ عن السهروردي الذي لم يقابله ولم يسمع به من قبل، فحدثوه عن إمعانه في الفلسفة، ورأيـه في الحلول، وبأنه يعتقد أن العالم والله شيء واحد، وأنه يتبع مذهب الرواقيين الإغريق، ويـذهب مـذهب الأفلاطونيـة القديمة. فكتب صلاح الدين إلى ابنه الملك الظاهر بإبعـاده، فلم يبعده. فبعث إليه كتابا يقول فيه:

"إن هذا الشاب السهروردي لا بد من قتله، ولا يبقى حيـا بوجه من الوجوه".

واضطر الملك الظاهر حينئذ إلى أن يصدر أمره بخنـق السهروردي في قلعة حلب، فخنق ثم صلب، غير أن أعـداء السهروردي من الفقهاء لم يفيدوا طويلا من قتله؛ إذ سرعان ما ندم الظاهر ندما شديدا على فعلته، ونقم على من تسـببوا في قتله، فأمر بالقبض عليهم واعتقلهم ونكبهم، وصادر أموال عدد كبير منهم.

ويضيف ابن خِلكان قوله في كتابه "وفيات الأعيان":

"أقمت بحلب سنين للاشتغال بالعلم. ورأيت أهلها مختلفين في أمر السهروردي الذي كان من أكبر علماء عصره، وكل واحد يتكلم فيه على قدر هواه، فمنهم من ينسبه إلى الزندقـة

والإلحاد، ومنهم من يعتقد فيه الصـلاح وأنـه مـن أهـل الكرامات".

وقد خلف السهروردي من الكتب ما طبع ومـا لا يـزال مخطوطا:

فمن كتبه المطبوعة: حكمة الإشراق – هياكـل النـور – رسالة في اعتقاد الحكماء – التنقيحات – رسـالة حـي بـن يقظان.

ومن المخطوطات: التلويحات – المشارع والمطارحات – الأسماء الإدريسية – الألواح العمادية – المناجاة – مقامـات الصوفية ومعاني مصطلحاتهم – اللمحات – المعارج.

وله شعر كثير اشتهرت منه حائية مطلعها:

أبدا تحن إليكم الأرواح ووصالكم ريحانُها والراح

ويعتبر السهروردي إلى اليـوم أبـرز أعـلام مـذهب الإشراقيين في الفلسفة الإسلامية.

تقييم فعلة صلاح الدين

قيل في تبرير أمر صلاح الدين بقتل السهروردي إنه كان يسعى من ورائه إلى تهدئة الفتنة الدينية والسياسية التي كانت قائمة إذ ذاك في حلب، شأنه في ذلك شأن الخليفة العباسـي

الذي أمر بصلب الحلاج (انظر مقدمة الدكتور أحمد أمين لكتاب "حي بن يقظان لابن سينا، وابن طفيل والسهروردي").

غير أنه من الصعب علينا أن نقبل هذا التبرير لفعلة شنعاء في حق الفكر الإسلامي، خاصة إذ هي أتت من سلطان فاضل كانت صفاته الخلقية بالذات هي المسئولة عن أن صار - منذ زمنه وإلى يومنا هذا - من أحب وأقرب الشخصيات في التاريخ الإسلامي إلى قلوب المسلمين وغير المسلمين على سواء.

ويزيد من بشاعة الحكم بإعدام السهروردي أن صلاح الدين ما كان يعرف الرجل، ولا سمع بآرائه إلا من الواشين به، الحاسدين له، ولا بذل جهدا فيقرأ كتبه، ولا فكر في استدعائه للاستماع إليه، ولا أمر بمحاكمته محاكمة عادلة، ولا أتاح فرصة للرجل كي يدافع عن نفسه، ولا فكر في استتابته كما تأمر أحكام الإسلام، ولا أخذ برأي ابنه الملك الظاهر في هذا المفكر الأديب الفيلسوف الشاعر.

ولو أنه كان ثمة إجماع من مسلمي حلب على أن الرجل ملحد زنديق، فلربما التمسنا في هذا الإجماع بعض العذر لصلاح الدين. غير أن كافة المؤرخين الذين أرخوا لهذه

الواقعة، من أمثال ابن الأثير وابن الوردي، وابـن تغْـري بردي، وابن خلكان، وابن أبي أصـيبعة، ويـاقوت، وابـن الجوزي، وعشرات غيرهم، مجمعون على أنه لم يكن ثمـة إجماع على زندقة السهروردي، وأن الكثيـر مـن فضـلاء العلماء كانوا يعظمون قدره ويبجلونه، وأن "كثيرا من أهالي حلب عرفوا مكانته وفضله فاتبعوه" وأن منهم – علـى حـد قول ابن خلكان – من كان "يعتقد فيه الصلاح، وأنه من أهل الكرامات".

بل حتى إن كان قد حدث مثل هذا الإجماع، فإن الاحتجاج بأن عقيدة الأغلبية العظمى في مجتمع معين هي الحكم فـي مضمار صحة الرأي، احتجاج مردود عليـه. فقـد تخطـئ الأغلبية في اعتقادها، وقد يصيب إنسان فرد. ولو أن البشرية بأسرها أجمعت على رأي وخالفها فيه شخص واحد، لما حق للبشرية أن تخمد صوته، تماما كما أنه ليس من حـق هـذا الفرد أن يخمد صوت البشرية. فإخماد الصوت في حد ذاته، وعلى حد تعبير جون سـتيورات ميـل، "يضـر بـالجنس البشري، بحاضره ومستقبله، كما يضر بقامعي الرأي أكثـر من إضراره بصاحب الرأي؛ ذلك أنه لو كان رأي ذلك الفرد

سليما لحرم الناس بقمعه من فرصة تصحيح خطـئهم، ولـو كان رأيه باطلا لحرموا من فضل تصحيح الخطأ، ألا وهـو الرؤية الأوضح للحق، الناجمة عن صراعه مع الباطل؛ ذلك أنه حتى لو كانت عقيدة الأغلبية هي الحـق المطلـق، فـإن حرمانها من فرصة إثبات نفسها على حساب الباطل يجردها من أسسها العقلانية، ويحجب الأسباب التي أحالتها من رأي إلى معرفة قطعية".

***

إنه ما من شك في أن قمع الآراء الحرة الجديدة كثيرا ما تسبب في الماضي في عرقلة التقدم أو الحيلولة دونـه فـي المجتمعات البشرية. وقد كان هذا القمع يستند دائما إلى حجة أن الآراء الفاسدة ليست أخف ضررا من الأعمال الإجرامية، وأنه من مسئولية القائمين بالحكم مكافحة هذه كمـا أن مـن مسئوليتهم مقاومة تلك. والرد الواضح على ذلك هو بالتساؤل عن الحكم بصدد تقييم الآراء، ومن صاحب الحق في الفصل بين الصحيح والباطل، والتمييز بين الإجرامـي والبطـولي، وبيان ما هو خليق بالمكافحة ومـا هـو خليـق بالتشـجيع والرعاية. وكثيرا ما حدث في التاريخ أن أدان حكام رأيا، ثم

اعتنقه حكام تالون، كمكافحة حكومة القيصر نيقـولا الثـاني للشيوعية في روسيا، ومكافحة حكومة لينين بعـدها لـلآراء المناهضة للشيوعية، كل بدعوى أن آراء خصمه آراء فاسدة. غير أن المثال الأقرب على هذا هو تغيير الفرد نفسه لآرائه بمرور الوقت. فالرأي الذي أومن اليوم - بكل قوة وثقـة - بأنه صحيح وفوق مستوى الشبهات، قد أغيره بعـد عـام أو عامين، وأرى خطَله وفساده، ثم قد أنتقل مـن هـذا الـرأي الثاني في مستقبل أيامي إلى ثالث فرابع. ففي أية مرحلـة – إذن- من تلك المراحل من العمر يمكنني أن أقول فـي ثقـة بأني على حق؟ وقد سبق للشاعر روبرت جريفز أن عـرف الأساطير بأنها ديانات الآخرين. فمن ذا الـذي بمقـدوره أن يصف عقيدته بأنها العقيدة الحقة، وغيرها بأنها أساطير، وهو يعلم أنه لو كان قد ولد في بلد غير بلده، وبـين قـوم غيـر قومه، لوصفَ العقيدة التـي يـؤمن الآن بهـا بأنهـا مـن الأساطير؟

حول

الكتابة التاريخية عند المسلمين

لا زلت إلى اليوم أذكر إذ كنت في الثالثة عشرة من العمر، وطلب مني مدرس التاريخ إعداد بحث عن الصراع بين الأمين والمأمون ألقيه على طلبة المدرسة النموذجية الثانوية مجتمعين.. أعددت البحث، وكان هواي فيه مع المأمون ضد الأمين. ثم رأيت أن أقرأه على والدي قبل إلقائه بالمدرسة، فإذا بي أسمع منه يومها درسا لم يبرح ذاكرتي إلى اليوم، عن كيف أن المصادر الرئيسة الوحيدة التي تعرضت لهذا الصراع بين الأخوين العباسيين هي أربعة: تاريخ اليعقوبي (وهو شيعي)، وتاريخ الرسل والملوك للطبري (وهو فارسي)، والأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري (وهو فارسي)، والفخري لابن طباطبا (وهو شيعي). فإذا هي إذن إما فراسية أو شيعية، وإذا كان هوى الفرس والشيعة مع المأمون وضد الأمين، فإن هذا لمما يلزم القارئ والمؤرخ الحديث بالتزام الحذر والحيطة البالغين، وبأن يدركا دائما أن غرض المصادر هو الإساءة إلى سمعة

الأمين، وإعلاء شأن المأمون، وأن الصورة النهائية لشخص الأمين لا يمكن على - أية حال - أن تكون بمثل هذا السوء أو التشويه الذي تبدو عليه في تلك المصادر.

ثم ضرب لي أبي يومها أمثلة أخرى": كالحرب بين على ومعاوية، وتاريخ الدولة الأموية كله، وهما ما لـم يتعـرض لهما من المصادر القديمة سوى مؤرخين كتبوا في ظل دولة العباسيين الذين أسقطوا حكم الأمـويين، أو مـؤرخين مـن الشيعة الناقمين على بني أمية.. وكذا تاريخ عز الـدين بـن الأثير في كتابيه "الباهر" و"الكامـل" لعهـد صـلاح الـدين الأيوبي؛ إذ يجب أن نذكر جيدا ولاء هـذا المـؤرخ لدولـة الأتابكة التي أطاح صلاح الدين بها.. أما فيما يتعلق بتراجم شخصيات التاريخ الإسلامي، فقد يكفي أن نذكر فـي هـذا الصدد الظلم الفادح في التراجم التي وصلتنا عن الحجاج بن يوسف الثقفي، وزياد بن أبيه، وعبيد الله بن زياد، وجمـيعهم من أعظم الإداريين في تاريخ البشـرية، لا لشـيء إلا لأن ميول كتابها كانت إما شيعية أو عباسية.. كذلك نلاحظ أنه ما من روايات إسلامية تحدثت عن بطولات لسـعد بـن أبـي وقاص في الوقائع والحروب إلا كان من بين سلسلة رواتهـا

أحد من عشيرة سعد أو أقربائه، بينما تتحدث روايات أخرى عديدة من آخرين عن عزوفه دائما عن الاشتراك في الحروب، وأنه لم يشترك في موقعة القادسية الكبرى بين العرب والفرس، واكتفى – لمرضه – بمراقبتها من سطح منزله، ثم نسب النصر في كتب التاريخ إليه!

كنه الإرادة الإلهية

إلى والدي - إذن - يرجع الفضل في أن غرس في منذ سن مبكرة النظرة النقدية إلى مصادر التاريخ الإسلامي، وعلمني أهمية "العنعنة" أو سلاسل الرواة (التي كثيرا ما نسمع المتفرنجين اليوم بيننا يسخرون منها في حديثهم عن التراث العربي) في تمحيص صحة الروايات، وضرورة التدقيق لمعرفة هوى المؤرخ، وسيرته، والعصر الذي كان يكتب فيه، والخليفة أو الوالي الذي كان يخدمه أو تصله جوائزه أو رواتبه. فما شرعت جادا في دراسة التاريخ الإسلامي بعد هذا بسنوات، إلا كنت قد تعلمت أن ألتزم التزاما صارما بتلك المعايير، ومناهج البحث وطرائق النقد والتمحيص.

غير أني ما قطعت شوطا في قراءة المؤرخين المسـلمين القدماء، حتى تعلمت أن أُكِن لهم احتراما وتقديرا عميقـين، مقرونين بشيء من الدهشة، وأن أصل إلى الاعتقاد بأنه مـا من أحد من مؤرخي العالم الغربي – سوى ربما ثيوسيديدس وتاسيتوس وجيبون – يفوق في موضوعيته ودقته وجديتـه مؤرخين مثل الواقدي، والـبلاذري والطبـري، ومسـكويه والمقريزي والجبرتي.

وقد ذكرت لتوي أن كتابات البعض من هؤلاء المؤرخين غلبت عليها أهواء أثرت في تقييمهم للشخصيات وتسـجيلهم للأحداث. غير أن معظم تلك الأهواء كانـت أهـواء دينيـة تتصل بالعقيدة. وفي تقديري أن سر عظمة الكتابة التاريخية عند المسلمين في العصر الوسيط هو ارتباطهم بمفهومهم عن الدين.

لقد أنكر البعض على المؤرخين المسلمين القـدامى فـي كتابتهم لتاريخ العالم الإسلامي بعد وفاة النبي ﷺ - اكتفاءهم بسرد الأحداث دون عناية بتعليق، والإقدام على تسجيلها دون وجهة نظر مسبقة.. وقد كان وراء منهاجهم هذا في الكتابة، ووراء ذلك القدر المذهل من الموضوعية الذي تتمتـع بـه

مؤلفاتهم، اعتبارهم التاريخ المظهر الخارجي لإرادة الله في عالمنا هذا، واعتقادهم أنه بالإمكان التوصل إلى كُنه هذه الإرادة باستقراء ظواهرها. ومن ثم فقد رأوا واجبا عليهم تسجيل هذه الظواهر في صدق، والإحجام عن الهوى في الانتقاء.. فهم هنا أشبه بالمحقق في شأن من الشئون، أو قضية من القضايا، يجمع ما بوسعه جمعه من المعلومات والحقائق، دون أن يدري أيها سيكون ذا صلة بالكشف عما يريد كشفه. ولا يعني هذا أنهم كانوا لا ينتقون، (إذ من ذا الذي بوسعه أن يسجل كل صغيرة وكبيرة بصدد أي أمر من الأمور؟) كما لا يعني أنهم جميعا كانوا يتعففون عن مراعاة هوى الحكام، أو مقتضيات المذاهب التي يتبعونها. غير أن المؤكد أن المؤرخين المسلمين في العصور الوسطى ألزموا أنفسهم بقسط من الموضوعية يندر أن تجده في غيرهم، وأن ورعهم كان له الفضل الأول في ذلك.

لقد بدأ الكثيرون منهم – كالواقدي والطبري – حياتهم بالكتابة في التفسير أو الحديث أو السيرة. وإذ تحولوا إلى كتابة التاريخ التزموا فيها بنفس المنهج والدقة والورع والمعايير التي أخذوا أنفسهم بها في تعرضهم للحديث

والسيرة وتفسير القرآن. فإن كان الورع دفع غيـرهم مـن المؤرخين إلى الكذب والتلفيق عن حسن نية، فقد كان مفهوم الورع لدى المؤرخين المسلمين هو التزام الصدق والأمانـة قدر الإمكان، وهما ما قد يسميان في زمننـا هـذا بـالروح العلمية.

نشأة

الكتابة التاريخية عند المسلمين

ويقودنا هذا إلى الحديث عن نشأة الكتابة التاريخية عنـد المسلمين:

ما انقضت فترة وجيزة على وفاة الرسول، حتـى كـان العرب قد انطلقوا من بيدائهم انطلاق الجني العمـلاق مـن قمقمه، فإذا هم بعد انصرام قرن من الزمان قد امتد سلطانهم من نهر جيحون في آسيا الوسطى، إلى أقصى شمال أفريقيا عند المحيط الأطلسي، وباتوا يحكمون شعوبا شديدة التبـاين في عاداتها وأخلاقها وبيئاتها وحضاراتها عـن أهـل شـبه الجزيرة، وأسسوا مدنا جديدة أو سكنوا مدنا قائمـة تزخـر بسكان هم الآن في حاجة إلى شريعة أكثر تعقيـدا، وأوفـى

تفصيلا من تلك التي كانت كافية لأن تحكم مجتمعا في بساطة مجتمع مكة والمدينة، خاصة وقد واجه المسلمون ظروفا لم يتحدث القرآن عنها، أو تحدث عنها ولم يورد بصددها غير مبادئ عامة دون التفاصيل.

إزاء هذا التوسع الجغرافي الهائل، وإزاء ضغط الظروف التاريخية الجديدة دائبة التغير، واختلاف الزمان والمكان، تلمس المسلمون وفقهاؤهم الدليل الهادي. وقد كان من الطبيعي أن تقودهم تقواهم إلى تلمس الدليل عند عين المصدر الذي نزل الوحي عليه وبلغ رسالة السماء. فكان أن شرع الجيل التالي للصحابة، جيل التابعين، يجمع روايات أقوال النبي وأفعاله، واتخذ من هذه السنة مصدرا ثانيا للشريعة، لا يعلوه غير القرآن. وقد افترض أنصار الالتزام بالسنة أن العناية الإلهية إنما كانت توجه كل عمل أتى به النبي، وكل كلمة صدرت عنه منذ بعثه الله رسولا إلى قومه إلى أن مات. ومن ثم فقد رأوا أن أحكام السنة ملزمة في الحالات التي لم يرد بصددها حكم قرآني.

وربما كان من أهم ما دفع الفقهاء إلى جمع الحديث والروايات المتعلقة بسيرة النبي وأفعاله، واتخاذ السنة مصدرا

للشريعة، تلك الرغبة العظيمة لدى جمهور الأتقياء ممن لـم يعاصروا النبي في معرفة كل ما تحدث به أو بدر عنه؛ حتى يكيفوا حياتهم وسلوكهم على هديه، وتلك الخشية من الوقوع فيما يخالف أحكام الدين، واستحداث ما قـد لا يتفـق وإرادة الله. وقد شاع بين الناس حـديث الرسـول: (الـذي أورده النسائي): ((شر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكـل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار)) فكان كلما طلع علـيهم أحد الفقهاء برأي قالوا له: "أهو شيء سمعته عن رسول الله أم هو رأي ارتأيته؟" فأدرك الفقهاء أنه ما من فرصـة أمـام الرأي لأن يصادف القبول لدى جمهور المؤمنين ما لم يستند إلى سنة متواترة، أو يزعم أن له أصلا في الحديث.

وعندما حدث بعد ذلك أن شاع اختراع الأحاديث، وصار ميدانها بحرا خضما يختلط فيه الصحيح بالزائف، أثار هـذا الاضطراب جزعا شديدا لدى لفيف من أجلّة علماء الدين من أمثال ابن حنبل والبخاري ومسلم، فأقبلوا على وضع أسـس لعلم الحديث، والمعايير الصارمة الواجبة لانتقاء الأحاديـث الصحيحة. وقد كان المعيار الرئيسي الذي أخذوا به التحقـق من الرواة والمحدثين وهويتهم، ومن تقوى رجـال الإسـناد

وسلامة طويتهم. فإن ثبت توفر النزاهة والورع فيهم، ولـم يعرف عنهم كذب متعمد على النبي ناجم عن قلـة ديـن أو هوى حزبي، اعتبروا ثقات، وإن ثبت الاتصال الزمني بـين هؤلاء المحدثين وكتبة الحديث الواردة أسماؤهم في الإسناد، اعتبروا الحديث صحيحا.

علم

الرجال وكتب السيرة النبوية

ومن هنا أدى علم الحديث إلى نشـأة علـم الرجـال، أي العناية بدراسة سيرة رواة الحديث، والتحقق مـن تـاريخي ميلادهم ووفاتهم، وسفرهم ومقامهم وسلوكهم الشخصي، من أجل التأكد من ورعهم، ومن أنهم ثقات يؤخذ عـنهم، ومـن الاتصال الزمني بينهم وبين من نقلوا الحديث عـنهم، ومـن إمكان التقاء هذا بذاك في مكان معين في زمن معين.

فعلماء الحديث والرجال - إذن - هما الخطوتان الأوليان من خطوات ثلاث في سبيل نشأة الكتابـة التاريخيـة عنـد المسلمين. فأما الخطوة الثالثة المكملة واللازمة لهم فهي كتابة السيرة النبوية من أجل الإحاطة بأفعال الرسول.

وهنا ينبغي التنبيه إلى أمر جد هـام: وهـو أن الصـدق والموضوعية كانا أوفر في مؤلفات كُتاب السـيرة الأوائـل الأقرب إلى زمن النبي، كعروة بن الزبير بن العوام (٦٤٣ – ٧١٢م)، وأبان بن عثمـان بـن عفـان (٦٤٢ – ٧٢٣ م)، وموسى بن عقبة (توفي عام ٧٥٨م)، وحديث المعجزات فيها أقل. والصراحة أكبر، وقد ضاعت للأسف هذه المؤلفات فلم يصلنا منها غير فقرات أوردتها كتب ابن إسحاق والواقـدي وابن سعد والطبـري وغيـرهم. وترجـع سـمة الصـدق والصراحة هذه في كتابات الأوائل إلى أسباب أهمها: أن القيم والمعايير والأذواق في عصرهم المقارب لعصر النبـي لـم يكن قد طرأ بعد عليها تغيير كبير، وأن حـديث الصـحابة ومعاصري الرسول عن أحداث زمانهم وأفعال النبي وأقواله كانت لا تزال حية في أذهان التابعين. أضف إلـى ذلـك أن إعجابهم الشديد بشخصية النبي، وحرصهم على الإحاطة بكل ما صدر عنه من أقوال وأفعال، وبكل صغيرة وكبيرة تتعلق به، ومن أجل إرساء دعائم الفقه والشريعة، ومعرفـة حكـم الدين في أدق تفصيلات الحياة اليومية، دفعهم إلى تسجيل كل ما يسمعون عنه، لا ينتقون ولا يتخيرون، ولا يستشـعرون

الحرج إزاء تدوين هذه الواقعة أو تلك. فكل ما صـدر عـن النبي خليق بالتوقير والدراسة. وإن كان هناك من الأفعال ما يصعب فهم بواعثه، أو لا يتفق مع العـرف الشـائع، فـإن المشكلة إنما هي في قصور فكرهم عن إدراك المغزى الذي قد تكشف الأيام عنه، والحكمة التي قد تتضح لأجيال تاليـة. وكان هذا دون أدنى ميل منهم إلى انتهاج نهج النصارى مع المسيح عليه السلام، ودون أن تغيب عن أذهانهم فكـرة أن محمدا إنما هو بشر مثلهم، يوحى إليه. فكان موقفهم إذن من السيرة النبوية متفقا مع موقف رجال الحديث، ثم المـؤرخين المسلمين بعدهم من علم التاريخ؛ إذ رأوا من واجبهم تسجيل مظاهر الإرادة الإلهية كما هي (أو كما تجلت لهم)، ثم التأمل فيها واستنباط العبرة، أو ترك التأمل فيها للأجيال التالية من أجل الكشف عن كُنه هذه الإرادة.

ازدهار

الكتابة التاريخية عند المسلمين

على هذا الأساس – إذن - ارتفع صرح الكتابة التاريخية عند المسلمين. وقد كان من بين أعلامها الأوائل محمد بـن

جرير الطبري (٨٣٩ - ٩٢٣ م) الذي بدأ محدثا فمفسـرا للقرآن فمؤرخا. وبالرغم من أننا اليوم نحل تفسـيره مكانـة أعلى بكثير من مكانة تاريخه، فلا مفر من الإقرار بأنه قـام في "تاريخ الرسل والملوك" بعمل مشابه لما قام به البخـاري ومسلم في الحديث، وهو اختيار المادة التاريخية الصـحيحة من مجموع المواد التي تقدمها كتب الأولين، وقد أسبغ علـى كتابه هذا تدقيق المتكلمين والفقهاء، مما أكسبه مكانة مرموقة في الأوساط الفكرية السنية في الإسلام، وجعل له أثرا عميقا هائلا في المؤرخين التالين له الذين اعتبروه مثلا يحتذى في الشكل الذي ينبغي أن تكون عليه كتب التاريخ.

ومع ذلك فقد كان هناك المجددون أيضـا. فقـد تحـول المسعودي مثلا (توفي عام ٩٥٦ م) عن الحوليات التي أرخ فيها الطبري للحوادث سنة بعد سنة، إلى سردها في روايـة واحدة متواصلة، مستغنيا عن الإسـناد، بـل وعـن ذكـر المصادر إلا فيما ندر. وقد حقق المسعودي واليعقوبي تحرير الكتابة التاريخية من قالبها الديني، وجعلاها علما مستقلا، ثم خطا مسكويه (توفي عام ١٠٣٠ م) خطوة أوسع فـي هـذا السبيل، وهو الذي شهد له الكافة بأن مؤهلاته لكتابة التاريخ

كانت أعظم من مؤهلات الطبري. فإذا كان مسكويه قد عمل مدة طويلة في خدمة ركن الدولة وعضد الدولة، أضحت لـه ميزة كبيرة وفرتها معرفتـه الشخصـية بمشـاهير رجـال عصره، وقدرته علـى الحصـول علـى المعلومـات مـن مصادرها الأصلية. أضف إلى ذلك أنه كان ملمـا بمنـاهج الإدارة وأساليب الحرب، مما يسر له وصف الأحداث وصف عارف، والحكم على التصرفات والسياسات حكم واقف على دقائقها. وبينما نجد الطبري مقِلا في ذكر اقتصاديات الدولة، نجد مسكويه يفيض ويدقق ويوضح ذلك الجانب الحيوي من التاريخ السياسي.

وقد بلغت الكتابة التاريخية عند المسلمين ذروتها بمقدمـة ابن خلدون (١٣٣٢ – ١٤٠٦ م) فبالرغم مـن أن تاريخـه لدول العالم الإسلامي – عدا شمال أفريقيا – يعتمد اعتمـادا كبيرا على من سبقه المؤرخين، خاصة الطبري وابن الأثير، فإن مقدمة الكتاب أحلت صاحبها مكانة سامية فـي تـاريخ الفكر الإنساني، وهي التي وصفها المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي بقوله: "إن ابن خلدون وضع فيهـا فلسـفة وقاعـدة للتاريخ لا شك في أنها أعظم عمل من نوعه قام بـه عقـل

بشري في أي زمان ومكان" وقد عالج ابن خلدون فيهـا مـا نسميه الآن "الظواهر الاجتماعية"، وما يسميه هـو "أحـوال الاجتماع الإنساني" راميا إلى الكشف عـن القـوانين التـي تخضع لها هذه الظواهر في نشأتها وتطورها. وهي قـوانين لم يعن أحد قبل ابن خلدون بالكشف عنها، ولا درسها عـالم قبله كما تدرس ظواهر الفلك والطبيعة والكيمياء ووظـائف الأعضاء، وما إلى ذلك من العلوم. فقـد كـان المعتقـد أن ظواهر الاجتماع خارجة عن نطـاق القـوانين، وخاضـعة لأهواء القادة وتوجيهات المشرعين ودعاة الإصلاح. فجـاء ابن خلدون مبينا أنها لا تسير حسب المصادفات والأهـواء، ولا حسب ما يريده لها الأفراد، وإنما تسـير فـي نشـأتها وتطورها حسب قوانين ثابتة مطردة، كالقوانين الخاضع لهـا القمر في تزايده وتناقصه، والنهار والليـل فـي اختلافهـا باختلاف الفصول.

قرون الانحطاط الفكري

غير أنه بمضي السـنين، وبازديـاد تحـرر المـؤرخين المسلمين من تأثير الفقهـاء ورقـابتهم، وانفصـال الكتابـة التاريخية عن علوم الدين، أثار المؤرخون عـداوة الفقهـاء

وريبتهم، وهما عداوة وريبة تحولتا إلى حرب مريرة علـى المؤرخين في عصور الانحطاط الفكري في الدولة الإسلام. وقد أسفرت هذه الحرب عن انتصار الفقهاء، وعن اضطرار المؤرخين إلى تبني موقف من أحداث الماضي شبيه بموقف الفقهاء منها، وأضحى الهدف من الكتابـات وأدب التـراجم وسيلة من وسائل غرس القيم الدينية، والمبـادئ الأخلاقيـة الرفيعة، والمثل العليا، لا تسجيل الحقائق بأكبر قدر مستطاع من الموضوعية بعد تمحيص ما تجمع منها لدى المؤرخ من أجل معرفة كُنه الإرادة الإلهية.

وكان أن بدأت الأيدي تمتد إلى التاريخ والتراجم والسيرة النبوية ذاتها لطمس بعض الحقائق، أو اختراع القصص مـن أجل التخفيف من تأثير معين أو إزالته، أو خلق تأثير معـين وتقويته، على أساس من التشكك في قيمة الحقيقية ما لم تكن تخدم غرضا أخلاقيا أو دينيا، ومن هنا بدأت تتكـون نظـرة المسلمين الرومانسية إلى تاريخهم وأبطال ماضيهم، وأضحت للحقيقة التاريخية مكانة تقل في الأهمية بكثير عـن هـدف الوعظ وبيان نماذج السلوك التي ينبغـي علـى المتقـين أن يحذوا حذوها أو يتجنبوها. ومثل هذه النظرة إلـى التـاريخ

وشخصياته لا شك في أنها لا يمكن أن تخدم الفهـم السـليم لمجريات الأمور والأحداث التاريخية.

ثم جاء الغزو العثماني للأقطار العربية بما صـحبه مـن موات فكري، فانصرفت غالبية المسلمين عن القراءة إلا في كتب الأدعية والحديث والشعر والحكايات الشـعبية، وأدارت للمؤلفات التاريخية ظهرها، حتى نسيت ماضيها أو كـادت، وحتى أهمل العلماء والمشايخ الكتابة في هذا الميدان، إلى أن ظهر الجبرتي في مستهل القرن الماضـي بكتابـه الخالـد "عجائب الآثار" فأعطى دفعة جديدة للكتابة التاريخيـة عنـد المسلمين.

الثقافة العربية في عالم متغير

بوسعنا القول: إن تقدم البشرية يمكـن أن يقـاس بعـدد وأهمية الحقائق التي لم تعد تثار الشكوك حولها، وأنه ما من أحد بمقدوره اليوم، (غير قلة يدينها الضمير البشـري)، أن يدافع عن نظام الرق (كما فعل أرسطو)، أو عن نظرية تفوق جنس على جنس (كما فعل جوبينو)، أو عن حرمان المـرأة في الحقوق مع الرجل (كما فعل ابن حجر الهيتمـي)، أو أن ينكر أنه لا إكراه في الدين، أو حقوق الأقليات، إلى آخره.

فإن كان بوسع البعض، وبحق، أن ينسب الفضل في هذه النتيجة (أي: تضييق حدود الشك وتوسيع دائرة الاتفاق على آراء معينة) إلى الدروس التي استقتها البشرية مـن وحـي تجاربها عبر قرون متتالية، فلا شك أيضا في أنه قـد كـان للمبدعين من المفكرين والفلاسفة والأدباء والفنانين يد طولى في هذا المضمار.

وفي ظني أن واجب هؤلاء المبدعين تجاه توسيع دائـرة الاتفاق قد بات مضاعفا وملحا في هذه المرحلة بالذات مـن تاريخ العالم، وذلك لسببين:

الأول: أن معظم مجالات النشاط البشري في عصرنا هذا، من سياسية واجتماعية وثقافية وعمرانيـة واقتصـادية، قـد أخذت بمبدأي التخطيط والتوجيه الواعيين، ولم تعـد تتـرك للمصادفة أو القدر أو المبادرات العفوية.. قد يرى البعض أن تطور المفاهيم والقيم حتمي سـواء سـاهم فيـه المفكـرون وخططوا له، أم لم يفعلوا. غير أني أعتقد أن هذا التطور إن تُرك وشأنه دون تخطيط واعٍ وتوجيه من جانب الصفوة، قد لا يتخذ دائما سمتا إيجابيا محمودا. كـذلك فـإن التخطـيط والتوجيه في مجال القيم والمعتقدات ليسا فقط ممكنـين، بـل

ولا غنى عنهما في هذا العصر بالذات، من أجل الوقوف في وجه المفاهيم الضالة، وتعزيز الاتجاهات المرغوب فيها.

والثاني: أن الإنسانية مقبلة على نظام عالمي جديد له مواصفات ومتطلبات؛ مثل تخلي الدول والشعوب عن المفهوم البالي عن حق الدولة في السيادة المطلقة داخل حدودها القومية، وحق حكامها في التصرف كما يهوون داخل هذه الحدود، واستئصال كل ما من شأنه أن يتعارض مع أمن العالم واستقراره، أو يهدد من مبادئ الحرية والديمقراطية، والليبرالية والتعددية، فهو إذ نظام يهمه في المقام الأول غرس مفاهيم جديدة عن الحرية والاستقلال، ومبادئ قانون أخلاقي جديد، ونشر الوعي بالمشكلات التي تواجه الجنس البشرى بأسره، كمشكلات البيئة، والطاقة النووية، والأمن الغذائي، والانفجار السكاني، والتعايش بين المعتقدات المختلفة.. إلى آخره.

فإزاء كل ما يشهده عالمنا المعاصر – إذن - من تغييرات ضخمة متلاحقة، تغدو المشكلة المحورية التي يتحتم على مفكري العالم العربي وأدبائه وفنانيه أن يحلوها مكان الصدارة في قائمة اهتماماتهم هي:

هل من المصلحة تكييف المفاهيم والقيم السائدة الآن في العالم العربي وفق الأحوال الحضارية والاجتماعية والبيئية المتغيرة في العالم ككل؟ فإن كانت الإجابة بالإيجاب؛ انتقلنا إلى التساؤل: كيف؟

وفي رأيي أن تعقد مظاهر المدنية الحديثة، وتشابك عناصرها المختلفة، يجعلان من أمر إعادة التكييف أمرا بالغ الصعوبة، ويجعلان من المصلحة أن تتصدى لهذه المهمة هيئةٌ دائمة، أو مجمع يضم نخبة من كبار الخبراء العرب في علوم الاقتصاد والاجتماع والسياسة والدين، وفي علوم التاريخ والمستقبل والتحول الاجتماعي، وعلماء النفس والأدباء والفنانين والفلاسفة، من أجل المساهمة بحوارهم ومداولاتهم ونتائج نقاشهم في كشف طبيعة التكيف المطلوب، وخلق أداة للتغيير والتوجيه العلمي الرشيد، تحل محل التغيير العفوي أو اللاشعوري، وتوفر الإجابات الواضحة الشافية على الأسئلة الخمسة التالية:

- ما هي القيم الأساسية التي ينبغي أن تحكم أي اتجاه إلى التكيف والمواءمة؟

- ما هي طبيعة التغيرات الرئيسية التي يشهدها العـالم المعاصر؟
- كيف يمكن مواجهة هذه التغيرات على ضوء القـيم الأساسية التي اخترناها؟
- ما هي التعديلات التي ينبغي إدخالهـا علـى القـيم الأساسية من أجل ضمان كفاءة أكبر فـي مواجهـة التغيرات؟
- ما هي حقائق البيئة المتغيرة التي يمكننا قبولها على ضوء قيمنا العربية أو الإسلامية؟ وما هي الحقـائق التي تُلزمنا تلك القيم بواجب مقاومتها؟

وتنبع ضرورة اشتراك ممثلين عن كل هذه الطوائف عن حقيقة بالغة الأهمية: هي أن عالم اليوم بـات يشـهد سـبلا متفرقة عديدة من سبل التفكير وأوجه التخصص، كل منها له جوانبه الإيجابية والسلبية، وله تأثيره العميـق الفعـال فـي منهاجية البحث، وبإمكانه أن يسهم في سـد أوجـه الـنقص الملموسة في السبل الأخرى.

أما من الناحية العملية، فإنه بوسعنا أن نتصور أن يعقـد مثل هذا المجمع سنويا اجتماعا موسعا، في حين تعمل لجانه

الفرعية على مدار السنة، وأن يختار أعضاؤه على أسـاس القدرة على المساهمة الفعالة في مهمة المجمـع، لا الكفـاءة العلمية أو الأدبية أو الفنية فحسب. وسيعرض هـؤلاء فـي اجتماعاتهم تصوراتِهم واقتراحاتِهم للعمل، ويناقشون ما تـم إنجازه، وكذا تقارير لجانهم الفرعية الخاصة بمشكلات الواقع الراهنة، وتحديات المستقبل المنظور، ويرصدون الممارسات الضارة بمثُل المجمع، وينبهون إليها. ويحاولون إيجاد الحلول لمشكلات تحول دون تحقيق الغايات، ويقـدمون التوصـيات للحكومات العربية بشأن طبيعة مناهج التعليم في المـدارس، أو مضمون برامج وسائل الإعلام.. إلى آخره.

واختصارا، فإنه ستكون مهمة هذا المجمع التخطيط لنمط الحياة والقيم المنشودة في المجتمع العربي الجديد، عن طريق تلاقح الآراء والمواقف المختلفة، وتوفير الإطار المرن لنمو مجتمع حيوي يهيئ لهذه الاتجاهات فرصة التعايش والتلاقح، وفرصة صياغة نتائج المناقشات الحرة في صـورة خطـة؛ حتى تحول دون نهوض القوة المدمرة نيابة عنهـا بتكييـف طباعنا، وتحديد مصيرنا.

وتتمثل أعتى هذه القوى المدمرة في حياتنا المعاصرة في أولئك الرجعيين من المسلمين الذي لا يعترفون بقابلية القـيم الدينية للتكيف والتعديل مع ثبات جوهرها، ولا يـدركون أن الفشل هو مصيرهم المحتوم ما لم يترجموا التجربة الدينيـة الحقيقية إلى لغة الظروف المستجدة، وأن الشلل أو التخريب هو عاقبة كل محاولة لتطبيق الأحكام بصورتها القديمة على هذه الظروف. وستكون من بين المهـام الرئيسـة للمجمـع المقترح أن يهدئ من مخاوف هؤلاء عن طريق بيان انتفـاء التعارض بين التمسك بمفهوم القيم وبين الاستجابة لاحتياجات البيئة الجديدة، وأنه إن كانت الأولى هي الكفيلة بتحديد الهدف النهائي من تصرفات المسـلم، فـإن الثانيـة تمكنـه مـن المعاصرة، وتحول بينه وبين الانسحاب.

إنه لمن المصلحة أن تدرك الكافة، بـادئ ذي بـدء، أن الإسلام لا ينفي ضرورة تغير القيم والمفاهيم بتغيير الأزمنة والظروف. فكلمة الإسلام تعني الإذعان لإرادة الله والتسـليم بغاياته، مع العمل على أن تكون هـذه الإرادة هـي العليـا. وباستطاعة العالم الواعي الذي يدرس حركة التاريخ وطبيعة التغيرات الطارئة بغرض استشفاف كُنه الإرادة الإلهيـة، أن

يميز بين الاتجاهات التاريخية الحتمية التي تمثل قضـاء الله الواجب الرضا به، وبين الأحداث والاتجاهات التـي تسـير ضد تيار التاريخ، وتقاوم حتميته، وتعرقل وصوله إلى هدفه، فيدرك أن واجبه أن يحارب تلك الاتجاهـات الأخيـرة، وأن يجاهد في سبيل الله ضدها، "حتى تصبح إرادة الله هي العليا" وعليه، فإنه يمكن أن نتصور أن يكـون بعـض الحركـات المسماة بالإسلامية في مجتمعنا ضد إرادة الله، (وبالتالي غير إسلامية ويحق لنا مقاومتها)، إن هي عميت عن كنه الإرادة الإلهية الكامنة في التغيير، وتجاهلت الحتمية التاريخية، وأبت أن تغيير مفاهيمها على ضوء المعارف المستجدة، في حـين يمكن أن تكون جماعـات غيرهـا، دون إدراك واعٍ منهـا، إسلامية حقا، إن كانت ذات وعي بالاتجاهـات التاريخيـة، مساعدة بجهدها على دفعها إلى غايتها المنشودة.

إننا نعلم جميعا أن الحياة هي عملية مستمرة من التكيـف وفق مواقف دائمة التغير، واختيار القيم التـي تحكـم هـذا التكيف جزء لا يتجزأ من هذه العملية. وقد أبدى المسـلمون الأوائل همة عظيمة في سبيل تطـوير العقيـدة والشـريعة والمفاهيم الإسلامية حتى أغلق باب الاجتهاد. ثم زاد الطـين

بلة ما أدت إليه عزلة المسلمين عن العالم الخارجي في ظـل الدولة العثمانية من جهل بالتطورات الإيجابية الهائلـة التـي حدثت في أوروبا خلال عصر نهضتها فكان من أثـر هـذا الجهل، مع ما اتصف به مجتمعنا لأكثر من أربعة قرون من سمات الركود والتحجر وقلة التغيرات الطارئـة فـي كافـة نواحي الحياة، أن ضعفت - أو خمدت - حاجة المسلمين إلى تطوير القيم والمفاهيم والعقيدة. فما فتحت أبـواب الاتصـال بأوروبا منذ قرابة قرنين حتى ثارت الأزمة الروحية التي ما كانت لتتسم بذلك القدر الرهيب من الحدة لـولا طـول أمـد العزلة والركود والإحجام عن الاجتهاد. عندئذ نشأ الإحساس لدى الصفوة بضرورة تطـوير المفـاهيم، وأدلـى الـبعض كالأفغاني ومحمد عبده بدلوه في هذا الشأن. غيـر أن تلـك الجهود الفردية، مع استنارتها، لم يجمعها تنظيم، ولـم يكـن بوسعها إدراك أهمية التخطيط الجماعي، فلـم يسـفر عنهـا بالتالي غير نتائج محدودة.

وقد بات مجتمعنا اليوم أشبه شيء بخلية النحل التي فقدت ملكتها.. قد نرى النحل مستمرا في مجيئـه وذهابـه، وقـد نحسب هذه الحركة حياة. غير أننا متى اقتربنا مـن الخليـة

لنتأملها بعناية، ستهولنا مظاهر الفوضى التي ضربت أطنابها فيها بعد رحيل الملكة، والتي جعلت من الأجدى التخلص من الخلية بإلقائها طعمة للنيران. وفي اعتقادي أنه بوسع هذا المجمع الذي اقترح تأسيسه أن يعيد إلى مجتمعنا الإسلامي حقه في البقاء على قيد الحياة بين الأمم النشطة المتوثبة حولنا.. لقد كان من حسن حظنا أن ووجِهنا بالتحدي الغربي، ثم بالتحدي الإسرائيلي، فأخرجنا الأول من عزلة قاتلة، وأيقظنا الثاني من سبات عميق. وقد خلق التحدي لنا مشكلة حضارية ضخمة. غير أن المشكلة ليست مستعصية على الحل.. هي إحدى تلك المشكلات التي وصفها نيتشه بأنها إن لم تقتلنا زادتنا قوة. ولكي لا تقتلنا هذه المشكلة لا بد من التقاء خيرة العقول في كافة المجالات عندنا في تنظيم؛ كي تتضافر على رسم معالم نظام حضاري جديد، والتخطيط له تخطيطا واقعيا لا هو بالمثالي ولا بالرجعي، فيضع بذلك حدا لعملية الانسحاب من التاريخ التي ينطوي عليها فكر الجماعات الدينية الرجعية في أقطارنا العربية.

حصاد نصف قرن من القومية العربية

١٩٤٣ - ١٩٩٣

تحل هذا العام (١٩٩٣) الذكرى الخمسون لتأسيس حزب البعث القومي العربي في دمشق بزعامة ميشيل عفلق وصلاح البيطار. وهي مناسبة تدعونا إلى التوقف لتأمل حصيلة الدعوة على مدى نصف قرن كامل إلى غرس مفهوم القومية العربية، وإلى العمل من أجل تحقيق الوحدة العربية.

في البدء كانت الكلمة

كان أول من لهج بفكرة القومية العربية عبد الرحمن الكواكبي الحلبي المولد (١٨٤٩ – ١٩٠٢)، وذلك في نهاية القرن التاسع عشر، حين كرر في كتابه "أم القرى" بالحرف الواحد ما سبق لويلفرد بلنت البريطانية أن عبر عنه من آراء في كتابه "مستقبل الإسلام" (١٨٨٢). ثم كان أن تبنى السيد محمد رشيد رضا (وهو الذي اتهمه محمد فريد في مذكراته بأنه عميل للبريطانيين) هذه الدعوة إلى القومية العربية في مجلة "المنار" في السنوات الأولى من القرن العشرين. وكانت

دعوةُ الرجلين، المستقاة من أفكار بلنت - والتي ركزت على بيان المركز الخاص الذي يتمتع بـه العـرب فـي إطـار الإسلام- أول نقلةٍ أكيدة من فكرة الجامعة الإسلامية التي دعا جمال الدين الأفغاني إليها، إلى فكرة القومية العربية.

ثم سرعان ما أضحت هذه الفكرة تعني في الأذهان تلـك الحركة الوطنية التي نشأت بين ظهراني عرب أقطار الدولة العثمانية، ودعت في بدايتها – بمباركة الحلفاء الأوروبيـين وتشجيعهم، بل وبوحي منهم – إلى الاستقلال عـن تركيـا حليفة الألمان في الحرب العالمية الأولى، ثم تطـورت بعـد تحقيقها لهذا الهدف، وبعد وقوع الأقطار العربية في بـراثن الاحتلالين البريطانيين والفرنسي، إلى الدعوة إلى قدر مـن الوحدة السياسية والاقتصادية بين هـذه الأقطـار، يتفـاوت بتفاوت أفكار الدعاة. وقد شجعت بريطانيا هذه الدعوة أيضا حين كانت مطمئنة إلى ولاء الوحدات المكونة لهذا التجمـع المنشود، وتمثل هذا التشجيع منها في خروج أنتـوني إيـدن بفكرة تأسيس الجامعة العربية. غير أنها عـادت وحاربـت الدعوة، هي وغيرها من الدول الغربية، خاصة بعد ظهـور

جمال عبد الناصر، وحين وضح لها خطورة مثل هذا التجمع وهذه الوحدة على مصالحها.

حزب البعث

وقد كان السياسيون والصحفيون والكتاب في العراق وسوريا ولبنان (أي: في مجموعة أقطار الهلال الخصيب التي حررها البريطانيون والفرنسيون من حكم العثمانيين خلال الحرب العالمية الأولى، ثم أخضعوها بعد ذلك لاحتلالهم)، أول من حمل لواء فكرة القومية العربية على نحو جاد، وسعوا إلى تطبيقها عمليا بادئين بصوغ الأسس النظرية والفلسفية والتاريخية لها. فقد ظهرت في الثلاثينيات في العراق وسوريا حركات صغيرة قوامها الشباب، وشعارها وحدة العرب، سرعان ما التحمت عام ١٩٤٣ في الحزب المسمى بحزب البعث. غير أن الدعوة ظلت مقصورة - أو تكاد - على العراق وسوريا ولبنان، وظلت مصر بمنأى عنها، وخارج نطاق الاهتمام بفكرة القومية العربية، حتى حمل عبد الناصر لواءها منذ عام ١٩٥٥، ربما حين ارتآها وسيلة فعالة لبسط هيمنته على أقطار المشرق والمغرب العربيين.

أما في شبه الجزيرة العربية، فإنه بالرغم من أن الشريف حسين كان أول من رفع راية الدعوة إلى الاستقلال عن الدولة العثمانية باسم العروبة (بإيحاء مباشر من بريطانيا، وبناء على وعد منهم بأن ينصبوه ملكًا على العرب)، فإن الأسرة السعودية التي أقصته عن الحكم وخلفته فيه، لم ترق لها فكرة إحلال مبدأ القومية العربية الذي ارتأته دنيويا صرفا، محل فكرة الجامعة الإسلامية؛ خاصة أن المجتمع القبلي في شبه الجزيرة لم يكن مهيئًا لتقبل ما ينطوي عليه مبدأ القومية العربية من معاني ومفاهيم.

ويمكننا أن نوجز دعوة الداعين إلى القومية العربية فيما يلي:

أن هناك أمة عربية واحدة، قد انقسمت بسبب ظروف خارجة عن إرادتها إلى دول مستقلة، وأن الواجب إعادة توحيدها في كيان سياسي عضوي واحد ذي سيادة، بالنظر إلى ما يجمع بينها من عناصر هي: الدين (الإسلام)، واللغة (العربية) والثقافة (الإسلامية)، والأرض الممتدة، والتاريخ المشترك، ثم أضيف إلى هذه العناصر عنصر جديد، وهو المصلحة الاقتصادية التي ستعود على الجميع من جراء

الوحدة. ولا شك في أن ظهور المشكلة الفلسطينية وقيام دولة إسرائيل في المنطقة، أضافا إلى الدعوة حافزا جديدا يتمثـل في وحدة الهدف، والإحساس بالخطر المشترك.

تقييم فكرة القومية العربية

وبوسعنا أن ننظر إلى فكرة القومية العربية، وأن نقيمهـا على ضوء الاعتبارات التالية:

أولا: أنها تمثل حاجة نفسية، لدى الأفراد - كمـا لـدى الشعوب - إلى الانتماء إلى جماعة.

وقد جاء التحول لدى معتنقـي الفكـرة مـن الانتمـاء الإسلامي إلى الانتماء العربي نتيجة لعدة عوامل:

- الضعف المطرد الذي طرأ على العقيدة الدينية لـدى الكثيرين ممن تبنوا نمط المعيشة الغربي.
- الضعف المطرد الذي أصاب الصلات بـين أقطـار العـالم الإسـلامي نتيجـة للتطـورات السياسـية والاجتماعية في دوله.
- الرغبة في ضمان مساهمة الأقليات غير المسلمة في هذه الحركة، وتجنـب وقوفهـا بمعـزل عنهـا أو مقاومتها.

كل هذا بالرغم من أن فكرة القومية العربية فكرة نابعة في المقام الأول عن مفهوم مثالي لماضٍ حضاري ديني.

ثانيا: أنها كانت تمثل في بدايتها رد فعل لاستمرار سيطرة عثمانية أبقت رعايا الدولة قرونا طويلة في حال من التخلف في مختلف مجالات النشاط العمراني. ولم يكن بالإمكان أن يتخذ العرب من الإسلام شعارا للمقاومة بالنظر إلى اشتراك الدولة المهيمنة (تركيا) مع رعاياها في الدين.

ثالثا: أنها تحولت بعد ذلك، فأصبحت تمثل رد فعل يقاوم الترتيبات الإقليمية والسياسية المصطنعة التي فرضها الاستعمار الأوروبي بعد انفصام عرى الدولة العثمانية وانفراط عقدها عام ١٩٢٠. فهي إذن دعوة إلى التجمع ولم الشتات، تناهض واقعا سياسيا مفروضا من التجزئة والانقسام.

رابعا: أنها باعتبارها فكرة بذر المستعمرون بذورها، ثم تولاها بالتعهد والرعاية طائفةٌ من مفكري العرب المتأثرين بالثقافة الغربية، كانت في مستهل تاريخها محاولة من جانب الاستعمار لقمع الشعور بالانتماء الإسلامي، ولإضعاف الخطر الذي يكمن في حركة الجامعة الإسلامية، والذي قد

يهدد في وقت ما مصالح الأوروبيين في المنطقة. وبالفعل فقد نجحت الدعوة: أولا في تجريد تركيا مـن حليفاتهـا أثنـاء الحرب العالمية الأولى، وثانيا في فصـم قـدر كبيـر مـن الروابط التي كانت تربط مسلمي الأقطار العربيـة بمسـلمي أقطار كإندونيسيا ونيجيريا وباكستان والاتحاد السوفييتي.

خامسا: أنه قد كان من المحتمل – بـل والأرجـح – أن يشجع الاستعمار الغربي فكرة قيـام وحـدة عربيـة تخـدم مصالحه وأغراضه، لو كان قد اطمأن إلـى اسـتقرار ولاء القيادات العربية للغرب. غير أنه بظهور جمال عبد الناصر، وغلبة النزعة إلى مقاومة الاستعمار الغربي على اتجاهـات المنادين بالوحدة، تحول الاستعمار الغربـي إلـى مقاومـة الفكرة، وإلى العمل على بثّ بذور الفرقة بين الدول العربيـة ذاتها للحيلولة دون تحققها. وعلى هذا الضوء أضحى مفهوم الوحدة العربية بمثابة رد فعل للأطماع الغربية فـي العـالم العربي، ونواة تجمع ضد الخطر الخارجي والعدو المشترك.

التناقضات الكامنة

هذه التناقضات الجوهرية في أسس فكرة القومية العربيـة ومراحل تطورها، هي التي حالـت – فـي زعمنـا- دون

تحقيقها لأي قدر ملموس من النجاح العملي بعد نصف قـرن من قيام الحركة الداعية إليها، بحيث نجد العالم العربي فـي يومنا هذا على حال من التمزق والتفرق، والعداوة والبـداوة، لم يعرف التاريخ الحديث للمنطقة لها مثيلا:

- فهي فكرة إسلامية وغير إسلامية: إسلامية باعتبـار أن الوحدات المكونة لها كانت دائما شـديدة الـوعي بماضيها الإسلامي، شديدة التركيـز علـى أمجـاد الحضارة الإسلامية في أوجها، شديدة الميـل إلـى إسباغ نفس مفهوم التضامن الذي كان قائما في الأمة العربية.. وغير إسلامية باعتبار أنها نشأت كبـديل للرابطة الإسلامية حين ضـعف التمسـك بأهـداب الإسلام نتيجة لتغلغل الحضارة الأوروبية، ووهنـت الصلات بين أقطار العالم الإسلامي، وحين اتجهـت النية إلى خلق إطار يسع الأقليـات العربيـة غيـر المسلمة ولا ينفرها منه.
- وهي فكـرة اسـتعمارية ومناهضـة للاسـتعمار: استعمارية باعتبارها أداة تضعف من حركة الجامعة الإسلامية، ومن الروابط التي كان يمكن أن تجعـل

من منطقة أشمل وأوسع حدودا، كتلةً تمثل درعا قويا في وجه الخطر الأوروبي والغربـي.. ومناهضـة للاستعمار باعتبارها رد فعل لتقسيم مصطنع لأقطار الدولة العثمانية.

أضف إلى ذلك:

- أن تطوير الإدارة في الـدول العربيـة علـى يـد المستعمرين، وكذا تطوير الاقتصاد والتشريع والتعليم والأجهزة الحكومية على أسـس تختلـف مـن دول عربية إلى أخرى (ربما عن عمد) خلق من التبـاين في هياكل هذه الدول ما يزيد من صـعوبة تحقيـق هدف الوحدة.
- أن القومية بالضرورة مفهوم دنيوي لا ديني. وهـو مفهوم نشأ أصلا في أوروبا لخدمة مصالح الطبقـة البورجوازية في أقطارها، وكان وراءه يعضده ويشد من أزره تاريخٌ طويل، وقدر ضخم مـن المؤلفـات الفلسفية الخاصة بالدولة وعلمانيتها والسلطة فيها: أما في الأقطار العربية، فإن الفكرة ظلت تستند - فـي جانب كبير منها - إلى أساس الإسلام، ولم يتوفر لها

ما توفر للقومية في أوروبا من فكـر فلسـفي بعيـد العهد، ولا الطبقة البورجوازية الوطنية التي يمكن أن تستفيد منها. وقد حاول البعض (من أمثال قسطنطين زريق، وعبد الله العلايلـي، وسـاطع الحصـري، وعبد اللطيف شرارة، وعبد الرحمن البزاز، وميشيل عفلق) أن يتداركوا هذا النقص، وأن يوفروا الأسس الأيديولوجية اللازمة لقومية علمانيـة، إن اعترفـت بالإسلام ركنا منها؛ فباعتباره ثقافة قوميـة لا دينـا، وباعتبار هذه الثقافة القومية ممثلة للروح العربيـة.. بيد أن القسط الأوفر من جهودهم كان مسـتقى مـن كتابات المفكرين الأوروبيين، خاصة روسو وهيجيل ومازيني (كفكرة الشخصية المستقلة للدولة بصـفتها ضرورة تاريخية، واعتبار الأمة بناء نفسيا وأخلاقيا مع إعطاء الأولوية للكل العضوي الذي هـو الأمـة على الأفراد المكونين لها، وإحلال المفهوم الأوروبي الخالص للأمة محل المفهوم الإسلامي لها). أما فيما عدا ذلك، فقد غلـب علـيهم الطـابع الرومانسـي الوجداني الذي يتجاهل المصالح والصراعات الطبقية

تجاهلا تاما، وهو ما يتمثل في قولة ميشيل عفلـق: "إن القومية هي المحبة قبل أي شيء آخر"!

عبد الناصر يدخل الميدان

وقد لقيت القومية العربية سندا جديدا لها في أحداث العالم العربي منذ عام ١٩٤٩، والانقلابات المتتالية التي أطاحـت بالكثير من الأنظمة العربية القديمة (سوريا عـام ١٩٤٩ – مصر عام ١٩٥٢ – العراق والسودان عام ١٩٥٨ – الـيمن عام ١٩٦٢ – اليمن الجنـوبي عـام ١٩٦٧ – ليبيـا عـام ١٩٦٩).. فقد ظهرت حركات شعبية ذات مزاعم أيديولوجية (كحركة البعث والناصرية) تقول بحتمية الوحـدة العربيـة، وتتخذ موقف العداء الشديد من الغرب، وتنـادي بالإصـلاح الاقتصادي والاجتماعي في الوطن العربي، ثم بالاشـتراكية، مع إعادة لتعريف القومية العربية بحيث يستبعد الرجعيين من الحكام العرب، ومع اعتبار إسـرائيل العـدو اللـدود لهـذه القومية.

لقد ظلت القومية العربية حتى ذلك الحـين - فـي عهـد ملكيات المنطقة – مفهوما وديعا متواضعا، لا يكـاد يتعـدى كتابات عدد محدود من المفكرين، ومآدب في القصور الملكية

لزعماء العرب يخطب فيها الخطباء ويتغنى المغنون.. أمـا مع ظهور عبد الناصر بمطامحه، فقد أضفى طابعـا جديـدا على القومية العربية أدى إلـى عـداءات عربيـة عنيفـة، وصراعات على زعامة العالم العربي (خاصة بـين مصـر العراق والمملكة السعودية)، بل وإلى حروب أهلية (لبنـان عام ١٩٥٨، واليمن فيما بين ١٩٦٢ و ١٩٦٧) وقد قامـت في مصر بدءا بعام ١٩٥٥، ولأول مرة في تاريخها، حملاتٌ منظمة واسعة النطاق تحاول غرس مفهوم القومية العربيـة والانتماء العربي في أذهان أفراد الشعب، وذلك عن طريـق وسائل الإعلام القوية، والمناهج الدراسـية فـي المـدارس والجامعات، وكتابـات المفكـرين المنصـاعين للنظـام أو المخلصين في عقيدتهم، وخطب الزعماء والقادة، ودعايـات الاتحاد الاشتراكي بشعاراته ولافتاته.. وقد بدا في وقت مـن الأوقات (خاصة عند قيام الجمهورية العربية المتحـدة التـي ضمت مصر وسوريا عام ١٩٥٨) وكـأن فكـرة القوميـة العربية، بمفهومها المعادي للغرب، قد دخلت حيـز التنفيـذ وبدأت قسطًا من النجاح، فكان أن شـمر الغـرب سـاعده لضربها بالتحالف مع الأنظمة الرجعية في المنطقـة، فكـان

انفصال سوريا عن مصر عام ١٩٦١، وكانت حرب ١٩٦٧ التي قلمت نهائيا من أظفار عبد الناصـر وأذهبـت ريحـه، وشككت العرب في أنفسهم وقدراتهم، وشككت شعب مصـر في جدوى النظام الاشتراكي، وجدوى التدخل فـي الشـئون العربية الداخلية، خاصة وقد اعتبـر تـدخل عبـد الناصـر المشئوم في اليمن أحد أسباب الهزيمة في الحرب علـى يـد إسرائيل.

فشل عبد الناصر إذن في توحيد الأمة العربية عن طريق الدعاية أو الثورة أو استخدام القوة، كما فشل حزب البعث في تحقيق الوحدة أو الاشتراكية في قلاعه الأصلية، وهي سوريا والعراق والأردن.. وقد انتهى الحـال بعبـد الناصـر فـي السنوات الثلاث الأخيرة من حكمه – وبعد أن خالت الأمـة العربية أنه صلاح الدين الجديد – إلى أن أصبح تابعا للاتحاد السوفييتي، يكاد اعتماده أن يكون مقصورا عليه مـن أجـل إنقاذه من ورطتيه: الاقتصادية والعسكرية.

في السبعينيات

غير أن اختفاء عبد الناصر من مسرح الأحداث العربـي عام ١٩٧٠، والظروف التي أدت إلى حرب أكتـوبر عـام

١٩٧٣ ضد إسرائيل، وهي التي أسفرت عن قدر من النصر رد إلى العرب ثقتهم المفقودة في أنفسهم، وتعاظم نفوذ عـدد من الدول العربية النفطية بالغة الثراء، وتأثيره في الاقتصاد العالمي وفي اتجاهات الدول الغربية - حتى بصدد إسرائيل، كل هذا أدى إلى إعطاء دفعة جديدة للقومية العربية، ولكـن مع إضفاء طابع جديد عليها.. فقـد تبـددت الآن الأوهـام الرومانسية التي كانت لصيقة بأفكار حـزب البعـث، كمـا تبخرت المطامح والنزعات البروسية للزعامـة المصـرية، ودخل مفهوم القومية العربي في صورته الجديدة شكلاً مـن التضامن على أساس من المصلحة المشتركة، وإدراك للخطر الاقتصادي والسياسي والحضاري الـذي تمثلـه إسـرائيل، ووعي بإمكان إقامة تكتل اقتصادي عربي إقليمي ينافس كتلة الدولة الغربية الصناعية.. وقد كانت هـذه هـي الصـورة الجديدة التي بدت عليها القومية العربية عقب حرب ١٩٧٣.

وحيث إن أغنى الدول العربية الممولة لهذا الشكل الجديد هي من الناحيتين السياسية والاجتماعية أشـد دول المنطقـة محافظة وتمسكا بالتقاليد، فإن الاشتراكية لم تعد الطابع البارز

للقومية العربية، وإنما أصبح طابعها الغالب ربـط العروبـة بالإسلامية ربطا دعامته المال والثراء.

ولم يكن ثمة مفر إزاء هذا البعث الجديد للقومية العربيـة عقب حرب ١٩٧٣، وإزاء صورتها التي بدت أكثر واقعيـة وأقرب احتمالا لتحقيق أهدافها، من أن يحاول الغرب تسـديد ضربات أخرى إليها، والعمل جادا على بث بـذور الشـقاق والفرقة في الصفوف. وكما أنه في عام ١٩٦٧ قـد اختـار مصر هدفًا أوليا لصب نقمته (عن طريق إلحـاق الهزيمـة الساحقة بجيشها)، فقد اختارها الآن ولكن على نحو مخـالف وبناء على الاعتبارات التالية:

- أن فكرة القومية العربية والوحدة لم تظهـر فيهـا - على نحو جاد - إلا متأخرة عـن الـدول العربيـة الأخرى.
- أن هذه الفكرة لم تتغلغل في نفوس المصريين تغلغلا كافيا، ولم تتعد - بأي حال من الأحـوال - رءوس أقلية من أصحاب الأقلام المتأثرين بالأفكار الغربيـة (لا الإسلامية)، ومن سكان المـدن، دون الأغلبيـة الساحقة من سكانها من الفلاحين ثم من العمال الذين

لم يشعروا في أي وقت من الأوقات بالحاجة إليهـا. أما مثقفو القبط، فبالرغم من أن بعضهم مـال إلـى الفكرة على أمل منه في أنها قد توفر إطارا سياسـيا دنيويا مقبولا لديهم، فإن غالبية أفراد الطائفة ظلـت دائما في خشية من قيام رابطة عضوية بين القوميـة العربية والإسلامية.

- أن التجربة الفاشلة للوحـدة مـع سـوريا شـككت المصريين في جدوى الوحدة، وإمكان تحققها عمليا.
- ميل عدد كبير من المصريين إلى الإحساس بانتمـاء لهم غير عربي، يغذيه فيهم قِدم ماضـيهم وأمجـاد أجدادهم من الفراعنة.
- ضعف حصيلة المصريين عامة من التراث العربـي والإسلامي، بالمقارنة بغيرهم في سوريا أو العـراق مثلا.
- اعتقاد المصريين أن ما لحقهم من ضائقة اقتصـادية إنما نجم عن خوضهم حروبا باهظة الكلفة لم يسـهم فيها غيرهم من العرب إسهاما كافيا، مع إحساسـهم بضعف المساعدة الماليـة العربيـة لمصـر رغـم

التضحيات التي تقدمها مصر في سبيل قضية عربية تهم الجميع (وهو إحساس غذته الصحافة المصـرية ووسائل الإعلام الأخرى بها في عهد أنور السادات).

- ثم فوق كل شيء آخر، ذلك التدهور الرهيب الـذي طرأ على الأحوال المعيشية والاجتماعية والاقتصادية في مصر، مما ضخم في نفوس أبنائها الرغبة فـي إنهاء الصراع والحروب مع إسرائيل، وهو ما صور لهم على أنه السبب الرئيسي في هذا التدهور، وهـو تدهور من الجائز أن يكون الغرب قـد أسـهم فـي التسبب فيه لإحداث هذه النتيجة ذاتها.

وكان أن انصرفت جهود الغرب إلى محاولة تحقيق صلح بين مصر وإسرائيل، يخرج أقوى دولة عربيـة وأعظمهـا نفوذًا من حظيرة الدول العربية، ساعيا - في الوقت ذاتـه - إلى إثارة الشقاق في جبهات متعددة داخل العـالم العربـي، ومعتمدا في سعيه هذا على ما بين قادة العرب مـن تنـافس على الزعامة، وعلى ركاكة قرائحهم، وغلبة الأثَرة عليهم.

ولا شك في أن التوفيق كان حليف هذه الجهود، بـالرغم من قرار قبول مصر من جديد عضوا بالجامعة العربية بعـد

عشر سنوات من القطيعة، وبالرغم من اتجـاه دول عربيـة كثيرة اليوم إلى قبول فكرة الدخول في مفاوضات صلح مـع إسرائيل، أُسوة بما فعلته مصر عشية إبرامها اتفاقيات كامب ديفيد، وهما أمران - وإن كانا أفلحا إلى حد مـا فـي رأْب بعض التصدع في صفوف العرب - لا يمكن مقارنةُ أثرهما بالآثار الهدامة المفجعة التي لحقت بأفكار القومية العربيـة، والتضامن العربي، والوحدة العربيـة، مـن جـراء الغـزو العراقي للكويت عام ١٩٩٠.

القسم الثاني

متنوعات

حيرة إسرائيل

بين السلام واستمرار الخصومة

الحيرة التي لمسناها في إسرائيل إزاء محادثات السلام مع العرب، حيرة حقيقية عميقة لا صلة لها بتمثيل الفلسـطينيين، ولا الخوف من ضغوط قد تمارس تجاهها، أو الخشية مـن اضطرارها إلى الانسحاب من أرض محتلة، ولا هي حيـرة مصطنعة تهدف إلى تقوية يدها عند المساومة.. فـإن كـان إسحاق شامير قد تمكن من الحصول على موافقة الأغلبية في مجلس وزرائه على الاشتراك في المحادثات، فإن معارضـة الأقلية المتشددة داخل المجلس تعكس مشـاعر القلـق لـدى الكثيرين من اليهود في إسرائيل إزاء مشكلة جـد عويصـة، ربما كانت أعوص وأشد خطرا من مشـكلات الاضـطهاد والتمييز والتشريد التي عرفوها في الماضـي، ومشـكلات الإرهاب، وضرورة الإنفاق الضخم على التسـلح، وعـداوة جيرانها العرب لها، مما يعرفونه اليوم.

إنها مشكلة الخطر الذي يتهدد الهوية الدينية لدولة إسرائيل والأمة اليهودية من جراء إقرار السلام مع العرب، وتحـول

إسرائيل بعده إلى مجرد دولة عادية عصرية من دول منطقة الشرق الأوسط..

غير أن الأمر يحتاج منا إلى أن نبدأ بمقدمة تاريخية.

(١)

بنشوب الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، ودعوة قادتها إلـى دين جديد هو دين العقل، وإلى التسامح والمسـاواة، فـوجئ اليهود الأوروبيون بقدر ضخم من التحرر لم يخْبروا مثله في تاريخهم إلا خلال القرون الأولى من الدولة الإسلامية، وربما في ظل الجمهورية الرومانية.. فقد أضحوا، رسميا، مواطنين في الدول التي يسكنونها، لهم ما لغيرهم من غير اليهود مـن الحقوق، وعليهم ما على الآخرين مـن واجبـات، وبـاتوا مطالبين في نفس الوقت، أو بات مـن المنتظـر مـنهم، أن يندمجوا اندماجا كاملا في المجتمـع الـذي يعيشـون فيـه، بأنظمته السياسية والاجتماعية والاقتصادية والحضارية، حتى مع احتفاظهم بديانتهم وهويتهم.

غير أن هذا التحرر أثار لليهود مشكلة ضخمة جديدة. فهم كانوا قد اعتادوا في شتاتهم الذي دام ما يقرب من ألفي عـام أوضاعا معينة خاصة بهم، ونمطًا من العيش جـاء التحـرر

والمساواة والاندماج زلزل كيانه.. والمؤكد أنه ليس صحيحا ذلك الاعتقاد الشائع بأن كافة اليهود رحبوا بمساواتهم بغيرهم من المواطنين؛ فالكثيرون من زعمائهم ورجال دينهم الـذين ارتبطت مصالحهم الخاصة بالوضع التقليدي لليهود كأقليـة مضطهدة مكروهة، وجدوا نفوذهم بين اليهود يتزعزع نتيجة لما منحوه من حقوق، ووفر لهم من مساواة وتسامح دينـي. وكانت هناك خشية لدى هـؤلاء وغيـرهم مـن العواقـب "الوخيمة" على الديانة والتقاليد اليهودية للمسـاواة السياسـية الكاملة، بما تتضمنه من حق الانتخاب والخدمة العسـكرية، وما تعنيه أيضا من مطالبتهم بإنهاء عزلتهم وعيشهم المستقل عن غيرهم، وإلغاء حق زعمائهم في تدبير شئونهم.

وقد تبين للمفكرين والمتدينين اليهود بمرور الوقـت أنـه وإن كان التحرر والمساواة قد خدما الفرد اليهـود العـادي، وحسنا من ظروفه المعيشـية والاجتماعيـة والاقتصـادية، وأراحاه من التمييز والبغضاء والاحتقار وسوء المعاملة، فقد ثبت أنهما يهددان الأمة ككل، وينخران في العقيدة اليهوديـة، خاصة مع ذلك الإصرار المستمر من جانب المسيحيين على أن الشرط الأول لتحقيق التحرر التام لليهود هو أن يتخلـوا

عن كل المظاهر الانفصالية والانعزالية لنمط عيشـهم، وأن يهجروا تقاليدهم التلمودية، وأن يتزاوجوا معهم، وهو موقف يعني انتشاره نهاية اليهودية، وذوبان كيان الأمة على النحـو الذي كاد أن يحدث في أقطار الدولة الإسلامية في العصـر الوسيط في ظل التسامح الديني.

في ظل التحرر إذن بدأت وحدةُ الشـعب اليهـودي فـي التفكك، خاصة مع غلبة تيار العقلانية، وانتشار المادية فـي العصر الحديث، وروح الاستخفاف بالـدين، والسـعي وراء الملذات خارج الحياة الروحية، وطلب صنوف المتَع واللهو، وقد كتب إسرائيل هيلد يشايمر عام ١٨٦٧ يقول: "إن تسـعة أعشار الشباب اليهودي قد باتوا إما ملحدين أو غير آبهـين بالدين. وهاجم كل من أيجر، وموشي شـرايبر، وصـامويل دافيد لوتزاتو تحرير اليهود ومساواتهم بغيرهم، واستنكر تبني اليهود لأنماط العيش الغربية كثمن للتحرر، وأبـرز أوجـه الخلاف والاختلاف بين اليهوديـة والحضـارة المسـيحية، ووصف التحرر بأنه لا يعدو أن يكون "عبودية فـي إطـار الحرية" وارتفعت الأصوات اعتبارا من النصف الثاني مـن القرن التاسع عشر تنادي بالقومية اليهودية، وتطالب بدلا من

المساواة بنظام من الحقوق للأقليات، والحكم الذاتي الطائفي، وحرية اللغة والتعليم المدرسي المستقل وتقرير المصير، بدلا من الاندماج القومي في الغالبية من السكان.

(٢)

ثم كان أن ظهرت الحركة الصهيونية التي يحسب النـاس أنها رد فعل لمظاهر العداء للسامية، ولمظـاهر الاضـطهاد والظلم التي عانى منها اليهود في شتاتهم. ويكفيني لبيان فساد هذا الاعتقاد أن أشير إلى أن الدعوة الصهيونية لم تظهر إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشـر، وفـي أوروبـا الغربية، حين كان التحرر اليهودي ومساواة اليهود بغيرهم قد قطعا شوطا بعيدا، ولم تظهر لا في أقطار كروسيا وشـرق أوروبا؛ حيث كانت مظاهر العداء للسامية قوية ملموسة، ولا قبل الثورة الفرنسية في عصور الاضطهاد الحقيقي لليهود.

وواقع الأمر - في رأيي - أن الحركة الصـهيونية إنمـا جاءت كرد فعل لتحرير اليهود ومسـاواتهم وانـدماجهم، لا للعداء للسامية.

ذلك أن زعماء هذه الحركة إنما كانوا من بين أناس آمنوا إيمانا قويا بأن اليهودية لا يمكن أن تظل قائمة بانتهاء عزلـة

اليهود، وتآكل نمط حياتهم باندماجهم في الحيـاة السياسـية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في الدول المختلفة التـي يعيشون فيها.

نظر دعاة الصهيونية إلى اليهود في أوروبـا والولايـات المتحدة، فإذا هم يرون العلمانيين منهم وهم يعلنون أنهم لـم يعودوا في حاجة إلى مسيح يخلصهم من الاضطهاد؛ إذ لـم يعد ثمة اضطهاد، ويرون المثقفين يجاهرون باعتقـادهم أن الوصايا العشر وغيرها من الأوامر والنواهي الدينيـة إنمـا كانت مرتبطة بأسباب وظروف تاريخية معينـة قـد زالـت وانقضت. فهي ليست شريعة ميتة فحسب – على حد تعبيـر بولس الرسول – وإنما هي أيضا عقبة في سـبيل الحداثـة والاندماج في المجتمع الدولي، وتأسيس روابط الود والإخاء مع جيرانهم.

وقد أصاب الصهيونيين الذعر إذ يرون الكثيرين من بني جلدتهم يتزاوجون مع غير اليهود، والآلاف من شبابهم تعتنق الماركسية وغيرها من المذاهب الاشتراكية، ومن علمـائهم ومثقفيهم وقد شرعوا يفسرون الديانة اليهودية وبداياتها وفق المفاهيم العلمية الحديثة، وينقدون "العهد القديم" على ضـوء

أفكار سبينوزا ومندلسون، ويذهبون إلى أنه ليس في التوراة في حقيقة الأمر جديد، وأنها تكاد تكون برمتها مأخوذ عـن عقائد مصر الفرعونية وبابل وفينيقيا. كمـا رأوا التقـدميين منهم وقد شاع بينهم هجر التقاليد وأنماط العـيش القديمـة، (رغم أن اليهودية إنما تعنى بنمط العيش أكثر ممـا تعنـى بالعقائد)، ولم يعودوا يحترمون إجازة السبت ومتطلباتها، ولا يحتفلون بالأعياد، ويرونها ضارة بالاقتصاد ومضيعة للوقت ومجحفة بالتجارة، كما هجروا فرض الختان الذي هو الطقس التقليدي للدخول في عهد إبراهيم، وبلغت بهـم القحـة حـد وصف كل ذلك وغيره بالتقاليد البالية التي لا تناسب أحـوال العصر الحديث واحتياجاته.

فالصهيونيون إذن هم في الأصل جماعة تؤمن بأن لليهود رسالة خاصة، وهوية خاصة، قد أضحتا في خطـر نتيجـة انتشار العلمانية والمادية والإلحاد، ونتيجة لذوبان اليهود فـي المجتمعات حولهم. ومن اللازم حماية الشعب اليهودي مـن هذا الخطر بتجميعه في وطن خاص به، ويواصل فيه أهدافه الحضارية دون تأثير أجنبي. وعندهم أن اليهود كانوا دائمـا وحدة حضارية مستقلة، وينبغي أن يظلوا كذلك. كما أعلنـوا

صراحة تفضيلهم لوضع اليهود في أقطار القارة الأوروبية قبل الثورة الفرنسية حين كانوا يتمتعون بحكم ذاتي واسع النطاق دون المساواة.. فالحكم الذاتي دون مساواة هو في رأيهم أفضل لليهود من المساواة دون حكم ذاتي. أما عن خرافة "التسامح الديني" فهي ليست ناجمة عن اتساع أفق وتهذيب طباع كما يدعي البعض، وإنما هي ثمرة الإلحاد الذي ساد أهل هذا الزمان، وما أسهل التسامح على غير المؤمن!

(٣)

مثل هذه الخشية من الذوبان في المجتمعات المحيطة، لا هي بالجديدة على اليهود، ولا بالمقصورة على أفراد ملتهم.

فكثيرا ما حدث في التاريخ أن لجأت دول أو أمم أو طوائف أو جماعات إلى اعتناق ديانة أو مذهب، أو حتى عقيدة سياسية أو اقتصادية، تنفرد به أو بها عن سائر ما يحيط بها من دول أو جماعات، فتجعل عقيدتها مذهبا رسميا، ولا يكون وراء هذا الاعتناق غير شدة الحرص على بقاء الدولة أو الجماعة متميزة عن جيرانها الذين يهددون كيانها ومقوماتها، والحرص على إضفاء طابع قوي من الاتحاد

والتضامن بين أفرادها، يحول بينهم وبين الذوبان والضياع في خضم جيران حولهم هم أكثر عددا. وكلما اشتدت هذه الغيرة على الحرية والاستقلال والسمات الشخصية، زاد اتجاه القادة إلى إدخال نظريات جد غريبة، أو طقوس جد متميزة في عقيدة الجماعة؛ حتى يستبعدوا كل احتمال لأن تكون هناك أرضية مشتركة بين الجماعة وجيرانها، وحتى تحقق العزلة الكاملة للجماعة، ويزيد إحساس أفرادها بحاجتهم إلى التضامن والتكاتف، وباعتماد بعضهم على بعض من أجل درء الخطر المشترك.

ففي التاريخ اليهودي نجد المكابيين (أو المقارع) يقومون في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد بجهد جماعي انتحاري في فلسطين من أجل مقاومة التهديد الحضاري الهيليني لتراث اليهود وتقاليدهم.

وجاء مِن بعدهم الفريسيون الذين وضعوا القواعد الصارمة المفصلة التي تكفل تجنب كل صلة بمن هو ليس يهوديا، وتحذر من تأثير الهيلينية التي رأوها تهدد بابتلاع الديانة اليهودية واستئصالها من الوجود.

فإن انتقلنا إلى الدروز فـي الشـام، وجـدناهم يسـكنون المناطق الجبلية، وأهل الجبال في العادة شديدو الاختلاف في الخلق والعادات والطباع عمن يجاورهم من أهـل السـهول الأكثر عددا، وبالغو الحرص على ألا تُفسد الصلاتُ بيـنهم وبين جيرانهم - تقاليدهم المتميزة. وقد وجد سـكان بعـض المناطق الجبلية بالشام في العقيدة الدروزية التي تؤله الحاكم بأمر الله وتذهب إلى أنه لم يقتل وإنما اختفـى عنـد سـور الصين العظيم، وسيعود في وقت مـا لينشـر العدالـة فـي الأرض، وسيلة مناسبة لتحقيق هذا الغرض، ونجحـوا فـي خلق روح من التضامن الوثيق بين أفراد طائفتهم في مواجهة العالم الخارجي بأسره.

وفي إيران، وبالرغم من أن غالبية سكانها عـام ١٥٠١ كانت سنية المذهب، قرر مؤسس الدولـة الصـفوية فيهـا إسماعيل الصفوي أن يكون مذهب الاثنا عشرية الشيعي هو المذهب الرسمي للدولة، ومارس مختلـف الضـغوط علـى الشعب الإيراني من أجل تحويله عن سنيته؛ وذلك في سـبيل إقامة حاجز من الكراهية والريبة في وجه العثمانيين السنيين

الزاحفين شرقا لاقتطاع القوقاز وأذربيجـان والعـراق مـن الدولة الإيرانية.

وفي منتصف القرن التاسع عشر ظهـرت فـي روسـيا جماعة من المفكرين والمثقفين تدعى بالسلافوفيل تذهب إلى أن الروس أمة فضلها الله على العالمين، وأنهم أرقى خلقيـا وحضاريا وسياسيا ودينيا من غيرهم، وأن عليهم بالتـالي أن يحذروا دعاة التغريب، وأن يقاوموا تأثير أوروبـا الغربيـة الزاحف إلى بلادهم، وأن يقلصوا علاقتهم بها إلـى أقصـى حد ممكن.

وقد تكرر حدوث هذه الظاهرة في الإسلام، وكـان مـن أمثلتها الحديثة في مصر الجماعة الإسلامية التي أقدم أفرادها على تكفير المجتمع الذي يعيشون فيه، واختاروا أن يوصدوا الأبواب عليهم دون المجتمع بأسره؛ حتـى لا يتـأثر ديـنهم بمظاهر الفساد والانحلال ووهن العقيدة الدينية حولهم.

(٤)

بيد أنه إن كانت الظروف التاريخية خلال الألفـي عـام الماضيين قد سمحت بظهور مثل هذه الاتجاهات الانعزاليـة لفترات تطول حينا وتقصر حينا، فأغلب ظني أنها اتجاهـات

مقضي عليها بالفشل الذريع في ظل المجتمع الدولي الجديد الذي نشهد اليوم بزوغ فجره، واتضاح معالمه.

بزوغ فجر هو أشبه ما يكون ببزوغ فجر المسيحية في تاريخ البشرية؛ إذ كيف يمكننا أن نفسر فشل المكابيين والفريسيين في القرن الأول قبل الميلاد، إلا على ضوء ازدياد قوة الاتجاه في ظل الدولة الرومانية إلى تحويل أقطار العالم المعرف آنذاك إلى وحدة سياسية متشابكة، تسودها بعد ذلك عقيدة قوية متماسكة، فجاءت الديانة المسيحية تيسر قبول الأمة للأوضاع الجديدة المطلوبة ومسايرتها، وكانت أخلاقياتها خير سبيل إلى ضمان التعايش السلمي بين أهل فلسطين وحكامها الرومان، في حين كانت أخلاقيات المكابيين والفريسيين تعرقل هذا الانسجام؟

وكيف يمكننا أن نفسر اليوم ما شهدناه في الأعوام القليلة الماضية من انهيار مفاجئ ذي دوي رهيب للستار الحديدي الذي أقامه ستالين بين دولته ودول أوروبا الشرقية، وبين العالم الخارجي، من أجل الحيلولة دون تسلل التأثيرات الخارجية إليها، إلا على ضوء القدرات الجديدة التي باتت البشرية تملكها اليوم، وتضاؤل العالم نتيجة التغيرات التي

أحدثها تقدم في العلم لم يسبق له مثيل، بحيث كان لا بد من تحطم البنيان السياسي الذي عرفه القرنان التاسع عشر والعشرون، وتبين للجميع في جلاء أنه من المستحيل أن تعاد إقامة البنيان الاقتصادي والسياسي للعالم على النمط القديم، وأن مسيرة العائلة البشرية نحو عصر السلام والرخاء، ونحو الأخوة الإنسانية المشتركة، قد جعل منها العلم الحديث البديلَ الوحيد لتدهور الحضارة وسقوطها؟

وما من شك عندي في أن موقف الصهيونيين والمتشددين الإسرائيليين اليوم، وخشيتهم من أن يؤدي إبرام الصلح مع الدول العربية المجاورة إلى ذوبان إسرائيل تدريجيا في مجتمع منطقة الشرق الأوسط، وإلى فقدان اليهود لهويتهم الدينية والحضارية، هما أشبه شيء بتمسك الكتلة الشيوعية حتى مؤخرا بستارها الحديدي، وأن مصير هذا الموقف منهم سيكون كمصير ذاك.. وقد كان لبوريس باسترناك - الشاعر والروائي اليهودي السوفييتي - فضل الإشارة لأول مرة (في روايته "دكتور جيفاجو") إلى توافق موقفي اليهودية والشيوعية السوفييتية من التاريخ، (وهما موقفان تنبَّأ بأن يئول أمرهما في المستقبل إلى الفشل)، وتعارضهما مع

الموقف المسيحي الذي هو الموقف السليم الوحيد اليوم.. كتب يقول:

"شيء ما في عالمنا قد تغير.. فقد عفا الزمن على مفهوم الزعامة والأمة بعد أن حل مكانه مفهوم الشخصية والحرية.. وأي مثل هو أفضل من مثل اليهود لضحايا هذا النمط البالي من العقليات؟ لقد اضطرهم مفهومهم القومي، قرنا بعد قرن، إلى أن يكونوا أمة، ولا شيء غير أمة. والعجيب في الأمـر هو أن هذه المهمة القاتلة قد كبلت أيديهم وأقدامهم على مـر العصور، في حين تخلصت بقية العالم منها بفضل قوة جديدة (هي المسيحية) نبعت من بين ظهرانيهم هم، وعبـرت عـن نفسها بلغتهم هم.. أليس هذا غريبا؟! لقد رأوهـا بـأعينهم، وسمعوها بآذانهم، ثم أداروا ظهرهم لها.. كيف! كيف سمحوا لأنفسهم بأن يرفضوا كل هذا الجمال والروعة والقـوة فـي المسيحية وأن ينحوها جانبا، وأن يختـاروا لأنفسـهم بعـد انتصار المسيحية أن يعيشوا على مـدى القـرون الطويلـة مقهورين مضطهدين؟! ولمصلحة من كان هذا الاختيار وهذا العذاب؟ لماذا لا يقولون لأنفسهم اليوم: "كفى هذا.. لنتوقـف الآن.. لا تتمسكوا بهويتكم إلى الأبد.. لا تتجمعوا في كتلـة

واحدة.. تفرقوا.. كونوا مع بقية البشر.. إنكم أول المسيحيين في التاريخ وخيرهم.. وقد كان أسوأ رجالكم وأضعفهم هـم المسئولين عن رفضكم لتاك العقيدة التي هي جوهركم..".

***

وهي قولة من باسترناك حبـذا لـو اسـتعادتها ذاكـرة المفاوضين الإسرائيليين إذ يجتمعون لبحث مسألة السلام مع جيرانهم العرب.

عن

حاضر العالم الثالث ومستقبله

كنت في مدينة ستراسبورج للاشتراك في ندوة عقدها المجلس الأوروبي لبحث سبل تنمية التعاون الأوروبي العربي.. وقد وجدت نفسي خلال حفل غذاء أقامته رئيسة المجلس للمشاركين، أجلس إلى جوار الكاتب السويسري أرنولد هوتينجر، الذي أجريت معه الحوار التالي:

س: لا شك في أن فهم كل من الأوروبيين والعرب للطرف الآخر تحكمه - منذ مئات السنين وإلى اليوم - مجموعةٌ من الكليشيهات أو الأفكار المبتذلة التي عفا عليها الزمن، والتي آن الأوان لتعديلها وإحلال المفاهيم السليمة مكانها.. ما هي - في رأيكم - طبيعةُ هذه الكليشيهات، وجذورها التاريخية، وكيفية استئصالها؟

ج: في ظني أنه ما دام ثمة توازن في القوى بين شعبين أو حضارتين يدفع كلا من الطرفين إلى الاعتراف بقوة الآخر، وإلى أخذه بعين الاعتبار والاهتمام، فإن الكليشيهات هنا إن نشأت فهي في العادة كليشيهات تنم عن الاحترام

والتقدير، حتى مع الاعتراف باختلاف الطرف الآخر، سواء في القيم أو الدين أو أسلوب العـيش. فهنـا نجـد الإقـرار بالجوانب الإيجابية ومزايا أساليب الحيـاة لـدى الآخـرين ونواحي القوة في معتقداتهم وقيمهم.. من أمثلة ذلك ما نجـده في كتب الأوروبيين في العصر الوسيط من إشادة بحضـارة مسلمي الأندلس، ومن مديح لصلاح الدين الأيوبي أو الظاهر بيبرس، وفي كتب المؤرخين المسلمين في نفس العصر مـن إعجاب بشخصية فردريك الثاني إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة أو ببلاطه في صقلية.

غير أن كل هذا يتغير متى ما اختل هـذا التـوازن فـي القوى، وأصبح ثمة طرف أقوى بكثير من الطرف الآخـر، سواء من الناحية العسكرية أو الحضـارية أو الاقتصـادية.. فهنا يصبح الطرف الثاني موضع احتقـار الأول، وتضـحي نظرة الأول إليه ليست فقط باعتباره "مختلفا" ولكـن أيضـا باعتباره ضعيفا و"متخلفًا" ولا مستقبل أمامه إلا إن هو تعلـم من الأول وتبنى مفاهيمه وأسلوب عيشه ومظاهر حضارته. وهنا تنشأ لدى الطرف القوي حاجة إلى الحفاظ علـى ذلـك الوضع من اختلاف التوازن، لا بالوسائل العسكرية فحسـب

(فهي وسائل مكلفة سواء بشريا أو ماديا)، وإنما أيضا عـن طريق النشر المتعمد لمجموعة من الأفكـار والكليشـيهات الخاصة بأوجه الاختلاف بين الطرفين، وتصويرها على أنها ثابتة لا تتغير؛ وذلك من أجل إثبات حقه في استمرار هيمنته، وغرس الشك لدى الآخر في ذاته وفي قدرته على التصـدي بنجاح لمقاومة الطرف الأول الذي ينتمي إلى جنس أرقـى، وحضارة أعلى.

حينئذ يهم الطرف الأقوى أن يشيع لـدى الجميـع، هنـا وهناك، فكرة أنه الطرف المتحضر، وأن عليه عبء نشـر الحضارة في الأقطار الهمجية المتأخرة، ومسئولية إلحاق هذه الأقطار بركب الحضارة والمدنية، ولـو فـي ذيـل ذلـك الركب.. وفي اعتقادي أنه ربما كان من الأهداف الرئيسـة لإنتاج مسلسلات تليفزيونية أمريكية مثـل "دالاس" وغيـره، وعرضها في دول العالم الثالث، إطْلاع شعوب العالم الثالث على ما تتمتع به الشعوب المتحضرة من رخاء وثراء ونعيم عيش، وهو ما لن يحققه العالم الثالث ولو بعد ألف عام "ما لم تبدأ شعوبه من الآن بإبداء الرغبة والاستعداد لاقتفاء أثرنـا نحن، وإطاعتنا إطاعةً كاملة، والامتثال لأوامرنا؛ ببيعها مثلا

ما في أراضيها من النفط لنا نحن، وهو النفط الذي وجـدناه نحن في صحاريهم التي تتبعهم اسما".. فعن طريق الأفـلام والمسلسلات التليفزيونية وما شابهها - إذن - يمكـن تبليـغ هذه الرسالة بصورة غير مباشرة، ولكنها أكثر فعالية وأبلـغ تأثيرا، بالنظر إلى أنها تتسلل إلى العقل الباطن دون أن تلقى مقاومة أو اعتراضا، فيصعب التصدي لها أو تحديها.

ولا يكتفي الغرب بإبراز الجوانب "الإيجابية" من حضارته هو، وإنما يعنى أيضـا بـإبراز الجوانـب "السـلبية" فـي المجتمعات التي يهيمن عليها؛ وذلك من أجل استئصـال أي إحساس بالذنب أو تأنيب الضمير قد يشعر به المهيمنون من جراء استغلالهم أو استعمارهم لأقطار أخرى.. فهو يصـور شعوب تلك الأقطار على أنها في حاجة دائمة إلى مسـاعدة الغرب وتوجيهاته بالنظر إلى عجزها عن مسـاعدة نفسـها، ويحاول أن يخلق لدى تلك الشعوب استعدادا لقبول كـل مـا يقرر الغرب أنه مفيد لها وله.. وعلى سبيل المثال: صـحيح أنه لا يزال في العالم العربي حمير وجمال ونخيل ورمـال وخيام وبدو، غير أن هناك اليوم أشياء أخرى كثيـرة غيـر هذا؛ ولذا فإن الشركات السينمائية تكثر من إنتـاج الأفـلام

التاريخية أو المستقاة من قصص الكتاب المقدس؛ حتى ترسخ في أذهان المشاهدين من الأوروبيـين والأمـريكيين هـذه الصورة القديمة عن الشرق الأوسط. فإن تناولـت الأفـلام موضوعات حديثة، فهي عـادة أفـلام بوليسـية أو أفـلام مغامرات تظهر أهل المنطقة بنفس الصورة البدائية تقريبا.. ولا يلاحظ المتفرجون عندنا إلا نادرا أن هذه الأفـلام تقـدم عامدة خدمة كبيرة لمصالح ذوي النفوذ في الغرب، بخلقهـا مفاهيم وكليشيهات عن مدى تخلف أهالي الأقطار الأخرى.

***

س: ألم تتغير خلال نصف القرن الأخير طبيعة مصـالح الغرب في مستعمراته السابقة، وبالتالي سبل تحقيق أهدافـه فيها؟

ج: لا شك في ذلك.. حدث تغيير جذري حين وضح فـي بعـض الـدول – كبريطانيـا مـثلا – أن المسـتفيد مـن المستعمرات ليس هو الشعب البريطاني، وإنما هي جماعات معينة من الطبقات العليا في المجتمـع البريطـاني.. هـذه الجماعات أضحى بمقدورها اليوم تكوين الثـروات بطـرق أخرى غير الاستعمار، كما أنها اكتشفت فجأة أن الإبقاء على

المستعمرات بات يكلف المستعمرين أكثر مما تدره هذه المستعمرات من دخل، بالنظر إلى اضطرار المستعمرين إلى الإنفاق على جيوشهم فيها، بل وفي أحيان كثيرة إلى إنفاق بعض الأموال من أجل تخفيف أعباء الفقر المدقع الذي يعيش فيه أهالي مستعمراتهم. وهي أموال رأى المستعمرون من الأجدى إنفاقها على الطبقة العاملة البريطانية.. وبتغير طبيعة المصالح، قررت بريطانيا فجأة منح مستعمراتٍ - كالهند ومصر - استقلالها الذي جاهدت من أجله لسنوات طويلة في الماضي.

وفي السنوات التالية للحرب العالمية الثانية نشأت نظرة أمريكية متفائلة، مؤداها أن كل الدول المتخلفة (أو النامية كما سميت فيما بعد) يمكنها أن تلعب دورا مرغوبا فيه، هو دور الشريك في التجارة والصناعة الدوليتين، شأنها في ذلك شأن ألمانيا الغربية التي ساعدها مشروع مارشال على الوقوف على قدميها.. وقد خيل للأمريكيين أن النهضة الاقتصادية للدول النامية يمكن أن تتحقق وأن تؤتي ثمارها في زمن قصير جدا.. بوسعنا أن نسمي تلك الفترة بفترة "أساطير التنمية" وكان أساسها الفكرة التالية: "نحن نساعدكم الآن حتى

تصبحوا قريبا شركاء في عالم الغد الزاهر الذي سنعيش فيه جميعا في رخاء عميم".

وقد كان الجميع مخلصين فـي قبـولهم لهـذا الـزعم وتصديقه. غير أن الذي حدث هو أن الفكرة لم تـتمخض إلا عن تصدير واسع النطاق لـرءوس الأمـوال إلـى الـدول المتخلفة، وتصدير أوسع نطاقا للسلع الاستهلاكية، تدفع تلـك الدول ثمنها مما لديها من مواد خام، ومما حصلت عليه مـن قروض وائتمانات، حتى وجدت نفسـها - دون أن تـدري- مكبلة الأيدي والأقدام، وقد زاد اعتمادها سنة بعد أخرى على الدول الصناعية في حصولها على السلع والمـواد الغذائيـة والخبرات، بل والأفكار ذاتها، ثم أفاقت لتدرك أنهـا باتـت غارقة في ديونٍ لا هي قادرة على تسديدها ولا حتى تسـديد قيمة فوائدها.

أما عن أفراد الطبقة الحاكمة المتفرنجة في تلك الدول فقد كانوا دائما من الأنانية وضيق النظرة والتعلـق بمصـالحهم الخاصة بحيث قدروا أن أهم احتياجات بلادهم تتمثـل فـي السلع الاستهلاكية ومستلزمات الترف التي شـاهدوها فـي الأفلام المصدرة إليهم.. أما الأمر الأكثر إيلاما فهو أن هـذا

النمط المتبنى من التنمية لـم تصـحبه تسـوية للنزاعـات والصراعات بين الأقطار المتجاورة في العالم الثالث. وقـد استغلت الدول العظمى هذه النزاعـات لصـالحها بتزويـد الأطراف المتصارعة بالأسلحة مقابل ما لديها مـن ثـروات زراعية أو نفطية، وانشغلت الأقطار المتخلفة باستخدام هـذه الأسلحة في تدمير بعضها البعض.. كذلك فإن تطبيق سـبل العناية الصحية والأساليب الطبية الحديثة، نتج عنـه زيـادة رهيبة في تعداد سكان دول العالم الثالث، مما كان يبتلع أولا بأول ثمار أي تقدم تحققه مشروعات التنمية.

على ضوء هذه النكسات وغيرها تغيـرت مـرة أخـرى نظرة الدول الصناعية المتقدمـة إلـى طبيعـة مصـالحها؛ فظهرت فيها نظرية جديدة مؤداها "أن الآخـرين مختلفـون عنا، والأجدى أن نتركهم وحدهم، وأن نركز اهتمامنا علـى المناطق القليلة ذات الثـروات التـي لا غنـى عنهـا لنـا ولصناعاتنا ومجتمعنا.. وأهم هذه الثروات هو النفط، فعلينـا إذن أن "نضمن" ما يسمى بالاستقرار في تلـك المنـاطق أو الدول "الهامة".. ومن حسن الحظ فإن تعداد السكان فيها هـو عادةً قليل، فلنجعل منها الشركاء الجدد للعـالم الصـناعي،

وكلما زاد اعتماد مواطنيها على حمايتنا العسكرية لهـم، زاد حقد جيرانهم الفقراء عليهم. غير أن هذا لن يضـير العـالم الصناعي في شيء؛ فالحقد لا بـد أن يسـتثير المخـاوف. وستضطر المخاوف شركاءنا الأغنياء في الأقطار المنتجـة للنفط إلى الاعتماد أكثر فأكثر على حماية الدول الصـناعية القومية.

سنكون عندئذ كالبرتغاليين الذي أدركوا في مرحلة معينة من تاريخهم أنه لم يعد بمقدورهم الاستمرار فـي اسـتعمار وحكم بقاع شاسعة من بقاع الأرض، فاختاروا الاحتفاظ بعدد منتقى من الموانئ تظل تحـت هيمنـتهم، وتضـمن تـدفق الثروات الناجمة عن التبادل التجاري على البرتغال.

الخطر الوحيد الذي قد يتمخض عن مثل هـذا الوضـع الجديد من وجهة نظر الدول الصناعية، هو أن تتجه الملايين المتكاثرة من الشعوب التي لم نخترها شـركاء لنـا، والتـي تركناها وشأنها، إلى التضامن والتضافر ضدنا. ولكي نحول دون تحقق هذا التضامن والتضافر؛ علينا بأن نتمسك دائمـا بسياسة "فرق تسد" وأن نخلق الأسباب والدواعي التي تدفعهم إلى التحارب فيما بينهم، في الوقت الذي ننشغل نحـن فيـه

بتنسيق مصالحنا وسياساتنا السياسية والصناعية. كذلك فإنـه سيكون بمقدورنا دائما أن نبعث بقـواتٍ دوليـة إلـى تلـك المناطق بدعوى الحفاظ على السلام والاستقرار، ثم نبقيهـا هناك إلى أبد الآبدين.. ففي بعض تلك المناطق، مثل كشمير، ظلت القوات الدولية باقية لأكثر من أربعين عامـا، أفلحـت خلالها لا في حل النزاع وإنما في تطويقه.. وها هي قبرص وقد أضحت مثلا آخر.. وسيكون بوسـعنا أن نقنـع الكافـة بسهولة أن الذنب ليس ذنبنا، وإنما هو ذنب تلـك الشـعوب المتخلفة التي تتحكم العواطف فيها لا العقل، والتي ستبقى إلى الأبد (على حد تعبير أحد الجنرالات الإسرائيليين الذي ربما كان في تعبيره أصرح مما ينبغي) كالصراصـير السـكارى داخل زجاجة مغلقة! والأفضل من كل ذلك أن ننشـر هـذه الفكرة من خـلال الأفـلام المصـورة لهـذه الصـراعات والاشتباكات؛ حتى يراها الكافة ويصدق الجميع زعمنا أنهـم هم المسئولون الوحيدون عن وضعهم البائس.

لقد نجحت الدول الصناعية في تكييـف مشـاعر وآراء الشعوب المتخلفة والمتقدمة على السواء؛ فقـد بـات لـدى الشعوب الغنية إحساس راسخ بتفوقها وحقها في الهيمنة على

مقدرات العالم، وأضحى لدى الشعوب الفقيرة إيمان بتخلفهـا وبمشروعية وضعها الذليل في عالم اليوم. أما الدول المتخلفة الغنية كدول الخليج المنتجة لنفط تبيعه لنا، فلا حاجة بها إلى الإحساس بالنقص؛ حيث إنها باتت دولا صديقة لنـا وتحـت حمايتنا.. فإن حدث ما لا مفر من حدوثه في بعض الأحيـان وثارت الدول الفقيرة على وضعها، فستنشأ الحاجة من حـين إلى آخر إلى استخدامنا للقوة في قمع تمردها، ما لم تكن فيها حكومات قوية يمكننا الاعتماد عليها في اسـتخدام الشـرطة والجيش من أجل القضاء على القلاقل. وستعمل الصورة التي غرسناها عن حكمتنا وشعورنا بالمسـئولية، وعـن نـزقهم وافتقارهم إلى الشـعور بالمسـئولية، علـى تبريـر هـذه الإجراءات الحكيمة، وهذا التدخل "المشروع" من جانبنا، حتى لو تصادف أن لاحظ البعض كيف أن هـذه الإجـراءات - وهذا التدخل - تتفق اتفاقا تاما مع مصالحنا الخاصة.

***

س: ما دور الحكومات المحلية في ظل هذا الوضع؟

ج: للحكومات المحلية فوائدها في مثل هذه اللعبة.. وكلما زادت خدماتها لنا سيزيد استعدادنا للتغاضـي عـن حكمهـا

الاستبدادي في بلادها؛ ذلك أن استخدام الحكـام المسـتبدين بالسلطة كأدوات لتنفيذ مصالحنا هو أسهل علينا من استخدام الأنظمة الديمقراطية، وذلك بالنظر إلى شدة خوف المستبدين على حياتهم، وشدة تعلقهـم بمناصـبهم، ممـا يضـطرهم اضطرارا إلى طلب حمايتنا.. وهذا هو بالضبط سـر إبقـاء الولايات المتحدة على صدام حسين في حكم العـراق بعـد هزيمته الساحقة في حرب الخليج. فبـالرغم مـن محاربتـه وتشبيهنا إياه بهتلر، وكل ما صببناه عليه مـن لعنـات، قـد أصبح الرجل الآن بعد تأديبه وتقليم أظفاره أهلا لأن يكـون شريكا لنا. وقد استفاد صدام استفادة عظيمة من مثَل جـاره الأذكى والأكثر فطنة، وأعني حافظ الأسد في سوريا الـذي فهم قواعد اللعبة، وأخذ نفسه بالانصياع لها، واقتنع بأنه من الأفضل الانضمام إلينا وإلا أطيح به.. غير أننا سنظل دائمـا على تفضيلنا للدول النفطية ذات التعداد الصغير من السكان؛ لأن إدارتها أسهل من إدارة الدول الكثيرة السكان؛ مثل إيران والعراق والجزائر ومصر.

***

س: ألا ترى أن مثل هذه النظرة من الـدول الصـناعية نظرة ضيقة، وخطرة عليها في المدى البعيد، وشبيهة بقولـة لويس الخامس عشر "بعدي الطوفان"؟.

ج- بالتأكيد.. ثمة خطر من أن تضحي الدول الصـناعية حبيسة فضحِيةً لمفهومها عن مصالحها وكليشيهاتها عن العالم الثالث وعن نفسها، وهي الكليشيهات التـي تخلقهـا أجهـزة الإعلام فيها.. ذلك أن كل ما يشغل بالها حاليا هـو كيفيـة الاستفادة المادية في الوقت الراهن وفي المستقبل القريب، ثم "بعدي الطوفان" كما قلت. انظر إلى مبيعاتنا من السلاح مثلا إلى الدول النامية. أو انظر إلى أفلامنا وبرامجنا التليفزيونية التي تخلق الرغبات والتطلعات لدى شعوب فقيرة لن يمكنهـا أبدا إشباعها أو تحقيقها، اللهم إلا حكامها وطبقة جد محدودة من الأثرياء فيها.. نحن نسعى إلى أن تقلدنا هـذه الشـعوب لأننا نعرف أن التقليد بطبيعته يرسـخ الإحسـاس بـالنقص والشعور بعدم المساواة.. غير أن إعلامنا وأفلامنا تقول لهم: "عليكم بالعمل على اقتناء ما لدينا مهما كانت كلفة ذلك عليكم وعلى مجتمعاتكم، وإلا بقيتم على تخلفكم" ولا شك في أن هذه الرسالة رسالة خطرة. فتتزايد رغباتهم وتنامي تطلعـاتهم –

دون القدرة على إشباعها – يهددان أمننا وإدراكنا لهذا الخطر سيدفعنا إلى أن نحرص – بل وقد بدأنا نحرص من الآن – على بناء أسوار عالية حول مجتمعنا الصناعي المتقدم حتى لا يتسلل إلينا الفقراء والإرهابيون وسائر الخطرين على أمننا من العالم الثالث.. بدأنا نضع العقبات في سبيل حصولهم على تأشيرات دخول إلى أراضينا، أو على تصاريح بالإقامة أو العمل فيها، ورفعنا أسعار تذاكر السفر إلى أقطارنا. وسيأتي الوقت الذي لن نسمح فيه بالدخول إلينا إلا لعدد محدود جدا منهم، وذلك في أوقات الرخاء حين نكون في حاجة إلى أيد عاملة رخيصة تقوم بالأعمال الوضيعة التي يأبى مواطنونا أداءها، أو إلى أطفال نتبناهم حين يقل عدد السكان في هذا البلد من بلادنا أو ذاك..

عير أن هذه الأسوار لا شك في أنها ستخترق متى عظم الضغط عليها من الخارج، وسيزداد الضغط عليها كلما ازدادت الشعوب الفقيرة المتخلفة فقرا وتخلفا.

وهنا يكمن الخطر علينا..!

بعدي الطوفان نعم. ولكن ليس بعد أولادي.

ولن يتحقق تصحيح الوضع إلا إذا تغيرت طبيعة نظرتنا الراهنة إلى علاقاتنا بالعالم الثالث تغيرا جذريا.

صحوة الموت

(١)

ما الذي تحمله في طياتها السنوات القليلة القادمة؟

أغلب ظني أنها تحمل للبشرية سلسلة متلاحقة من الأزمات الرهيبة على غرار ما عرفناه منها منذ منتصف السبعينيات: حرب أهلية في لبنان، حرب عراقية إيرانية، انهيار الأنظمة الشيوعية في أوروبا الشرقية، حرب الخليج الثانية، الجرائم الإرهابية للجيش الجمهوري الإيرلندي، ولجبهة الإنقاذ الإسلامية بالجزائر، وللجماعة الإسلامية بمصر؛ مذابح المسلمين والسيخ في الهند، والمسلمين والأرمن في مرتفعات الكاراباخ، تمزق أوصال يوغوسلافيا ومذابح الصرب والكروات ضد مسلمي البوسنة والهرسك، الصدامات العنصرية في لوس أنجلوس، القتال بين فصائل المسلمين في أفغانستان، انفجار مركز التجارة العالمي في نيويورك، وقنابل المافيا في روما وفلورانسا..

أزمة إثر أخرى على هذا المنوال، يجمعها كافةً عنصـر واحد، هو أنها جميعا مظاهر لضروب شتى من التعصـب: الديني، والتعصب المذهبي، والتعصب العنصري، والتعصب الأيديولوجي، والتعصب القومي، أو ما شئت. وستتسم هـذه الأزمات المتوالية في ربع القرن القادم بأبشـع مـا يمكـن للتعصب أن يتخذه من أشكال، وهو ما اتسمت به أزمات ربع القرن الماضي. وهو ما يدفعني إلى القول بأن نصف القـرن ما بين عامي ١٩٧٥ و ٢٠٢٥ سيوصف بأنه نصف القـرن الذي شهد صحوة الموت لدى كافة الأيديولوجيات والمذاهب والعقائد، والذي كان قبح معالمه وأحداثه السبب المباشر فـي خمود كافة أشكال التعصب بانتهائه.

حينئذ سيكون قد انغرس في أفئـدة النـاس وعقـولهم – وبسبب التجارب الأليمة والخبرات المفجعة – إيمـان بـأن صنوف التعصب المتنوعة إن هي إلا بدائل عن احترام الفرد لذاته.

وكما في صحوة الموت، فإنه كثيرا ما ينفجـر التطـرف والتعصب والهوس عشية احتضار العقيدة.. فقد ظهر هـوس الصليبيين عشية عصر النهضة، والهوس الديني إبان حـرب

الثلاثين عاما في أوروبا عشية ازدهار العقلانية والعلمانيـة والتنوير في القرنين السابع عشر والثامن عشـر، والتمسـك الأهوج لدى سكان الجنوب من الولايات المتحدة الأمريكيـة بنظام الرق عشية تحريـر الرقيـق، والوطنيـة المسـعورة المتمثلة في الفاشية والنازية إبان الربع الثـاني مـن القـرن العشرين عشية أفول النزعة الوطنية في الغرب..

ويبقى تساؤلنا الوحيد: كم تستغرقه من الوقت عملية التهام النار لنفسها؟

أما التساؤل عن كيف تموت الفكرة، فقد عرفنـا إجابتـه: تطرف الحروب الدينية قضى علـى الـدين فـي أوروبـا. وتطرف المشاعر القومية قضى على القومية. وتطرف أهـل القرن التاسع عشر في إيمانهم بما يخبئه العلم للبشـرية مـن ثمار وكنوز قضى على الأمل في مستقبل أفضل.

(٢)

قد ولى - إذًا - عصر الإيمـان باليوتوبيـا أو المدينـة الفاضلة.. تبددت أوهامنا وتحولت براءتنـا وسـذاجتنا إلـى نضج عقلي.. بتنا نعرف ما لم يعرفه معظم مؤرخي القـرن التاسع عشر وعلماء الاجتماع فيه: بتنا نعرف نهاية القصة..

كـل قصـة.. ونعـرف العواقـب الوخيمـة لانتصـار الأيديولوجيات، وتحقق الأحلام، ونيل التطـرف لأهدافـه.. شهدنا نهاية الرايخ الثالث - الذي ظن هتلر أنه سيبقى قائمـا لألف عام تالية - بعد مرور اثنتي عشرة سنة من تأسيسه.. وشهدنا صورة مؤسس الفاشية الإيطالية معلقا على المشنقة.. وشهدنا بالأمس انهيار المشروع الحضاري الذي ضحى من أجله ملايين الشيوعيين بأرواحهم.. وشهدنا الخاتمة المروعة لأم المعارك.

أدركنا الآن جيدا أن الجهل يميل بطبيعته إلى التطـرف.. فما من أحد يتطرف بصدد ما يفهمه حق الفهم، وإنما نتطرف في أفكارنا وآرائنا بصدد الأمور التي نجهلها، أو نلم بطرف يسير منها.

وأدركنا أن أولئك الشباب الذين يهبون في عزم وقوة من أجل المشاركة في صنع التاريخ، هم أجهل الخلق بالتاريخ.. فهم لا يدرون أن بناء المدينة الفاضـلة لا يتحقـق إلا عـن طريق الإرهاب، وأنه لن تمر فترة طويلة على بنائها قبل أن تبهت كافة معالمها وسماتها إلا سـمة الإرهـاب.. إرهـاب الدولة.. إرهاب "أبطال الحرية" من أمثال موسوليني وستالين

وهتلر الذين ثبت لنا الآن أنهم كانوا لا يعرفون ما يصـنعون بتلك الحرية، وأنهم كانوا طوال الوقت، ومنذ البداية، مجـرد أناس متعطشين إلى السلطة.

أدركنا أنه من الأسهل علينا أن نحب الإنسـانية مـن أن نحب جيراننا، وفهمنا كيف يمكن لأحد الأثرياء الروس فـي القرن التاسع عشر، وهو ميخائيل بيتراشيفسكي أن يكتب في يومياته يقول: "إنني إذ قد فشلت في العثور على إنسان أحبه، رجلا كان أو امرأة، قـررت أن أكـرس حيـاتي لخدمـة البشرية"!.. وقد رفع بعض أفظع الأنظمة الغاشمة في قرننـا هذا شعار خدمة البشرية، وتغنى به، وضمنه دساتيره، فـي الوقت الذي كان يعتمد فيه - بصفة أساسية، ومن أجل البقاء في الحكم - على وشاية الفرد بجاره.. وقد ظلـت الأنظمـة الشيوعية ترى في حب الجار شعورا معاديا للثـورة، كمـا عاب ماوتسي تونج على المثقفين الليبراليين في الصين عدم إقدامهم على الإبلاغ عن معـارفهم وأصـدقائهم وأقـاربهم وزملائهم وأصدقائهم وأحبائهم من غير المتعاطفين مع النظام القائم.

نحن لا ننكر أن البواعث قد تكون نبيلـة فـي الأصـل، والنوايا طيبة في البداية، والرغبة في تغيير الأوضاع الفاسدة قائمة.. غير أنه كثيرا ما تكون النتيجة عكس ما كان مرجوا في البداية، ويكون العلاج أسوأ من المـرض.. فالإصـلاح عملية تجري على جسم المجتمع. بيد أن المصلحين يختلفون عن الجراحين من الأطباء في أنهم لا يعملون حسابا للآثـار الجانبية غير المتوقعة، وهي الآثـار التـي تحـول مسـار الإصلاح إلى عواقب غير مرغوب فيها، ورهيبة في أحوال كثيرة.. وحينئذ يغدو "المصلحون" من أطباء المجتمع جـزءا من المرض ذاته.

نبدأ بالسير في نهج الاشتراكية بهـدف تحقيـق العدالـة الاجتماعية، فينتهي بنا النهج إلى فاشـية غاشـمة وهيمنـة للبيروقراطية على مقدرات الدولة.

وقد نتحول إلى انفتاح لتحرير الاقتصـاد القـومي، فـإذا بمعظم من أفاد منه هم ممن لا خلاق لهم ولا مبدأ، وإذا بنـا حيال تضخم ضاعت معه طبقـة المـوظفين والبرجوازيـة الصغيرة.

وقد نرى للناس كافة حقا في التعليم كحقهم فـي الهـواء والماء، فإذا التوسع فيه يؤدي إلى إغراق المجتمع بمتعلمـين يريدون لأنفسهم مكانا تحت الشمس، وينتهي بهم الحال إلـى أن يصبحوا من أخطر عناصر التـوتر الاجتمـاعي وعـدم الاستقرار.

وقد نذهب إلى أنه ما من أمل للدولة المتخلفة في النهوض من كبوتها إلا بأخذها بأسباب الحداثة، وإلى أن التحديث فـي حقيقته لا يعدو أن يكون تقليدا للغرب، فـإذا التقليـد يولـد إحساسا بالنقص، وشعورا ذليلا بعدم الصلاحية، وإذعانا لقيم وتقاليد تخالف قيمنا وتقاليدنا، وإذا هذا الإحساس بالنقص يولد المرارة وأعمال العنف ومشاعر العداوة للغرب.

وقد ننتهي إلى أن الأمل معقود بتطبيق أحكـام الشـريعة الإسلامية، فإذا النظام الذي يدعي الأخذ بها لا يطبـق منهـا غير قطع أيدي حفنة من اللصوص الفقراء، وجلد زانيـة أو زانيتين في ميدان عـام، وتفريـغ زجاجـات الخمـر مـن محتوياتها في الأنهار والبحيرات.

(٣)

ما السبب؟ ما السبب في أنه ما من دولة إسلامية واحدة حتى الآن حققت نجاحا يقارب نجاح اليابان أو تايوان أو كوريا الجنوبية أو سنغافورة أو ماليزيا أو هونج كونج في التحديث والتنمية السريعة؟ لقد بدأت مصر مسيرة التحديث مع بداية القرن التاسع عشر، أي قبل أن تبدأها اليابان بنحو نصف قرن.. وهي اليوم مع ذلك دولة متخلفة ينهش الفقر أحشاءها. أما عن دول النفط الخليجية الغنية، فما عملية التحديث الجارية فيها غير تحديث لأوجه الاستهلاك لا غير.

لقد كان تدفق الذهب على إسبانيا والبرتغال من ممتلكاتهما في العالم الجديد سببا في التعجيل بتدهور قوتهما.. وأغلب ظني أن تدفق الأموال على دول النفط العربية سيكون أهم أسباب تحللها وانهيارها، وهي التي لا تنفق أموال النفط على سبل تحديث أقطارها، بقدر ما تنفقه على سبل التنعم والترف واللذة، وعلى شراء الأقلام والصحف وذمم وضمائر المفكرين في الدول العربية الأخرى، وعلى نشر الأفكار المتحجرة البالية، وإشعال نار الفتن، والإساءة على غير المسلمين.

هل ثمة خطأ يا ترى في تركيبة عقول مسلمي هذا الزمان يتنافى مع كل متطلبات مزاج الحداثة؟ يخيل إلي أن ثمة خطأ جوهريا.. قد يكون هناك سخط على أوضاع معينة، غير أنه ليس بالسخط الذي يولد التوتر الذي يدفع الفرد إلى بذل الجهد المستمر من أجل الارتقاء بنفسه وبمجتمعه وبباده وبعالمـه، وإلى أن يثبت كل يوم من جديد قدره وقيمتـه وصـلاحيته للبقاء.

وقد استقر لدى شعوب الدول الصناعية المتقدمة إحسـاس راسخ بعدم صلاحية المسلمين للاشتراك معها فـي تكييـف صورة المجتمع الدولي الجديد. وها نحن نكاد نقرأ ونسـمع يوميا عن لبنات جديدة يضيفها المجتمع الصناعي المتقدم إلى الأسوار العالية التي يبنيها حولـه؛ حتـى لا يتسـلل إليـه المهاجرون من العالمين الإسلامي والعربي. فـالقوانين فيـه يجري تعديلها من أجل وضع العقبات فـي سـبيل حصـول هؤلاء على تأشيرات دخول إليه، أو على تصاريح بالإقامـة والعمل فيه.

غير أن هذه الأسوار لا شك في أنها ستخترق متى عظـم الضغط عليها من الخارج. وهاكم كيف سيكون اختراقها:

في الفيلم الأمريكي Penthouse (بنتهاوس) يلتقي الشاب الغني بعشيقته الجميلة في جرسونيرته، وإذ همـا معـا فـي الفراش يدق جرس الباب فيهب الشاب من الفراش ليفتحـه، ويجد نفسه أمام رجلين في ثياب العمال يزعمان أنهما يريدان إصلاح خلل في أنابيب الغاز في الشقة. غير أنه ما أن يسمح لهما بالدخول حتى يشهرا في وجهه مسدسـين ثـم يقيدانـه وعشيقته بالحبال، ويكممان فاهيهما، ويشرعان فـي نهـب محتويات الشقة، ثم يتواليان في اغتصاب المرأة ثم يجلسـان لشرب كأسين من الخمر، ويستمعان أثناء شـربيهما لأغنيـة مسجلة على أسطوانة تتضمن المغزى من قصة الفيلم.

فهي تحكي عن رجل دخل حمام داره فإذا به يجد علـى أرضه تمساحين صغيرين.. يتناول التمساحين مـن ذيليهمـا ويلقيهما في التواليت ثم يشد عليهما السيفون، ظانا أنه بـذلك قد تخلص منهما إلى الأبد. غير أن التمساحين وقـد انتهـى بهما المطاف إلى المجاري، يتوالدان فيها ويتكاثران، ثم يأتي الوقت الذي تصعد فيه التماسيح الكبيرة عبر المواسير إلـى حمام دار الرجل، فتلتهمه هو وزوجته وأولاده.

خواطر حول مفهوم السياسة

من المصادفات الشائقة، أو المفارقات الطريفـة، تـزامن بزوغ فجر الحياة السياسية الحديثة وفجر الحياة الاقتصـادية الحديثة من نحو مائتي سنة. فقد شهد العقد التاسع من القرن الثامن عشر نشأة الطوباوية السياسية التي تبشـر بالمدينـة الفاضلة، وكذا نشأة الرأسمالية الصـناعية، دون أن يجمـع بينهما سبب مشترك، أو دواع واحدة. وقد مر على الاثنتين، كما ذكرنا، قرنان كاملان يجعلان من السهل علينا أن نقارن بين مسيرتيهما وإنجازاتهما. فإن كنا لا نزال إلى اليوم نسمع الكثيرين يتساءلون: "هل للرأسمالية مستقبل؟" ولا نسمع أحدا يتساءل: "هل للسياسة مستقبل؟"، فإن الأمر خليق بأن يبعـث على الدهشة، خاصة إن نحن درسنا إنجـازات كـل منهمـا ومدى وفائها بالوعود التي بشرت بها عند نشأتها. فالتبـاين هنا واضح صارخ: قد جاوزت الرأسمالية الصناعية أقصـى ما طمح إليه مؤسسوها، في حين لم تلق الطوباوية السياسـية غير الفشل الذريع.

وعود وكوارث

لقد تنبأ الكثيرون في أوروبا وقت نشوب الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، (ومن بينهم القس الراديكالي ريتشارد بـرايس، والعالم الكبير جوزيف بريستلي والشاعر ويليام بليك) بوشك إقامة ملكوت السماء في الأرض، وبأن ما تشـهده البشـرية وقتها من "تحسن مطرد في أمورها وأحوالها لا بد مـن أن يسفر عن قدر من السعادة والفضيلة لم يعرفه تاريخها قـط، وبأن العالم هو "في سبيله إلى أن يخرج من الظلمـات إلـى النور، ومن الجهل والخرافة إلى المعرفة القطعيـة الثابتـة، ومن الرق إلى الحرية" قيل هذا قبل سنوات قلائل من قيـام عهد الإرهاب، ومن بدء ربع قـرن مـن حـروب الثـورة الفرنسية والحروب النابليونية، شهدت البشرية بعدها حربين عالميتين هما أكبر حربين في التاريخ كله، وروحا جديدة من القومية العدوانية عبرت عن نفسها في صورة تسلح تقليـدي ونووي، وتوسع إمبريالي، وإيمان كريه بالتفوق العنصري.

كذا كانت ثمار الطوباوية السياسية. وقد حـدث التغيـر الضخم في بداية العقد التاسع من القرن التاسع عشـر. فـإن كان بإمكاننا أن نسمي القرن فيمـا بـين عـامي ١٧٨٠ و

١٨٨٠ بالعصر الأول للسياسة المحترفة، فلا بد من تسـمية القرن فيما بـين عـامي ١٨٨٠ و١٩٨٠ بعصـر شـمولية السياسة. فقد شهد ذلك القرن الأخير بدء التوسع في تشـكيل الأحزاب السياسية الجماهيرية التـي حـل الإقبـال علـى الانضمام إليها محل التردد على الكنـائس للصـلاة، ومـنح قطاعات عريضة من الشعب حق الاقتراع، وانحسار هيمنـة طبقة الملاك على البرلمانات، وتأسيس نقابـات عماليـة لا تسعى إلى تحسين الأحوال المعيشية للعمال فحسـب، وإنمـا أيضا إلى الملكية الجماعية، وإقامة نظم للضمان الاجتماعي. كما شهدت الثمانينيات من القرن الماضي غلبة الاشـتراكية على الليبرالية باعتبارها فلسفة المستقبل، وغلبة فكرة شمولية الدولة على فكرة العقلانية.

وكانت النتيجة حدوث كوارث لم يشهد التاريخ مثيلا لها. فقد نجم عن تصاعد القومية وتفشـي السياسـات الشـمولية القائمة على الصراعات العرقية والطبقية، حربان عالميتـان تتضاءل بجوارها الحروب النابليونية، لقي مصـرعهم فـي الأولى ثلاثون مليون نسمة، وفي الثانيـة خمسـون مليـون نسمة، ثم لقي مصرعه أكثر من ثلاثين مليون نسمة في أكثر

من مائة وخمسين حربا صغيرة نشبت منذ عام ١٩٤٥. كذلك تمخضت عن هذه السياسات الشمولية معسـكرات المـوت، ولجوء الحكومات إلى عملية غسيل المخ لمـواطني بلادهـا وللأسرى الأجانب على سواء، وتعاظم قوة الشرطة السـرية التي بلغ عدد أفرادها في الاتحاد السوفييتي وحده قبل زمـن جورباتشوف أكثر من مجموع عدد أفـراد كـل الجيـوش الأوروبية مجتمعة في عصر نابليون.. فإن كان قـد ظفـر باستقلاله في الحقبة الأخيرة نحو مائة دولـة جديـدة، فـإن معظمها قد استبدل بالحكم الاستعماري حكومات وطنية أشـد استبدادا وقمعا.. ولا تزال السياسية الشمولية مع ذلـك تعِـد الناس بإقامة ملكوت السماء في الأرض. غير أنه لم يعد ثمة من يصدقها غير القليلين. أما الغالبية فتنتظر ظهور نيتشـه جديد يعلن على الملأ "أن السياسة قد ماتت".

إنجازات الرأسمالية الصناعية

فإن نحن نظرنا إلى مسيرة الرأسمالية وجدنا أنها لم تكـن فلسفة أو أيديولوجيا من وحي فيلسوف اقتصادي حـالم، ثـم تبنتها أحزاب سياسية، وصاغتها برلمانات في صورة قوانين، وإنما تطورت الرأسمالية الصناعية بكـل بسـاطة بفضـل

الصفقات الحرة والنشاطات غير المنسقة والحركـات غيـر المعاقة لأفراد مجهولين لا حصر لهم. فهي لم تكن أبدا مـن خلق السياسة، وإنما كانت ثمرة للثورة الصناعية التي تعتبـر من أهم الأحداث في تاريخ البشرية، والتـي أتـاح لهـا أن تزدهر وتنجح "خمول" السياسيين وسلبيتهم إبـان سـنواتها.. فالتصنيع نفسه لم يكن قـط فـي برنـامج الطوبـاويين أو السياسيين أو المفكرين الليبراليين، وإنما كان حركـة ذاتيـة نمت من تلقاء نفسها، في هدوء ودون ضجةٍ، ودون أن يلتفت إلى مغزاها أحد. ومع ذلك فإن ما نجم عن هذه الحركة هـو ذلك الرخاء واسع النطاق الذي كان المثاليون السياسيون قـد وعدوا البشرية به ولم يمكنهم تحقيقه. بل إن هؤلاء السياسيين – حتى الراديكاليين منهم – ظلوا على مدى قـرن ونصـف قرن يصرون على القول بأن التصنيع كـان علـى حسـاب مصالح الطبقة العاملة، وأن توفير رأس المال اللازم لتدشين الطور الأول من الرأسمالية الصناعية، لـم يكـن ممكنـا لا بخفض مستوى معيشة العمال. وهو اتهام وضـح بطلانـه خاصة بعد أن أثبتت دراسة أعدها بيتر لينـدرت، وجفـري ويليامسون عام ١٩٨٣ أنه حتى خلال الأطوار الأولى للثورة

الصناعية (من ١٧٨١ إلى ١٨٥١)، قد طرأ تحسن ضخم في مستوى معيشة قطاعات عريضة من العمال البريطانيين.

صحيح أن توفير القدر المناسب من الطعام وتوفير الكساء والمسكن والسفر السريع الرخيص، ووسائل تـوفير الجهـد ليس بكل ما يلزم من أجل إسعاد الإنسان. غيـر أنـه مـن المؤكد أنه يسهم إسهاما كبيرا في هذا السبيل، بحيث يمكـن القول بأن الرأسمالية الصناعية كان لها من الفضل في إسعاد البشر (أو التخفيف من معاناتهم) ما يفوق فضل أي ظـاهرة أخرى من صنع الإنسان. فإن كان صحيحا أيضا أنه بانقضاء القرن الثاني من الرأسمالية الصناعية لا نزال نشهد في العالم مظاهر من الفقر المدقع، فإنما نجد معظم هذه المظاهر فـي مناطق لم تتغلغل إليها الرأسمالية تغلغلا كاملا. ومع ذلك فإنه لا مجال للشك في أنه بالرغم من تزايد عدد سكان العالم على نحو لم يعرفه من قبل، فإن نسبة الفقراء من بـين مجمـوع سكان العالم هي الآن أقل بكثير منها فـي أي عصـر مـن عصور التاريخ.

وقد تحققت الزيادة الضخمة في إنتاج السـلع والخـدمات دون أن يكون للحكومات أو السياسيين يد فيها ولا دخـل إلا

في أضيق الحدود. فالتغير الاقتصادي والنشاط الإبداعي اللذان حققا للعالم مستوى أعلى من الرخاء المادي، إنما تولدا عن تفاعلات متبادلة خفية بين التكنولوجية وعمليات الإنتاج والتسويق، أو بعبارة أخرى، إنهما قد حدثا داخل أمعاء الرأسمالية الصناعية بفضل مئات الابتكارات والاختراعات، وآلاف المبادرات، وملايين القرارات. غير أن كل هذه الابتكارات والمبادرات والقرارات لم يكن وراءها أبدا خطة أو تدبير، أما عن الحكومات فإنه يكاد يكون من المستحيل الإشارة إلى قرار سياسي واحد اتخذته كان له أثر في دفع هذا الاتجاه أو تأخيره، أو أثر محسوس في تشجيع عملية خلق الثروات. قد يكون لقرارات السياسيين والحكومات بإعلان الحرب أثر في الإسراع بتطوير التكنولوجيا أو التوسع في الإنتاج، غير أنهما كانا دائما أثرين جانبيين للحرب، حدثا بالمصادفة لا بفضل التخطيط المرسوم أو السياسة الواعية.

تدخل السياسيين في الإنتاج

لقد جاء نمو الثروة مستقلا عن السياسة، ولا كان للسياسة تأثير في ازدهار الاقتصاد العالمي أكبر من تأثيرها في مناخ

العالم. أما التأثير الإيجابي الوحيد للسياسة فهو التأثير الذي نتج حين قامت الحكومات بإزالة عقبات من صنع البشر كانت تعترض طريق النمو الحر للرأسمالية الصناعية، فسهلت بذلك تحقيق ازدهار التجارة الدولية، وإن لم تكن المسئولة عن خلق هذا الازدهار. واختصارا فإن الحكومات إنما تخدم الاقتصادي حين تحجم تماما عن التدخل فيه، أو حين تقدم على إزالة مظاهر تدخلها في الماضي.

أما حين يرغم السياسيون الحكومات على التدخل المباشر في ميدان الإنتاج (رأسمالية الدولة) فإن النتيجة في الغالبية العظمى من الحالات هي عرقلة التنمية، وأحيانا تقليص حجمها. ولعل أوضح مثل لذلك هو الزراعة في روسيا التي يتزايد اعتمادها يوما بعد يوم على الواردات من الدول الرأسمالية من أجل إطعام الشعب. وهو أمر يتكرر في بلدان عديدة من العالم كلما أخذ الساسة فيها على عاتقهم مهمة اتخاذ القرارات في ميدان إنتاج الغذاء، كما في رومانيا وكوبا وتنزانيا وفيتنام؛ حيث تحولت الوفرة إلى ندرة، والفائض إلى عجز، أما المناطق الأربع التي يقتصر اعتماد العالم الآن عليها في إنتاج الفائض الغذائي فهي الولايات

المتحدة وكندا وأستراليا وأوروبا الغربية، وكلها دول رأسمالية.

وما كان حظ السياسيين في ميدان الإدارة الصناعية بأحسن كثيرا. فإن الواقع التاريخي يشير إلى أن روسيا كانت قد تجاوزت نقطة الانطلاق في التصنيع قبل نشوب الحرب العالمية الأولى بعدة سنوات، حيث بلغ معدل نمو التصنيع ٨,٨% في السنوات ما بين ١٩٠٨ و١٩١٤، وهو ما يفوق معدل النمو في أي من الدول الأوروبية الأخرى، بما فيها ألمانيا. ويرجح المؤرخون أن يكون الخوف من هذا النمو الصناعي الروسي الذي من شأنه أن يزيد من قدرات روسيا العسكرية، هو الذي دفع حكام ألمانيا عام ١٩١٤ إلى خوض الحرب ضدها قبل أن يفوت الأوان. كذلك فإن الأرجح أن تكون السياسة السوفييتية القائمة على رأسمالية الدولة واتخاذ السياسيين لكافة القرارات الحيوية في مجالات الإنتاج، كانت المسئولة عن عرقلة النمو الاقتصادي في الاتحاد السوفييتي، والحيلولة بينه وبين أن يصبح أكبر قوة اقتصادية في العالم.

وتعتبر التجربة اليابانية أصدق مثال لما يمكن إنجازه متى ترك السياسيون الاقتصاد وشأنه. كما أنه من المفيد أن نقارن

معدل النمو البطيء في إنتاج الدول الاشتراكية بذلك النجـاح الباهر الذي حققته كل من سنغافورة وتايوان وهونج كـونج؛ حيث ينتحي السياسيون جانبا تاركين للرأسمالية مهمة حـل مشاكلها بنفسها، وهو ما يأبى صنعه ساسة أفريقيا وآسيا ممن يفرضون قراراتهم السياسية على الاقتصاد، فإذا التقدم فيهـا يتباطأ، والإنتاج يضمحل، والانهيارات الاقتصـادية تعظـم وتتفاقم.

عالم الغد ومستقبل السياسة فيه

لقد كانت السياسة دائما، ومنذ قديم الزمان، شديدة الارتباط بالحياة في المدن. وقد كان العالم قبل بـزوغ فجـر الثـورة الصناعية (وفجر الحياة السياسية الحديثة) عالما زراعيا فـي المقام الأول. ثم أدت الثورة الصناعية إلى شروع السكان في التركيز في المدن، وإلى ظهور طبقة البروليتاريا التي أمكن للسياسيين تنظيمها وتوجيهها واستغلالها في تحقيق مراميهم؛ ففي أواخر القرن التاسع عشر أضحت الوحدات الصـناعية بالغة الضخامة، وأصبح للمدن الدور الأول في توجيه الحياة الاجتماعية بالدول المتقدمة، وبات بالإمكان تشكيلُ أحـزاب عمالية كبيرة يديرها سياسيون محترفون لا يرون في العمال

غير أصوات انتخابية وأدوات للضغط علـى معارضـيهم. ولا أدل على أن التصنيع قد قوى من يد السياسيين مـن أن عمال المصانع (وهم أُناس عاديون) كانوا دعامة الانقـلاب الذي دبره لينين في أكتوبر ١٩١٧، ودعامة حركة موسوليني في إيطاليا (القمصان السوداء)، وحركة هتلـر فـي ألمانيـا (القمصان البنية).

غير أننا اليوم نشهد تغيرا راديكاليا في الأوضاع. فمنـذ أكثر من ثلاثين عاما وعدد العاملين في الصناعة يقل تدريجيا وباطراد، بحيث يمكن القول: إن طبقة البروليتاريا هـي الآن في انحسار. (مثال ذلك أن نسبة القوة العاملة فـي التصـنيع ببريطانيا إلى مجموع سكانها بلغت في أوائـل الخمسـينيات أربعين في المائة، ثم أصبحت في عام ١٩٩٠ لا تزيد كثيرا عن الخمس). ولا شك في أن هذا الانحسار سيضـعف مـن سلطان السياسيين. بيد أن الثورة الحقيقية التي ستدمر السياسة كما نفهمها، وكما فهمها أجدادنا، والتي بدأت بالفعل تحـدث تغييرات جذرية لا تقل في ضخامتها عن ضخامة آثار الثورة الصناعية، فتتمثل فـي تكنولوجيـا المعلومـات والأدمغـة

الإلكترونية التي سيكون لها الشأن الأول في مجال التنظـيم، فتؤثر بالتالي في مستقبل السياسة.

ذلك أنه إن كانت الثورة الصناعية قد مالت إلـى تركيـز أعداد ضخمة من العمال في وحدات صناعية كبيـرة جـدا فمكنت بذلك من نشوء السياسة الحديثة، فإن ثورة تكنولوجيا المعلومات ستؤدي (وتؤدي بالفعـل) إلـى تفريـق العمـال وتشتيتهم. وقد أضحت الشركات والمصانع المعتمـدة علـى التكنولوجيا الرفيعة إما صغيرة الحجم أو متوسطته، وباتـت تختار مواقع لها لا في المركز الصناعية الكبـرى التقليديـة حيث يزدحم السكان، وإنما في ضواحي المدن، أو في القرى والريف. وهي ليست بالوحدات الصغيرة نسبيا فحسب، وإنما نلمس فيها كذلك اتجاها إلى السماح للعاملين فيها بأداء جانب من أعمالها في منازلهم! ولا مناص من أن يؤدي ذلك إلـى انهيار مفهوم "أصـوات العمـال الصـناعيين"، وإضـعاف الأحزاب الجماهيرية القائمة عليها. كما أنه ليس من المستبعد أن يتقلص قريبا – ونتيجة لذلك – مجـال اسـتخدام تعبيـر "السياسة"، وأن يكون عصر السياسة قد اقترب من نهايتـه،

بعد أن ثبت فشلها فـي تحقيـق الإنجـازات، ولـم يـتمكن السياسيون من الوفاء بوعودهم.

فإن صدقت توقعاتنا هذه، فما الذي عساه أن يحل محـل السياسة؟

لا شك في أن العمال في الدول المتقدمة سيكونون علـى درجة عالية جدا من التدريب والمهارة بحيث يصبح كل منهم مسئولا عن إدارة وتوجيه الأجهـزة الإلكترونيـة وأجهـزة الروبوت (الإنسان الآلي) التـي سـتؤدي أعمـالا يؤديهـا الآدميون في الوقت الراهن. وقد ذكرنا أن هـؤلاء العمـال سيوزعون على وحدات صغيرة، وأن الكثيرين منهم سيؤدون جانبا من أعمالهم (والبعض كل أعمالهم) في بيوتهم. فالراجح إذن أن يصبح البيت محطة عمل ذات اتصال بمكتب رئيسي. ولن يكون هذا الاتصال مقصورا على ربط العمال برؤسائهم في العمل، بل سيتعداه إلى ربطهم بعضهم ببعض، وبـالكثير من المهام المتصلة بالحكم وإدارة الدولة، بحيث يغدو هؤلاء المواطنون المتعلمون المهرة شديدي الشـبه بتلـك الطبقـة المتميزة في أثينا القرن الخامس قبل الميلاد التي كان أفرادها

يساهمون مساهمة مباشرة وشخصية في عملية اتخاذ القرارات.

الغالب – إذًا - أن يحل العامل الماهر المستنير في القرن الحادي والعشرين محل السياسي التقليدي، وأن يحل عمل الإلكترونيات الحديثة محل خرافات الطوباويين ودجل السياسيين، وأن يدير العمالُ شئون الدولة بأنفسهم، لا أن يتركوها في أيدي من يزعم أنه يتصرف أو يتحدث نيابة عنهم.

خواطر

حول مفهوم الشرف

لم أشاهد إلا منذ بضعة أيام فيلم إيناس الدغيدي "عفوا أيها القانون" وهو فيلم يسجل احتجاجا قويا على الاختلاف الشاسع في تقييم المجتمع والقانون وإدانتها للخيانة الزوجية من جانب المرأة ومن جانب الرجل، وتشددهما في الحالة الأولى بالمقارنة إلى تسامحهما في الحالة الثانية.

وقد انصب تفكيري عقب مشاهدة الفيلم على ما عساه أن يكون السبب في هذا الاختلاف الواضح في الحكم. وخطـر في ذهني تفسير أعراضه فيما يلي:

لأسباب عدة لا داعي للخوض فيها في هذا المقـال (قـد يكون أبرزها ما استقر من أن الرجل أكثر احتمالات للأعمال الشاقة والمجهود العضلي)، استقرت الأوضاع فـي الغالبيـة العظمى من المجتمعات على أن يتفرغ الرجل لمهمة كسـب العيش والصيد والحرب والحكم إلى آخره، وأن تتفرغ المرأة للأعمال المنزلية ورعاية الطفل وبعض الأعمال الخفيفة التي تعاون بها الرجل في ميـدان الزراعـة والحِـرف اليدويـة وغيرها. وقد كان من نتائج هذا التقسيم فـي العمـل الـذي يعرفه الطير والحيوان (ولكن فقط في مرحلة الحمل ورعاية الصغير، ولا تعرفه في غيرها) - أن أصبحت إناث البشـر تعتمد اعتمادا شبه مطلق على الـذكور فـي تـوفير كافـة احتياجاتهن المتنوعة، وإشباع رغباتهن المتعددة، فـي حـين كان المطلب الأساسي للرجل من الأنثى هو الجنس؛ سـواء لإشباع الغريزة أو الإنجاب، وقد استقر - بناء على ذلـك - ترتيب اجتماعي مقتضاه أن ينال الرجل مطلبه هذا من المرأة

شريطة أن يتولى هو إشباع الاحتياجات والرغبات المتعـددة للمرأة ولأولاده منها، ويتضح من هذا أن حاجة الأنثى إلـى الذكر كانت في الأصل – ولقرون وقرون – أوسـع مـدى وأشد إلحاحا من حاجة الـذكر إلـى الأنثـى، وأن خيرهـا وصالحها ورغد عيشها كان تتوقف على هذا الترتيب.

غير أن هذا الترتيب كان دائما محفوفا بالمخـاطر التـي دفعت النساء - من أجل الحفاظ عليه - إلى نوع من التحالف والتضامن فيما بينهن؛ حتى يواجهن جنس الرجـال بأسـره باعتباره العدو المشترك الذي يملك بفضل قوتـه العضـلية وانفراده بكسب العيش وبالحكم - كل أطايب الحيـاة.. لقـد أصبح لزاما على المرأة حتى تشارك في الاسـتمتاع بهـذه الأطايب أن تروض الرجل، وأن تجعل مـن زواجـه بهـا ضرورة لا مفر منها. ولكي يصبح هذا الزواج أمرا لا مفـر منه بالنسبة للرجل، بات من اللازم أن تكون المرأة حازمـة متشددة بحيث لا تسمح للرجل بأن ينال غرضـه منهـا إلا بالاستسلام وقبول الزواج. فإن تبنت هذا الموقـف الحـازم النساء أجمعين، أمكن للغالبية العظمى منهن الاستفادة من هذا الترتيب وإشباع حاجاتهن. بيـد أن هـذه الغايـة لا يمكـن

الوصول إليها على هذا النحو الشامل الفعال وواسع النطـاق إلا متى احترمت كل النساء ذلك الواجب الذي ذكرناه (وهـو ألا ينلن الرجل غرضه). وبالتالي أصبح من المهم للغاية أن تضمن النساء عدم شذوذ بعضهن وعصيانهن لهذا الواجـب، وهو ما لن يتأتى إلا بالتضامن الكامل فيما بينهن.

ومن هنا جاء اعتبار أي فتاة تسـلم نفسـها لرجـل دون زواج، خائنة لجنس النساء كله، بالنظر إلى أنه لو شاع مثل هذا السلوك لنشأ خطر يهدد مصلحة المرأة بصفة عامة حين لا يجد الرجل ضرورة ملحة للـزواج. ولهـذا بـات مـن الضرورة إخافة مثل هؤلاء الفتيات من أجل ردعهـن عـن خرق التضامن النسوي. وسبيل هذه الإخافة هـو وصـمهن بالعار، ومقاطعتهن، والتعبير عن الاحتقـار لهـن، والقـول بأنهن قد فقدن شرفهن. وقد امتدت هذه الإدانة بطبيعة الحال من الفتاة غير المتزوجة إلى المرأة المتزوجة التـي تخـون زوجها؛ حيث إن النتيجة واحدة، وعلى اعتبار أنها لم تلتـزم حيال زوجها بشرط الاتفاق الذي تزوجها على أساسه، وكـذا لأن مثل هذا السلوك من شأنه أن يخيف الرجال من الـزواج فيعزفوا عنه، وهو ما يمثل كارثة بالنسبة لجنس النساء كله.

بل أصبحت خيانة المرأة لزوجها جريمة أبشع مـن جريمـة استسلام الفتاة غير المتزوجة للرجل؛ ففي الحالة الثانية يمكن للرجل أن يرد إلى الفتاة شرفها بتصحيح غلطتـه والـزواج منها. أما المرأة المتزوجة الساقطة، فإن جريمتها غير قابلـة للإصلاح بزواجها من العشيق بعد طلاقها.

إذن فالأفكار الشائعة عن شرف المـرأة أفكـار سـليمة وضرورية للمجتمع. غير أنها أيضا قد بنيت على مصـالح محسوبة. وبالتالي فهي قيم – مع صحتها – نسبية وليسـت مطلقة. أعني أنها قيم لا يمكن للفكر المجرد أن يصل إليهـا، ولا على ضوء ظروف اجتماعية واقتصادية معينة. وعلـى هذا الأساس يمكن القول بأن قتل الوالـد أو الأخ للابنـة أو الأخت المنحرفة، أو انتحار الفتاة التي تحمل من علاقة غير مشروعة، هو من قبيل المبالغة والتطرف ونسيان الغاية التي كانت فكرة "شرف المرأة" مجرد وسيلة لها.

في مقابل هذا التضامن بين النساء، ثمـة تضـامن بـين الرجال يفرض على كل رجـل متـزوج أن يحـرص كـل الحرص على عدم إتاحة الفرصة للزوجة للإخلال بالتزامهـا الجنسي، وتوقيع أصرم عقاب على هذا الإخلال إن حـدث؛

حتى لا يحدث ثغرة في الترتيب الاجتماعي الذي ذكرناه متى تعاون أو تسامح مع خيانة زوجته رغم علمه بها. مثل هذا الزوج المتهاون محتقر من مجتمع الرجال كله، وإن كان ضياع شرفه ليس في نظر المجتمع بفظاعة ضياع شرف المرأة؛ حيث إن العلاقة الجنسية ليست عنده بالدرجة الأولى من الأهمية – كما عند المرأة – وقد يفوقها لديه في الأهمية طموحاتُه في شتى الميادين.

ولعل أصل حرص الرجال على شرف نسائهم هو أنه من نشوء نظام الملكية الخاصة، سواء في الأرض أو الحيوان أو النقود أو غير ذلك، بدأ الحرص من جانب صاحب الثروة – وهو في أغلب الأحيان من الرجال – على تنميتها، وعلى التأكد من أنه سيورثها لأولاده هو.. كذلك فإنه مع ظهور نظام القبائل بزغ الاعتقاد لدى كل قبيلة قوية بأن قوتها مرتبطة بنقاء سلالتها. وهما سببان أديا إلى الرغبة في التأكد من نسبة الأولاد إلى آبائهم، وبالتالي إلى ظهور المفاهيم التي ألمحنا إليها عن السلوك المطلوب من الأنثى قبل الزواج وبعده، وتأكيد أهمية البكارة وقت الزفاف، وتفضيل الإسراع بتزويج الفتاة بعد بلوغها مباشرة، أو حتى

قبل بلوغها، وفرض الحجاب عليها، وإخضاع تحركاتها ونشاطها منذ وقت مبكر لرقابة الأب والأم والإخوة أو الأعمام، إلى حين انتقالها إلى سلطة الزوج ورقابته.

وكما هو الحال مع الكثير من القيم التي ترى كطبقة أو عدة طبقات من صالحها أن تسود المجتمع الذي تعيش فيه، ارتبطت هذه القيم بالدين، واعتبرت هذه التقاليد والأحكام السلوكية من أحكام الدين التي لا سبيل إلى تغييرها أبدا.

غير أن القيم والمفاهيم هي لا شك عرضة للتغير على مر الحقب بتغير الظروف الاجتماعية والاقتصادية، خاصة في المجتمعات التي لم يعد الدين يلعب فيها دورا كبيرا كالمجتمعات الغربية، أو متى لم ترتبط تقاليد معينة بالدين. من أمثلة ذلك أنه قد كان من السهل نسبيا على اليابانيات التخلي عن عادة لبس الأحذية الحديدية الضيقة من أجل تصغير حجم القدم، بسبب عدم نص الدين على هذا التقليد، في حين كان من الصعب نسبيا على المسلمات أن يتخلين عن الحجاب الذي يرين أن القرآن قد أمرهن وألزمهن به إلى يوم الحساب.

فإن كان مفهوم شرف الفتاة قبل الزواج هو في طريقه إلى الزوال في المجتمعات الغربية، فإنما يرجع ذلك في رأينا إلى الأسباب التالية:

- أن التطورات الاجتماعيـة وأسـاليب التكنولوجيـا الحديثة قد جعلت سبل كسب العيش – فـي غالـب الحالات – في غير حاجة كبيرة إلى مجهود عضلي وعمل شاق لا يستطيع النهوض به غيـر الرجـل. وبالتالي فقد خرجت غالبية النساء الغربيـات إلـى العمل إلى جانب الرجال، وبات باستطاعتهن بفضـل عملهن أن يوفرن احتياجـاتهن الماديـة المتنوعـة، وإشباع رغباتهن المتعددة، ولم تعد حاجتهن كبيـرة، كما كانت في الماضي، إلـى الرجـال مـن أجـل توفيرها، وبالتالي لم يعد الزواج شرطا لها، ولم يعد يعنيهن بالدرجة الأولى نصب الشباك لرجال يتزوجن منهم.
- أنه بالرغم من أن الأعمال المنزلية ورعاية الأطفال لا تزال من شأن المرأة، فإن التكنولوجيـا الحديثـة سهلت من هذه المهام، وقصرت من الزمن الـلازم

لأدائها، وأقيمت المؤسسات التي ترعى الأطفال أثناء غياب المرأة في عملها، ومنحت القوانين المرأة الحق في إجازة للولادة ورعاية الطفل، بحيث لم تعد هـذه المهام تستنفد ما كانت تستنفده في الماضي من وقت المرأة وجهدها، وأمكن لها القيـام بأعمـال أخـرى غيرها. وبالتالي فقد اختفى أو تقلص إلى حد كبيـر تقسيم العمل على أساس الجنس.

- أن العلم قد أثبت أن الفكرة القديمة القائلة بأن حاجـة الأنثى إلى الإشباع الجنسي أقل من حاجـة الرجـل فكرة غير صحيحة على الإطلاق، وأصبح من رأي الأطباء أيضا أن عدم الإشباع الجنسي لـدى غيـر المتزوجات له انعكاسـاته علـى الصـحة البدنيـة والنفسية. وحيث إن المرأة في المجتمعات الغربية لم تعد في حاجة إلى الزواج من أجل سـد احتياجاتهـا المادية، فقد باتت تميل إلى الاعتقاد بأن مـن حقهـا الإشباع الجنسي مع العشيق دون التقييد بالقيود الثقيلة التي يفرضها الزواج، خاصة أن وسائل منع الحمـل التي توفرت في عصرنا هذا قد قللـت مـن خطـر

إنجاب أطفال غير مرغوب فيهم، ويمثلون عبئا ماديا على المرأة.

- وبتزايد عدد الفتيات الغربيات اللـ واتي لا يلتـ زمن بالعفة قبل الزواج انهار التضامن النسوي الذي كان يستهدف حصار الرجل وإجباره على التزوج. وكما أنه من شأن الثغرة في جسر مقام على مجرى مائي أن تتسع تدريجيا حتى ينهار الجسر كله، فقد كان من شأن تزايد عدد هؤلاء الفتيات أن أفلت الزمام لـ دى الجميع، وأضحت الفتاة البكر في المجتمع الغربي في شبه عزلة، ورآها غيرها محرومة بائسـ ة، تعـ ذب نفسها دون جدوى.

أما بالنسبة للزوجة الخائنة، فإن الاستنكار لفعلتها لا يزال قائما في ذلك المجتمع، وكثيرا ما تؤدي الخيانة إلى الطلاق، ربما بتأثير استمرار حرص الرجل على التأكد مـ ن أبوتـ ه للأولاد ومن أنه سيورث ثروتـ ه لأولاده لا لأولاد غيـ ره، ولأن الخيانة من شأنها إضعاف الرابطة الزوجية، وأن تفقـ د الحياة العائلية بهجتها القائمة على الثقة والحـ ب المتبـ ادلين. غير أن هذه النقطة الأخيرة ضيقت من تلك الهوة الكبيرة في

تقييم الخيانة الزوجية من جانب المرأة ومن جانب الرجل؛ إذ أن الخيانة من أي من الطرفين – وعلى سواء – كفيلة بـأن تزعزع من أسس المودة والألفة والتفاهم والثقة التي لا غنى عنها في أية زيجة سعيدة.

هذا عن الوضع في الغرب. أما في الشرق فإن المجتمـع والقانون لا يزالان يريان أن خيانة الزوج أقل خطرا بكثيـر من خيانة الزوجة؛ حيث إن الأولى هي عادة عابرة وغيـر ذات تأثير مدمر في الحياة العائلية، وبالنظر إلى أن الجـنس ليست له الأهمية العليا لدى الرجل (عكس الحال مع المرأة)، وإلى أن الزوج لا يمكنه – بعلاقاته غيـر المشـروعة – أن يقحم على زوجته أطفالا ليسوا أطفالها هي.

***

هذه بعض الأفكار التي خطرت بذهني بعد مشاهدة فـيلم "عفوا أيها القانون"، ربما وجد القراء في بعضها جانبا مـن الصحة.

"وأسمعت كلماتي من به صمم"

(١)

لي صديق مصري، واسع الثقافة، شديد الذكاء، قد شغف منذ حداثته بقراءة الأدب، غير أنه بعد أن قرأ قدرا بسيطا من الكتب العربية، تحول وهو في نحو السادسـة عشـرة إلـى الآداب الغربية، واقتصر عليها منذ ذلك الحين. بعـد زمـن أحس بالرغبة في الكتابة والإنتاج والتعبير عن مشاعره، وقد لمس في نفسه قدرة على الخلق الفني.. بيد أنه ما أن تبلورت في رأسه فكرة، وجلس أو استعد للتعبير عنها، حتى واجهته مشكلة جد غريبة: أنه لا يملك لغة يصوغ فيها أفكاره!

هذا الصديق المثقف الذي لم يتـرك كتابـا مـن روائـع الآداب العالمية إلا قرأه وأعاد قراءته مرات، والذي لم يكـن ليجلس في ندوة أدبية إلا أذهل الحاضرين بجمـال منطقـه، وقوة أحكامه، كان إذا تهيأ لكتابة خطاب قصـير بالعربيـة، تصبب العرق منه وأُرتج عليه، ثم إذا بخاطبه وقد فرغ مـن تحريره لا يفضل كثيرا في لغته خطابات البوابين والخـدم، يحرر سطرا منه بالعربية الفصحى وآخر بالعامية الدارجـة، إن أراد كتابة "يضطهد" كتبها "يتهض" والأخطاء النحويـة لا تكاد تخلو منها جملة مهما قصرت، وعبارة مهما بسطت.

زرت هذا الصديق في إحدى الأمسيات، فذكر لي أنه يتلقى دروسا في اللغة الألمانية؛ حتى يتمكن من قراءة أشعار جوته وهايني في الأصل، وأخبرني أنه اشترى مجموعة أُسطوانات لينجوافون الألمانية، قد خصص لها ساعتين من وقته كل يوم.. وفي أثناء جلستنا، سألني عما إذا كنت أحب أن أستمع إلى بحث كتبه في نقد الأعمال الروائية لإيفان تورجينيف.. سألته: "بأي لغة؟" أجاب ضاحكا: "بالعربية على ما أعتقد!" ثم بدأ يقرؤُه. فإذا الأخطاء النحوية تتنزل على مسامعي تنزول الكلمات؛ الجمل غامضة شوهاء، والمعاني لا تفهمها إلا بعد أن تستوقف المؤلف ليشرحها لك بالعامية، الألفاظ في غير مواقعها، والصفات قد استخدم العام منها حيث يتطلب الدقيق الخاص، هذا عدا ما اعترف لي به الكاتب بعد الفراغ من التلاوة من أنه أغفل سرد بعض المعاني لعجزه عن التعبير عنها.. وكان الصديق قد ترك في بحثه مساحات فارغة لكلمات قصد أن يسألني عن مرادفاتها في العربية الفصحى، واستخدم أحيانا كلمات إنجليزية مثل Pleasant و Colorful و Illuminating ريثما يبحث عن معانيها العربية في معجم "المورد" أو "المغني".

سألني بعد انتهائه من القراءة: "ما رأيك؟" وإذ خمن ما أنا في سبيل قوله أسرع معترضا: "لا تلق بالا إلى اللغة.. المهم هو المعاني؛ فاللغة يمكن أن أعيد صياغتها فيما بعـد، أو أن يصوغها لي من يجيد العربية".

ورفضت من جانبي في عناد أن أناقش المقـال إلا علـى أساس اللغة: "كيف تنتظر مني أن أستمتع بمقال صـيغ فـي هذه الصورة المزرية؟ أو كيف تتوقـع أن أطـرب لمعـاني عبرت عنها بألفاظ تجرح السمع وكأنها وخز الإبر؟".

قال في يأس: "ولكن ماذا عساي أن أصنع وتلك حصيلتي من العربية؟".

أجبت: "لتلق بهذه الأسـطوانات الألمانيـة – إذًا - مـن النافذة، ولتجلس ساعتين أو ثلاث ساعات كل يوم إلى كتـاب عربي في النحو، وكتـاب أدب رصـين.. ألا تـدرك أنـك وغالبية شباب العالم العربي اليوم قد بـتم كالإنسـان الأول والقبائل الهمجية، وما عدتم تملكون ناصية لغة تعبرون بهـا عن خواطركم؟ إن أمرنا لعجيب حقا! نطلـق علـى أنفسـنا وصف الأدباء أو المتأدبين المثقفين، ونحن لا نملك لغة! ألـم تلاحظ أن أي طالب مجتهد مثابر في مدارسنا الثانوية أحسن

أسلوبا وأرفع لغة من أسلوب أدبائنا الشبان ولغـتهم؟ فهـل يمكنك أن تتصور طالبا فرنسيا أفضل أسـلوبا ولغـة مـن مورياك وأندريه جيد؟ أبوسعك أن تتصور فولتير أو فلـوبير أو أناتول فرانس يدفع بكتاباته إلى مصحح لغوي قبل أن يبدأ الطبع؟ أباسـتطاعتك أن تتخيـل تورجينيـف أو تولسـتوي ضعيف الأسلوب، يرجو مجيدا للغة الروسية أن يعيـد لـه صياغة رواياته؟ ماذا دهانا إذن، حتى بتنا نفصل اللغة عـن الأدب؟!".

قاطعني وهو في مثل هياجي:

"فلتسمع إذن! كلامك هذا كلام صائب. ولكن قل لي بـالله عليك: ماذا أقرأ من الكتب العربية حتى أتمكن من اللغة دون أن يكون نظري فيها مضيعة للوقت؟ لقد كان أمام فلوبير هذا الذي تتحدث عنه وهو صبي كنوز من الروائـع فـي الأدب الفرنسي. كانت أمامه مؤلفات راسـين وكـورني وفـولتير وروسو وبلزاك وستندال وهيجو، وعشرات غيرهم ممن كان يمكنه أن يقرأ لهم، فيستمتع بالمعاني ويستفيد من الأفكار في نفس الوقت الذي يستفيد فيه من اللغـة.. ثـم انظـر إلـى: أتحسبني أقبل الآن - وقد قـرأت مؤلفـات دوستويفسـكي

وبوشكين، ومونتني ومونتيسكيو، وبـايرون وهـايني - أن أضيع وقتي في قراءة الصفدي والنويري، أو حتى الجـاحظ وأبي حيان التوحيدي والمتنبي، لمجرد أن أتقن رفـع الفعـل ونصب المفعول؟ أتظنني أرضى بأن أترك أشـعار كيـتس وشيلي إلى شعر عربي ربعه في مدح الولاة، وربعـه فـي الهجاء، وربعه في الفخر بالنفس، وربعه الباقي في رثـاء لا يمس القلب، أو وصف لا هو بالمقنع ولا بـالممتع، وتغـنٍ بالناقة لا أتجاوب معه؟

"لا تحسب أني لم أحاول في مستهل شبابي، فماذا وجدت؟ وجدت قول الفرزدق لجرير (وهو ما كان علينا أن نحفظـه في مدارسنا!):

يا ابن المراغة أين خالُك، إنني　　　خالي حبيش ذو الفَعال الأفضلُ
إنّا لنضـرب رأس كـل قبيلـةٍ　　　وأبوك خلـف أتانـه يتَقَمـلُ!

ورأيت طرفَة بن العبد يقول في معلقته:

أَحلْتُ عليهـا بـالقطيع فَأَجـذَمتْ　　　وقد خَـب آلُ الأمعـزِ المتوقّـدِ
فذالت كما ذالـت وليـدةُ معشـر　　　تُري ربها أذيالَ سـحل ممـدد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب　　　ببكهنَة تحـت الخبـاء المعمـد
كـأن البـرين والـدماليج علّقـت　　　على عشَر أو خِروعٍ لم يخضـد

وكرى إذا نادى المضـافُ مجنّبـا كسِيد الغضا ذي السورة المتورد

وهو ما لم أتعرف منه على أكثر مـن "تحـت" و"علـي" و"كأن" و"أو" و"لم" و"إذا"! أتراني أستطيع اليوم أن أرى فلسفة في قول الشاعر:

حيـاةٌ ثـم مـوت ثـم بعـثٌ حديث خرافـة يـا أم عمـرِو

أو حكمة في قول زهير:

رأيتُ المنايا خبطَ عشواء، من تُصِب تُمِتْه، ومن تخطئ يعمر فيهرمِ

أي مثقف يمكنه أن ينفعل اليوم إذ يقـرأ قصـيدة حـافظ إبراهيم في رثاء تولستوي:

قضيتَ حياةً ملؤها البِر والتقَـى فأنت بـأجر المتقـين جـدير

وسموك فيهم فيلسوفا وأمسكوا وما أنت إلا محسـن ومجيـر!

لقد كان حافظ هذا يستبيح لنفسه أن يقول الشعر في كتاب لقاسم أمين دون أن يقرأ منه سطرا.. فإن سطر طه حسـين نقدا لديوان جاء نقده على النحو التالي:

"وأنت تطوف في هذه الحديقة فيها ما شاء الله أن تـرى من شجر باسق في السماء، وزهر نضر يملأ النفس بهجـة

ورضا.. وأشهد أني قد قرأت الديوان مرات فلم أشعر بـأني قد قرأت شيئا كنت قد قرأته من قبل.. وما أشك فـي أنـي سأقرؤه إن شاء الله وأقرؤه، وأستمتع بقراءاته كلهـا، كمـا استمتعت بقراءته من قبل".

أهذا نقد؟ إني لأكاد أشهد أن طه حسين لم يقرأ من ذلـك الديوان بيتا واحدا!

أنا معك في أن وضعنا مشين، وأن لغتي وغيـري مـن الأدباء الشبان مزرية. غير أني أريد المعرفة والنـور قبـل النحو والصرف.. فإن كان فلوبير قد أخذها جميعا من قراءته لتراث بلاده الأدبي، فمن سوء طالعنا أن يختلف وضعنا وأن يكون تراثنا الأدبي تراث لغة فحسب..".

(٢)

مر أسبوعان على ذلك اللقـاء، ثـم إذا بصـديقي يـأتي لزيارتي على غير موعد، حاملا معه كتابـا مـن مجلـدين ضخمين، وضعهما على المنضدة أمامه في حجرة الجلـوس، قبل أن يشرع فيقول:

- لا بد من أن أعترف بأن توبيخك لي قد ترك أثـره العميق في نفسي.. وقد قررت في اليوم التالي للقائنا

أن أعود فأتحقق بنفسي من هذا الأمـر، أن أُشـكّل لجنة تحقيق في التهمة التي رميتني بها.. فكـان أن اشتريت ديوان المتنبي هذا لأبدأ به.. وقـد فرغـت اليوم من قراءته كله.

- وخيرا فعلت!
- نعم.. فننظر الآن معا في أمر هذا المتنبي الذي "جاء فملأ الدنيا وشغل الناس"، والذي قال عن نفسـه: "إن الأزمان لا تسع علمه بأمرها، وإن الأيام لا تُحسـن تكتب ما يملى". يشتمل ديوانه علـى ثلاثمائـة مـن القصائد والمقطوعات، تقع في ٥٤٢٩ بيتـا.. مائـة وخمسون من هذه القصائد والمقطوعات (أي النصف بالضبط) في باب المدح. والمدح فيها على المنـوال التالي:

يمدح أبا الحسن محمد بن عبيد الله العلوي:

لـه أيـادٍ إلـي سـابقة — أعد منهـا ولا أعـددها
يعطي، فلا مطله يكـدرها — بهـا ولا منـه ينكـدها
خير قريش أبا وأمجـدها — أكثرها نـائلا وأجودهـا
أفرسها فارسا، وأطولهـا — باعا، ومغوارها وسيدها

ويمدح أبا منتصر شجاع بن محمد الأزدي:

أمريد مثل محمدٍ في عصـرنا؟ لا تُبلنا بطـلاب مـا لا يلْحـقُ
لم يخلق الـرحمن مثـلَ محمـد أحـدا، وظنـي أنـه لا يخْلُـقُ
كذب ابن فاعلـة يقـول بجهلـه "مات الكرام" وأنت حي يـرزقُ

ويمدح عليا بن أحمد الخراساني:

ولا ثوب مجدٍ غير ثوب ابن أحمد علـى أحـدٍ إلا بلـؤمٍ مرقـع
أليس عجيبـا أن وصـفَك معجـز وأن ظنوني في معاليك تظلع؟
ألا كل سمح غيرك اليـوم باطـلٌ وكل مديح في سواك مضـيع

ويمدح شجاع بن عبد العزيز:

إلى سيد لو بشر الله أمـة بغير نبي بشرتنا به الرسـلُ

ويمدح عبيد الله بن يحيى:

فكن كما أنت يا من لا شبيه له أو كيف شئت فما خَلْقٌ يدانيكا

ويمدح عبد الرحمن بن المبارك:

إنما الناس حيـث أنـت ومـا الناس بناس في موضع منك خالِ

ويمدح بدر بن عمار:

فأنـــت وحيـــد بنـــي آدمٍ ولســتَ لفقــد النظيــر وحيــدا

وفيه أيضا:

مثلك يـا بـدر لا يكـون ولا   تصـلح إلا بمثلـك الـدولُ

ولن أطيل عليك فأُملك، رغم أني لم أصل بعد إلى مدائحه في سيف الدولة، وكافور، وفاتك، وابـن العميـد، وعضـد الدولة.. كل واحد منهم خير من تحت السماء، أطعن النـاس بالقناة، وأضربهم بالسيف، وأندى العـالمين بطـون راح، لا تصلح الدول إلا بمثله، وكل مديح في سواه مضيع!

فإن قرأت مدحه لكافور (وله في مدحه عشر قصائد)، ثم هجاءه له (وله في هجائه تسع قصائد) تملّك نفسك العجب من خلق هذا الشاعر.. إن دخل على كافور أنشد:

قواصد كافورٍ تـوارك غيـره   ومن قصد البحر استقلّ السواقيا

وإن خرج من عنده أنشد:

ومثلُك يؤتَى من بـلادٍ بعيـدة   ليضحك رباتِ الحـداد البواكيـا

ثم يدخل فينشد:

وكيف أكفر يا كافور نعمتَهـا   وقد بلغنك بي يا كـل مطلـوبي

أنت الحبيب ولكني أعـوذ بـه   من أن أكون محبا غير محبـوب

ويخرج فينشد:

لا ينجز الميعـاد فـي يومـه ولا يعي مـا قـال فـي أمسـه

فلا تُرج الخيـر عنـد امـرئ مرت يـد النخّـاس فـي رأسـه

ويذكر لونه الأسود أمامه فيقول:

إنما الجلد ملْبس وابيضاض النفس خير من ابيضاض القباءِ

من لبيض الملوك إن تبدل اللون بلون الأستاذ والسـحنـاء

ثم يذكره بعد أيام فيقول:

وأسـود مِشْـفَره نصـفُه يقـال لـه أنـت بـدر الـدجي!

ثم لكأنما يخشى أن يقال له: إنه من بين الـذين وصـفوا كافور ببدر الدجى، فيضيف:

وشِعر مـدحتُ بـه الكركـدن بـين القـريض وبـين الرقَـي

فمـا كـان ذلـك مـدحا لـه ولكنـه كـان هجـو الـورى!

إننا لنبحث في هذا الديوان الضخم حتى يعيينـا البحـث لنعثر به على قيم أخلاقية رفيعة، فلا نجد. فالشـاعر نفسـه منافق، كذاب، شحاذ، لا مبادئ له ولا خلق.. فإن كان مدحنا لأخلاق شخص يوضح قيمنا نحن الأخلاقيـة، فلنحـاول أن نستشف من مدح المتنبي قيمه.. بم يصف ممدوحيه؟ بأن والد الممدوح خير الآباء، وأخاه خير الأخوة، (وكفاه فخرا أنه من

قحطان)، وأنه أطعن الناس بالسيف، وأكثرهم تقتيلا للنـاس، أنه سخي كالسحاب (ونحن نعلم جيـدا علـة هـذا المـدح بالسخاء)، وأنه جميل الوجه (من واجبه أن يلبس برقعا حتى لا تموت النساء عشقا):

خَفِ الله واستر ذا الجمال ببرقع فإن لُحتَ ذابت في الخدور العواتقُ

اقرأ واعجب إذ يمدح سيف الدولة الحمداني فيقول:

ومن شرف الإقدام أنك فـيهم على القتل مموق كأنـك شـاكد

نهبتَ من الأعمار ما لو حويتَه لهنِّئـت الـدنيا بأنـك خالـد!

هي صورة لمجرم إلا أنه ممدوح:

فإن لم يكن في المدح ما يدلنا على قيم أخلاقيـة ممتـازة لدى الشاعر، فننظر إلى الممدوح، إلى سيف الدولـة الـذي "عادته الطعن في العدا" يصفه أحمد أمين في كتابـه "ظهـر الإسلام" فيقول:

"... كان ينهب كثيرا ويهب كثيرا. فيهب الكثير للمتنبـي لأنه يمدحه، ويبخل على ابن عمه أبي فـراس بفدائـه مـن الأسر.. وهذا قاضيه يجمع له مال الرعية ظلمـا وعـدوانا، والمتنبي يمدحه حتى تظن سيف الدولة ملكا كريما، وعـادلا

رحيما، عكس تاريخه.. يجري على الفارابي أربعة دراهـم في كل يوم لأنه فيلسوف، ويمنح المتنبي الآلاف.. قد سهل له قاضيه كل مظلمة، حتى قال القاضي يوما: من هاك، فلسيف الدولة ما ملك! فهو وهاب نهاب، يصادر الناس في أمـوالهم ليمنحها لمن يصوغون له قلائد المدح. وينطبق عليه الحديث: "ليتها ما زنت ولا تصدقت".

يا من يقَتِّل مـن أراد بسـيفه　　أصبحتُ مـن قـتلاك بالإحسـان

أكثر من نصف ديوان المتنبي مدح من هذا القبيل.. فكيف موضوعات النصف الآخر؟

فخر:

أي محـــلّ أرتقـــي　　أي عظـــيم أتّقـــي

وكل مـا قـد خلـق الله　　ومـــا لـــم يخلـــق

محتقـــر فـــي همتـــي　　كشـــعرة فـــي مفرقـــي

هجاء:

وما عليـك مـن العـار　　أن أمـــــك قحبـــــة

وما يشق علـى الكلـب　　أن يكـــون ابـــن كلبـــة

يا أخبث النـاس أصـلا　　فـي أخبـث الأرض تربـة

وأرخـص النـاس أمـا　　تبيـــع إلفـــا بحبـــة

إن أوحشـــتك المعـــالي فإنهـــــــا دار غربـــــة
أو آنســـتك المخـــازي فإنهـــا لـــك نســـبة

وهي القصيدة التي قتل المتنبي بسببها:

غزل:

نَفور عرتْها نفْـرة فتجاذبـت سوالفُها والحلْى والخَصر والردفُ
ومن كلما جردتها من ثيابهـا كساها ثيابا غيرها الشعر الوحفُ

أو:

أقول لها: اكشفي ضري وقولي بـأكثَر مـن تـدلّلها خضـوعا
أخِفْتِ الله مـن إحيـاء نفـس متى عصِي الإلـه بـأن أطيعـا؟

رثاء:

أتاها كتابي بعد يأس وترحـةٍ فماتت سرورا بي، فمت بها غما
ولو لم تكوني بنت أكرم والـدٍ لكان أباك الضخم كونُك لي أمـا
لئن لذّ يوم الشامتين بيومهـا لقد ولدتْ مني لآنُفِهـم رغْمـا!

وفيما عدا ذلك قصائد تهنئة بعيـد الأضـحى، ووصـف بطيخة عليها قلادة لؤلؤ، واستبطاء لعطاء ممدوح، ووصـف لكلاب صيد أرسل على غزال وليس معه صـقر، ووصـف لسلاح كان بين يدي سيف الدولة، وتهنئة للأمير لشفائه مـن

دمل، وتهنئة لكافور بانتقاله إلى مسـكن جديـد، ووصـف لمجلس نثر فيه الورد بين يدي عضد الدولة.

ما أحسبني متجنيا، ودونك الديوان فلترجع إليـه. وأقسـم أني قد أقبلت عليه ونفسي مفتوحة له، وبي رغبة قوية في أن أجد فيه ما يصرفني عن سالف رأيي. فإذا بي أمام ما حدثتك عنه.

وكم رجال بلا أرض لكثـرتهم تركت جمعهم أرضا بـلا رجـل!

كنت قد جلست إلى الديوان وفي يدي قلم أرسم به علامة قبالة الأبيات التي تستهويني وتلائم ذوق القارئ الحديث. فإذا بي من بين ٥٤٢٩ بيتا لم أجد غير ستة وتسعين بيتا يمكـن لنا أن نستسيغها اليوم. أي بمعدل بيت واحد من بـين كـل أربعة وخمسين بيتا. بمعنى أنه على قارئ الديوان أن يتحمل ثلاثة وخمسين بيتا من مثل:

يسابق سـيفي منايـا العبـاد إلــيهم كأنهمــا فــي رهــان

حتى يقرأ ما يمكن أن يتقبله ويعجب به مثل:

فالموت آت، والنفوس نفائس والمستَغر بمـا لديـه الأحمـق

بيت واحد تقرؤه للمتعة، وثلاثة وخمسـون لتـتقن رفـع الفاعل ونصب المفعول! أفليس هذا مصداقا لما كنت أعنيـه بإضاعة الوقت؟

ويقودنا هذا البيت الأخير إلى شعر الحكمة عند المتنبـي، وهي الحكمة التي دفعته لأن يقول: إن الأزمان لا تسع علمه بأمرها. ولنر ما إذا كانت هذه "الحكمة" تصـلح لأن تكـون مرشدا لنا في الحياة، أو هاديا لأخلاقياتنا، أو نورا يضيء لنا ما كان خافيا علينا.

المعنى الأساسي الحكيم عند المتنبي الذي يكرره في كثير من قصائده، هو أن المـوت آت لا محالـة، إلـى الملـوك والرعية، إلى العالم والجاهل، وأن الشباب زائل، والمسـتغر بما لديه هو الأحمق.. أما أن يتْبع المتنبي هذه المقدمة بنتيجة خاصة بالسلوك الذي يجب أن نؤسسه على حقيقة الموت، فما لا تجد له أثرا.. بمعنى أن حكمة المتنبي يمكن تلخيصها في الجملة الشائعة لدى العامة: "الدنيا فانية":

نبكي على الدنيا وما من معشر — جمعـتهم الـدنيا فلـم يتفرقـوا
أين الأكاسرة الجبـابرة الألـي — كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا؟

أو:

كثير حياة المرء مثـل قليلهـا　　　يزول وباقي عيشه مثـل ذاهبـه

أو:

نعــد المشــرفية والعــوالي　　　وتقتلنــا المنــون بــلا قتــال

يدفن بعضنا بعضـا ويمشـي　　　أواخرنـا علـى هـام الأوالـي

أو:

وقد فارق الناس الأحبـة قبلنـا　　　وأعيا دواء الموت كـل طبيـبِ

وعشرات وعشرات من الأبيات في نفس المعنى.. تكرار ممل، ومعاني لا أدل على تكلفها واصطناعها من المناسبات التي قيلت فيها؛ فهي ما كانت ترد عادة إلا في تعزية سـيف الدولة في أمه أو أخته الصغرى، أو أخته الكبرى أو عبـده يماك، أو في رثاء عمة عضد الدولة.

وكيف يريدنا المتنبي أن نتصرف إزاء هذه الدنيا الفانية ما دامت غاية المفرط في السلم كغاية المفرط في الحرب، ومـا دام الفارق بين راعي الضأن وجالينوس هـو فـي صـالح الأول؟

يجيب المتنبي:

لا تلقَ دهرك إلا غير مكتـرث　　　ما دام يصحب فيه روحك البـدن

فما يديم سرور ما سررت بـه　　　ولا يرد عليـك الفائـتَ الحـزن

وهذه هي فلسفة المتنبي الأخلاقية:

ولكن ماذا عن المتنبي المحيط بالطبيعة الإنسانية وأخلاق البشر، وهو القائل:

إذا ما الناس جربهم لبيب ... فإني قد أكلتهم وذاقا

يذهب المتنبي إلى أن الناس كلهم أوغاد، ما عداه هو والممدوح.. أي ممدوح؟

الممدوح الذي أنشدت القصيدة في حضرته:

أذم إلى هذا الزمان أهيلَه ... فأعلمهم فَدم، وأحزمهم وغد

وأكرمهم كلب، وأبصرهم عمٍ ... وأسهدهم فهد، وأشجعهم قِرد

أو:

وصرتُ أشك فيمن أصطفيه ... لعلمي أنه بعض الأنام

ثم نسمعه يتساءل فيما يشبه البراءة:

أما في هذه الدنيا كريم؟ ... تزول به عن القلب الهموم؟

أما في هذه الدنيا مكان ... يسر بأهله الجار المقيم؟

ولكن، ما موقفه إذا عثر على هذا الكريم الـذي يبحـث عنه؟ ما موقفه من الصفات الحميدة إن تبينها فـي النـاس؟ اسمعه يجيب:

والظلم من شيم النفوس، فإن تجد ذا عفـــة فلعلـــة لا يظلـــم

ملخص معرفته بالطبيعة البشرية – إذن - أنه لا ينبغـي على المرء أن يثق بالناس، إلا بطبيعة الحال: سيف الدولـة، وعضد الدولة، ومحمد بن عبيد الله العلوي!

ولماذا كل هذه الكراهية للناس وعـدم الثقـة بهـم؟ لأن المتشاعرين غروا بذمه، ولأن كافورا لم يمنحه الولاية التـي كان قد وعده بها، ولأن الحاسدين قطعوا عيشه عنـد سـيف الدولة.

فماذا يبقى لنا إذن من شعره؟ أبيات متفرقة هنا وهنـاك، نقرؤها في خمس دقائق أو عشر، ثم ننتهي من المتنبي إلـى الأبد.. أبيات مثل:

يخفي العداوة وهي غير خفية نظر العـدو بمـا أسـر يبـوح

أو:

ومن يك ذا فـم مـر مـريض يجـد مـرا بـه المـاء الـزلالا

أو:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر، فالـذي فعـل الفقـر

أو

وإذا كانـت النفـوس كبـارا تعبـت فـي مرادهـا الأجسـام

صفحتان أو ثلاث من مئات صفحات المجلدين، وتخـرج بعد قراءة الديوان تتساءل عن القيم الإنسانية عند المتنبـي، فإذا بها:

*تفرقة عنصرية:

لا تشتر العبد إلا والعصا معـه إن العبيـد لأنجـاس مناكيـد

من علم الأسود المخصي مكرمة أقومه البيض؟ أم آبـاؤه الصـيد؟

وذاك أن فحول البيض عـاجزة عن الجميل، فكيف الخصية السود؟!

*احتقار للمرأة:

إذا غدرت حسناء أوفت بعهدها ومن عهدها ألا يـدوم لهـا عهـد

كذلك أخلاق النسـاء وربمـا يضل بها الهادي ويخفَى بها الرشد

*كراهية للناس وحث على عدم الثقة بهم:

خليلك أنت لا من قلـت خلـي وإن كثـر التجمـل والكـلام

*دعوة إلى الانحلال:

انعـم ولَـذّ فللأمـور أواخـر أبـدا إذا كانـت لهـن أوائـلُ
ما دمت من أرب الحسان، فإنما روق الشباب عليـك ظـل زائـلُ

*دعوة إلى القتل والحرب وسفك الدماء:

ولو غير الأميـر غـزا كلابـا ثنـاه عـن شموسـهم ضبـاب
ولكـن ربهـم أسـرى إلـيهم فما نفـع الوقـوف ولا الـذهاب
فمســاهم وبســطهم حريــر وصــبحهم وبســطُهم تــراب

*روح استعمارية:

وتملك أنفـس الثقلـين طـرا فكيـف تحـوز أنفسـها كـلاب؟

***

إن سارتر يخبرنا في كتابه "ما هو الأدب؟" أنه لا يمكـن أن يكون لأدب قيمة إذا كان أساسه معاني منافية للإنسانية..

فأين قيمة أدب المتنبي وهذه معانيه؟ غير أنه يقول:

أنا الذي نظر الأعمى إلـى أدبـي؟ وأسمعت كلماتي من بـه صمـم
أنام ملء جفوني عـن شـواردها ويسهر الخلق جراهـا ويختصـم
كم تطلبون لنـا عيبـا فيعجـزكم؟ ويكره الله مـا تـأتون والكـرم

ما أبعد العيب والنقصان من شرفي أنا الثريا وذان الشـيب والهـرم

***

فإن كانت هذه هي حال الثريا، فكيف الشيب والهرم؟

أحمد أمين

قد أفردت كتابا مستقلا لأحمد أمين الوالد. فكيف يسـعني في بضع صفحات الإحاطة بأحمد أمين الإنسان، والمربـي، والقاضي، والعالم، والأديب، والصحفي، والإذاعي، والمؤرخ للحضارة الإسلامية، والأستاذ الجامعي، وعميد كلية الآداب، وعضو مجمع اللغة العربية ومؤسـس الجامعـة الشـعبية، ورئيس لجنة التأليف والترجمة والنشـر، وصـاحب مجلـة "الثقافة"، ومدير الإدارة الثقافية في وزارة المعارف، ومـدير الإدارة الثقافية بالجامعة العربية، ومحقق كتب التراث العربي القديم، ما لم أوجز العرض لبعض مساهماته الجليلة المتنوعة الباقية على مر الزمن، ثم أتهم بعد ذلـك – وعـن حـق – بالتقصير والإيجاز المخل؟

الإنسان

كان ناجحا في حياتيه العلمية والعملية معا. وكان نجاحـه فيهما نجاحا للجد وانتصارا للفضيلة؛ لأنه لم يعتمد في شهرته العلمية على الإعلان والتهويش، ولا في مناصبه الحكوميـة على الاستخذاء والملق. وإنما كان يجري في عملـه علـى الإخلاص، وفي معاملاته على الحق، وفي علاقاتـه علـى الشرف. وما كانت حياته الحافلة العريضة إلا مـثلا للحيـاة العاملة في غير ضجيج، الناصبة في غير ملل، المثمرة فـي غير غرور ولا دعوى.. فمن الناس من يحـدثون ضـجيجا هائلا حين يصلون إلى فكرة جديدة أو يكتشفون معنى جديدا. وكم وصل أحمد أمين إلى فكر ومعاني، بل لقد أنار عـوالم كاملة من حياة العرب العقلية في عصورهم المختلفة، ومـع ذلك لم يهول على الناس، ولم يحدث جلَبة ولا قرقعـة، بـل كان مثال العالم الحق الذي ينكر نفسه، ويتـرك للنـاس أن يكتشفوه ويعرفوه.

كتب إلى عام ١٩٥٠ وأنا غائب في لندن رسالة جاء فيها:

"رأيت أن قول الحق والتزامه، وتحري العـدل وعملـه، يكسب الإنسان من المزايا ما لا يقدر.. قد احتملت في سبيل

ذلك بعض الآلام، وأغضبت بعض الأنام، وضاعت علي من أجله بعض المصالح. ولكني برغم ذلك كله قد استفدت منه أكثر مما خسرت: استفدت منه راحة الضمير، وثقة الناس بما أقول وأعمل، وحسن ظنهم بما يصدر عني ولو لم يفهموا سببه. وقد استفدت منه أيضا ماديا أكثر مما استفاد غيري ممن لم يلتزموا الحق ولم يراعوا الصدق والعدل. لقد عشت في أوساط كثيرة، وعاشرت زملاء يرضون رؤساءهم أكثر مما يرضون ضمائرهم، ويقولون ما يعجب الناس لا ما يعتقدون أنه الحق، ويرتكبون الظلم طلبا للجاه أو للعلو في المنصب. ومع هذا فقد ربحوا قليلا وخسروا كثيرا.. خسروا الفضيلة والضمير، وفازوا بقليل من الحظ العاجل تبعه كثير من الفشل الآجل. فلو حسبت بالدقة ما كسبت وما خسرت، وما كسب هؤلاء وما خسروا، لوجدتني أسعد حالا وأوفر حظا. فإذا أردت أن تنتفع بتجربتي فالتزم الحق والصدق والعدل في جميع أعمالك مهما تكن النتيجة.

"نعم رأيت من زملائي من تمسكوا بهذه الفضيلة فخسروا كثيرا وفشلوا فشلا ذريعا. ولكن لم يكن عيبهم أنهم التزموا الحق والصدق والعدل، بل عيبهم أنهم التزموا هذه الصفات

في سماحة فقالوا الحق في غير أدب، والتزموا الصدق فـي غير لياقة، وتحروا العدل في غير لباقة، فلم يكن الذنب ذنب الحق، ولكن الذنب ذنب السماحة.. فتعلم من هـذا أن تقـول الحق في أدب، وتتحرى العدل والصدق في لباقة ولياقة، فمن غضب بعد ذلك كان الذنب ذنبـه، ولا ذنـب عليـك.. ولا تتعجلن النتيجة؛ فقد تمس من الحق نارا، ويهب عليـك مـن العدل لفحة جحيم، ولكن ذلك أشبه ما يكون بالامتحـان، إن صبرت له انقلبت النار جنة، واللفحة الحارة نسيما عليلا..".

المربي

لم تكن التربية في رأيه مجـرد درس يلقـى ومعلومـات تشرح. بل حرص الحرص كله على أن تكون تفتيحا للذهن، وإيقاظا للانتباه والملاحظة، وتعهدا للسلوك وتقويما للأخلاق. وهو ما كان أبدا يتعبد الآراء التي يصل إليها؛ بل كان يمرن طلبته ومريديه على خلافه، وأن يروا الرأي مناقضا لرأيـه، يريد بذلك أن تكون لهم أصالتهم في الفهم والحكم، لا مجـرد الجدل والمناقشة في غير طائل. وكان يسعى جاهدا إلى رفع الحواجز بين الطلبة الجامعيين وأساتذتهم، وألا يكتفـوا بمـا يدون في المحاضرات، بل يتحولوا إلـى الأروقـة وحجـر

البحث والمكتبة، يتجادلون ويتحاورون، لا فرق بـين كبيـر وصغير، ولا شيخ ولا شاب إلا مقدار التجربة والسبق إلـى معرفة الحقيقة.

كانت تربيته فكرية وروحية، لا لأولاده وطلبته فحسـب، وإنما أراد بها أن تشمل الشعب بأسره، وتغذي المجتمع كله، وقد قصد إليها عن طريق مجالسه فـي الأنديـة، وأحاديثـه الأسبوعية في الإذاعة، ومقالاته الكثيرة في مجالات "الهلال" و"الثقافة" و"الرسالة" و"الاثنين" وغيرها، ومحاضراته في كل مكان: يحلل التقاليد والعادات، ويناقش الـذوق والعـرف، ويعرض للمشاكل الحاضرة، ويقارن بين الشرق والغـرب، ويوازن بين الحاضر والماضي، ويرمي إلى وضـع دعـائم تربية اجتماعية استقلالية. ورغم أنه كان يفضل الخُلوة إلـى نفسه، ويلذ له التأمل الهادئ وتفكيـر المتوحـد، فقـد كـان يحرص - من أجل أداء رسالته في التربية - على الاتصال بالناس، فكان بيتنا مفتوحا لتلاميذه وأصدقائه، وكانت جلسات لجنة التأليف والترجمة والنشر في أيام الخميس مقدسة لديه، لم يتخلف عنها إلا في القليل النادر طوال الأعوام الأربعـين التي رأس اللجنة خلالها.

وهو يدرك مع ذلك حتمية اختلاف كل جيل عما سـبقه.. كتب إلي يقول:

"أي بني: إني لأعلم أنك قد خلقت لـزمن غيـر زمنـي، وربيت تربية غير تربيتي، ونشأت في بيئة غير بيئتي.. لقـد كنتُ في زمني عبد التقاليد والأوضاع، وأنت في زمن يكسر التقاليد والأوضاع.. وكنت في زمن شعاره الطاعـة لأبـي ولأولياء أمري، وأنت في زمن شعاره التمرد، التمرد علـى سلطة الآباء وعلى المعلمين وعلى أولي الأمر.. وتعلمت أول أمري في كُتاب حقير نجلس فيه علـى الحصـير، ويعلمنـا مدرس جبار، يضرب على الهفوة وعدم الهفوة، ويعاقب على الخطأ والصواب، ويمرن يده والعصا فينا كما تمرنون أيديكم على الألعاب الرياضية، وأنت تعلمت في روضـة الأطفـال حيث كانت تشرف عليك آنسة رقيقة مهذبة، وتقدم لك تعلـيم القراءة والكتابة في إطار من الصور والرسوم والأغاني وما إلى ذلك.. وكنت أعيش في كتابي على الفول النابت والفـول المدمس، وأنت تعيش في روضـتك علـى اللـبن والشـاي والبسكويت وما إلى ذلك أيضا، ثم لما صبوتَ تعلمـتَ فـي مدارس نقلت إليك أساليب المدنية الغربية.. وتربيتُ أنا فـي

وسط كله دين: دين في الكتب، ودين في الحياة الاجتماعيـة، ودين في أوساطي كلها، وتربيت أنت في مدارس أو جامعات لا يذكر فيها الدين إلا بمناسبات. وكان يذكر الدين في وسطنا دائما ليحترم، وكثيرا ما يذكر الدين في وسـطك ليهـاجم.. ونشأت في وسط لا تذكر فيه السياسة إلا لماما، ونشأت فـي وسط كله سياسة وإضراب وأكثر من الإضراب.. ونشأت في وسط لا يعرف المرأة إلا محجبة، ولا يعرف الشاب فتاة إلا أن تكون قريبة، ونشأت أنت في وسط تجالسك الفتـاة فـي جامعتك، وتشاهدها في أوساطك وقد أخذت من الحرية مثـل ما أخذتَ..

"ولو عددت لك الفروق بيني وبينك في زمنـي وزمنـك، وتعليمي وتعليمك، وبيئتي وبيئتك.. لطال الأمر. ومع ذلـك فإنه الفروق - مهما كانت - فروق جزئية، ولا يزال بينـي وبينك وجوه شبه أعمق من هذه المظاهر. فالاختلافات بـين الناس - مهما اختلفت الأزمنة والأمكنة - اختلافات سطحية، وأمور عرضية. أما الإنسان في جوهره والجمعيات البشرية في نزعاتها الأصيلة، فترجع إلى أصول واحدة. ومن أجـل هذا كانت تجارب السلف مفيدة دائما للخلف. فلأقص عليـك

شيئا من تجاربي التي أعتقد أنها قد تفيدك مهما اختلفت بيئاتنا ومدارسنا وثقافتنا ...".

العالم والمفكر

كان متضلعا من علوم الدين واللغة كأكثر النابغين من المتخرجين في الأزهر. ولكنه كان من الأزهريين القلائل الذين أوتوا دقة النظر، وحرية الفكر، وسعة الأفق، فكان في الدين صاحب اجتهاد، وكان في اللغة صاحب رأي.. كان يرى أن الدين دستور الدنيا، فلا بد أن يتطور مع العلم، وأن يتقدم مع الحضارة، وأن يسهم في توفير الحلول للمشكلات المستجدة. وكان يرى أن اللغة أداة للفهم، فلا بد أن تطوع لألسنة الناس، وأن تبسط قواعدها، وأن تجدد على طول الزمن، وإلا فإنها لا تلبث أن تموت أو تتخلف، فتنحط إلى العامية، أو تضيع بين ألسنة الأميين والجهلة.. وقد ساءه أن يسد الأوائل باب الاجتهاد في اللغة كما سدوه في الدين والشريعة، وكتب يقول:

"نحن بين اثنين: إما أن نقدس ما قاله العرب ونقف عنده ولا نسمح لأنفسنا بوضع جديد؛ وحينئذ يجب أن تكون اللغة العربية أثرية كاللاتينية، وإما أن تكون لغة حية، وحينئذ يجب

أن تخضع لقوانين الحياة فتنمو وتتجدد وتساير حياة النـاس لتلائم الزمن، وهذا الأخير هو الذي ينبغي أن يكون".

وقد اجتمعت لأحمد أمين خصال إذا اجتمعت في شـخص كان حكيما على الحقيقة، هي: حرية الفكـر، والبعـد عـن الدوجماطيقية، والترحيب بالنقد، والجلاء والوضوح، والعناية بالكل دون الأجزاء، والبحث عن العلل.

كان حر الفكر إلى أبعد حدود الحرية، لا يقـول إلا مـا يعتقد، ولا يحفل إلا بالحق وحده، لا يهمـه مصـانعة ذوي السلطان، أو تملق الجماهير، أو مشايعة الأهـواء السـائدة. وتبدو هذه الحرية في الجهر باعتقاداته الدينية على الرغم من مصادمتها لمشاعر الجمهور، ومخالفتها للمألوف من التقاليـد الطويلة الأمد.. جاهر بالانتصار لمذهب المعتزلة الذين اعتقد أنهم أهل العقل في الإسلام، ونادى بالرجوع إليـه، وتفسـير الدين بالعقل، مع أن المسلمين عارضوا ذلك المـذهب منـذ القرن الرابع الهجري، وحكموا على أصحابه بالكفر، وحرقوا كتبهم، ومنعوا تدريس تعاليمهم في مدارسهم. وجاهر برأيـه في الشيعة ومعتقداتهم حتى كاد يصيبه من جراء ذلك محنـةٌ عظيمة حين كان ببغداد بعد أن أصدر "فجر الإسلام" ومـع

ذلك فقد حاول المهادنة بين الشيعة والسنة؛ حتى تتحد كلمة المسلمين، وخصوصا أن موضوعات الخلاف بينهما أصبحت في ذمة التاريخ البعيد.

كذلك فقد نادى بفتح باب الاجتهاد؛ حتى لا نظل عبيدا لأبي حنيفة والشافعي ومالك وابن حنبل، وقد كانوا ملائمين لزمانهم، أما اليوم فقد تغيرت الأحوال واختلفت المشكلات والتحديات. وقد ثار علماء الدين على رأيه هذا، كما ثار علماء اللغة على دعوته إلى تبسيطها والإحاطة بالكثير من قواعدها؛ حتى تكون لنا لغة شعبية، ننقيها من "حرافيش" الكلمات، على حد تعبير ابن خلدون، ونلتزم في أواخر الكلمات الوقف من غير إعراب، وتكون هي لغة التعليم ولغة المخاطبات ولغة الكتابة للجمهور، ولا تكون اللغة الفصحى إلا لغة المثقفين ثقافة عالية ممن يريدون أن يطلعوا على الأدب القديم".

كذلك فقد أثار ثائرة المناصرين للعروبة حين كتب في "فجر الإسلام" يقول:

"لسنا نعتقد تقديس العرب، ولا نعبأ بمثل هذا القول الذي يمجدهم ويصفهم بكل كمال وينزههم عن كل نقص؛ لأن هذا

الخط من القول ليس نمط البحث العلمـي. وإنمـا نعتقـد أن العرب شعب ككل الشعوب، له ميزاته، وفيه عيوبـه، وهـو خاضع لكل نقد علمي في عقليته ونفسيته وآدابه وتاريخـه، ككل أمة أخرى.." وقد رد عليه خصومه يعتبون عليه الكتابة عن العرب كباحث بعيد عنهم، ويذكرونه بآية: ((**كُنْتُم خَيـر أُمةٍ أُخْرِجتْ لِلنـاس ...**)) التي تكفي للإعلان عـن القيمـة الأصلية للعنصر العربي بين الأمم، ويقولون إن رائدة فـي هذا الحكم هو ابن خلدون الذي لم يكن يرى للعرب فضـيلة ولا فضلا.

الأديب

كان همه من الكتاب أن يقرر ويقنع، لا أن يؤثر ويمتـع. ولعل منشأ ذلك فيه أن عقله كان أخصب مـن خيالـه، وأن علمه كان أكبر من فنه، وأن حبه للحرية والصـراحة كـان يحبب إليه إرسال النفس على سـجيتها مـن غيـر تقييـدها بأسلوب معين، وعرض الفكرة على حقيقتها من غير تمويهها بوشي خاص. ومع ذلك كان لأسلوب طابعه المميز وجاذبيته القوية بحيث وصفه أغلب النقاد بالسهل الممتنع. تقرؤه فـلا تروعك منه الصور البيانية الأخاذة، ولا الأصوات الموسيقية

الخلابة، وإنما تروعك منه المعاني المبتكرة الطريفة، والآراء الصريحة الجريئة، والشخصية القوية الميهمنة.. فأنت منـه بإزاء عالم يبحث لينتج، أو مصلح يصف ليعالج، لا بـإزاء مصور يلون ليعجب، أو موسيقي يلحن ليطرب.

فالجلاء والوضوح هما سمة كتاباته كلها، خاصة مقالاتـه التي جمعها في كتاب من عشـرة مجلـدات، هـو "فـيض الخاطر"، الذي يضم كافـة آرائـه السياسـية والاجتماعيـة والأدبية واللغوية.. وقد جاء هذا الجـلاء والوضـوح مـن أمرين: الأول: وضوح الرأي في ذهنه، والثـاني: حرصـه المتعمد على تجنب التزويق في اللغة.. كان بوسعه أن يتقعر، وأن يسجع، وأن يجري على أساليب الجاحظ وغيـره مـن المتقدمين. ولكنه آثر جلال المعنى على جمال اللفظ، ورنين الفكرة على جرس العبارة. ودرج على التعبير البسيط الـذي يضرب في المعنى إلى الصميم دون برقشة أو زركشة؛ حتى يضرب للناس مثلا في العناية بالأفكار، والابتعاد عن الصنعة التقليدية التي قتلت الفكر والأدب العربيين، وأثقلتهمـا بهـذه الزينة اللفظية، وكان يوجه النقد والتهكم لمن التزموا الـنمط التقليدي في تأليفهم أو تعبيرهم، ويعد هذا فيهم مـن أسـباب

السطحية والفقر في الحياة العقلية للعرب.. كتب في وصـف أحدهم يقول:

"أديب اللفظ، فارغ الرأس، قليل العلم، قريب الغور، قـد ستر كل هذا بزخرفة القول كمـا تسـتر الشـوهاء عيبهـا بالأصباغ!".

المؤرخ الإسلامي

على أنه ربما كان أخطر إنجازاته الفكرية على الإطلاق، وأبقاها على الأيام، هي كتبـه "فجـر الإسـلام" و "ضـحى الإسلام" و "ظهر الإسلام" التي عرض فيها بالتحليل للحيـاة العقلية للعرب والمسلمين تحليلا لم يتهيأ مثله لأحد من قبلـه. وقد وصف المستشرق البريطاني سير هاميلتون جيب هـذه الكتب في "دائرة المعارف الإسـلامية" بأنهـا "أول محاولـة شاملة لإدخال منهج النقد في التـأريخ الإسـلامي العربـي الحديث" وستظل هذه الكتب الخالدة شاهدة على الجهد الذي لم يكل، والعقل الذي لم يضل.. حاول فيها أن يلـتمس العلـل البعيدة التي غذت العقلية الإسلامية ونمتها وصقلتها وشكلتها في شتى الصور على مر العصور.. وقد اقتضى منـه هـذا التحليل أن يرجع إلى العوامل الدينية المستمدة من الإسـلام،

وإلى العناصر الدخيلة علـى المسـلمين مـن الحضـارتين الفارسية والهندية، ومن الفلسفة اليونانية، وكيف تفاعلت هذه العوامل كلها في بوتقة الحضارة الإسلامية. وفعل أكثر مـن ذلك إذ نظر إلى العقل الإسلامي فشرحه تشريحا، في حريـة شديدة، وجرأة غير معهودة، وانتقل من التحليل إلى الأفكـار التركيبية التي انتهت إليها العقلية حتى تحققت فـي الحيـاة، واستوت في مظاهر السلوك، وبرزت في الأقوال المسطرة، والكتب المدونة، والعلوم المنتشرة.

وقد ارتفع في هذه الكتب إلى النظرة الكلية الشاملة، وبسط الحياة العقلية في الإسلام بنظره النافذ، وأحال ما فيهـا مـن اضطراب إلى وحدة، فلم يعد القارئ العربي يحـس بـإزاء تاريخه أنه في متاهة لا يعرف كيف يـدخل إليهـا، وكيـف السبيل إلى الخروج منها.

فقد درج العرب على تأريخ حوادثهم في حوليـات، كمـا نرى في الطبري وابن الأثير وغيرهما، فيذكرون الأحـداث من شتى نواحيها، يختلط فيها التـاريخ المحـض السياسـي بالأدب والعلم والدين. ولم يعرف أحد من المتقدمين طريقـة الكتابة التاريخية الحديثة، اللهم إلا ابن خلدون الذي صور في

مقدمته كيف ينبغي أن يكتب التاريخ، حتـى إذا شـرع فـي تدوين تاريخه سار على نهج القدماء.

أما تاريخ الحضارة بمعنى الكلمة فلم يعرفوا عنه شـيئا. فإذا أراد باحث اليوم أن ينهض لتصوير الحضارة الإسلامية في مختلف عصورها، مع بيـان العناصـر المكونـة لهـا، والظروف التي أدت إلى ظهورهـا، كالعوامـل الجغرافيـة والسياسية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية، فلـن يجـد إلا القليل من ذلك واضحا في الكتب القديمة؛ لذلك كانت مهمـة مؤرخ الحضارة الإسلامية مهمة شاقة عسيرة، تحتـاج إلـى إحاطة شاملة بكثير من العلوم، من تفسـير وحـديث وفقـه وتاريخ وأدب واجتماع واقتصاد وفلسفة وعلم كلام وتصوف، ثم يحتاج بعد هذا كله إلى تنظيم جديد لهذا المـادة الواسـعة التي جمعها، تتجلى فيها أصالة الفكر، ورجاجة العقل.

وقد كانـت هـذه هـي المهمـة التـي أخـذها أحمـد أمين على عاتقه.. كتب في مقدمة الجزء الأول من "ضـحى الإسلام" يقول:

"لعل أصعب ما يواجهه الباحث في تاريخ أمة، هو تاريخ عقلها في نشوئه وارتقائه، وتاريخ دينها وما دخله مـن آراء

ومذاهب. ذلك أن مدار البحث في المسائل المادية وما يشبهها واضح محدود، وما يطرأ عليها من تغير ظاهر جلـي. أمـا الفكرة فإنك إن حاولت أن تعرف كيف نبتت، وكيف نمـت، وما العوامل في إيجادها، وما العناصر التي غـذتها، ومـا الطوارئ التي طرأت عليها فعدلتها أو صقلتها، أعياك ذلـك، وبلغ منك في استخراجه الجهد"

غير أن الرجل لم يبخل بجهده، ووفـق بفضـل ثقافتـه العريضة ونظرته الثاقبة إلى أن يقدم – على حد تعبير طـه حسين – "عرضا دقيقا صحيحا صادقا لتطور الحياة العقليـة للمسلمين ملائما للعقل الحديث.. وكذلك استطاع ذلك الشـيخ القديم الذي لم يجد نفسه في الأزهر، ولا في مدرسة القضاء، ولا في الأعمال المختلفة التي تقلب فيها، والذي كان شـيخا ضائعا بين شيوخ ضائعين، أن يفرض نفسـه علـى الحيـاة العلمية فرضا، وأن يظفر بإعجاب المواطنين والأجانب مـن العلماء، وأن يصبح ثقة في تـاريخ الثقافـة الإسـلامية، لا بالقياس إلى تلاميذه وزملائه في مصر والعالم العربي، بـل بالقياس إلى كل من يعنون بهذا النحو من أنحاء العلـم فـي أقطار الأرض كلها".

"أذم إلى هذا الزمان أهيله.."

لو أني سئلت عن أبرز خصائص أنـاس هـذا الزمـان لأجبت بأنه التعجل ونفاد الصبر وضيق العطن.

فما من أحد عاد يطيق "إضاعة" الوقت في النمـو. وقـد أضحت كلمة "الغد"، وتعبير "في الوقت المناسب" مرفوضين من الكافة تقريبا، كما تحول "الأمل" في بلوغ أمر أو نـوال شيء في نهاية المطاف، إلى مجرد رغبة جامحة في بلوغـه أو نيله في التو والساعة. فإن لوحت له بكلمـة "المسـتقبل" أعرضوا وازوروا بوجوههم، وأجابوك بأن المسـتقبل هـو الآن.

أضحت الدول المتخلفة – وقد أحاطتها وسـائل الإعـلام المختلفة علما بأساليب الحياة الرغدة في الـدول المتقدمـة – عازفة كل العزوف عن تبني التدرج والأناة في نموها، وتأبى أن تتبع كافة الخطوات التي قطعتها الدول المتحضـرة فـي سبيل بلوغ ما بلغته، وإنما تريد الطفـرة وانتهـاج أقصـر وأسرع السبل إلى بلوغ الحضارة والرفاهية، وثمارهما التي ترى غيرها يستمتع بها، والتي يسيل لها لعابها.. فهل لا ترى ضرورة للسير خطوةً خطوة؟! وبالتالي فإن كافتهـا تحـاول

القفز دون السير حتى تلحق اليوم بالمستقبل، تارة عن طريق تبني الماركسية باعتبارها أقصر الطرق إلى الغاية المنشودة، حتى إذا ما انهار مشروعها الاشتراكي تحولت إلى انتهـاج نهج "النمور الستة" من بلدان جنوب شـرقي آسـيا (كوريـا الجنوبية وتايوان وهونج كونج وسنغافورة وماليزيا وتايلاند)، باعتبار تجاربها أنجح التجارب المعاصرة الكفيلـة بضـمان اللحاق بصفوف "العالم الأول".

ولا يقتصر هذا التعجل ونفاد الصبر على الدول، وإنمـا يتعدىانها – وبصورة أوضح وأقبح - إلى الأفراد من أهـل هذا الزمان ممن يرفضون انتظار الغد أو ترقب ما يخبئه لهم المستقبل، وإنما يبقرون بطن هذا المستقبل ويجرون عمليـة قيصرية له؛ حتى يخرجوا منه الجنين قبل تمام نموه وحلول الأوان الطبيعي لولادته. والنبات ما إن ينبـت مـن بذرتـه وتلوح أوراقه الصغيرة الغضة للأعين، حتى يتطلـع فاقـد الصبر إلى أن يصبح شجرة باسقة، وإلى أن يزهـر وينـتج ثمرا، حتى لو اضطر إلى الاستعاضة عن الأزهار والثمـار الطبيعية بأخرى صناعية.

لننظر إلى شباب هذا الزمان، إلى الجادين مـنهم وغيـر الجادين على سواء:

فأما الجادون الملتزمون، فلم يعودوا يصبرون على فكرة قضاء السنوات الطويلة في تحصيل ثقافة عريضـة أصـيلة تنمو على مر الأيام، أو إعمال الفكر وبذل قصارى الجهد من أجل الوصول إلى آراء سديدة تتمتع بأكبر قسط ممكن مـن الموضوعية، وإنما نجدهم يقفزون قفزا إلى اعتناق أية عقيدة توهمهم بأنهم باتوا يفكرون لأنفسـهم وينتقـون، وتجعلهـم يتخيلون أنهم – بفضلها – قد صار بوسعهم تفسير كل شيء، والحكم على كل شيء.

وأما غير الجادين فينظـرون إلـى سـنوات التحصـيل والدراسة باعتبارها مضيعة للوقت، وعبئـا لا مبـرر لـه، وعقبة تعسفية تعوق الشروع فورا في الانخراط في الحيـاة "الحقيقية" وهم لا يؤمنون بما يلقيه علـيهم أسـاتذتهم مـن دروس، فإن ذاكروا هذه الدروس، فإنمـا يـذاكرونها كـي يتقيئُوها بعد ذلك في ورقة الإجابة، ثم يمحوا ما تعلموه مـن ذاكرتهم إلى الأبد كأنه لم يعلق بعقولهم قط. وبالتالي فهـم لا يرون بأسا في اللجوء إلى الغش وقت الامتحانات، بل ولـم

يعد الكثيرون من آبائهم يرون بأسا في هذا الغش؛ حيـث إن الهدف لم يعد تحصيل العلم، وإنما نيل الشهادة وبدء "الحيـاة الحقيقية" بعد كل تلك السنوات التي ضاعت "فيما لا جـدوى فيه".

وخريج الجامعة متى نال غرضه وحصل على شهادته، لا يفكر في الالتحاق بالعمل الكفيل بتحقيق ذاته، أو خدمة وطنه وبني قومه، أو الذي يتفق مع ميوله وتكوينـه واسـتعدادته الذهنية، وإنما يبحث عن العمل الذي يدر عليه أعلـى دخـل متاح لأمثاله في السوق، كوظيفة في بنـك، أو فـي هيئـة أجنبية، أو شركة من شركات التصدير والاستيراد، أو خارج وطنه في دولة منتجة للنفط.. فإن هو أقـدم علـى الـزواج حرص - هو وزوجته - على أن تتوافر في مسكنهما كافـة الكماليات والأجهزة الكهربائية المنزلية دفعة واحدة، رافضين في سخرية فكرة "بناء طوبة طوبة في عش حبنا" فالكل يريد الثروة الفورية والرفاهية الكاملة، وتمكنت من عقله فكرة أن من لا يمتلك الاثنتين منذ البداية فلن يمتلكهما أبدا، ومن قَبِـلَ في مستهل حياته العملية مركزا صغيرا فسيظل فيـه علـى الدوام. وهو ما قد يفسر لنا قبول بعض المنحرفين الانخراط

– ولو مرة واحدة – في نشـاط غيـر مشـروع كتهريـب المخدرات، تمكنه حصيلته منه من وضع أساس للحياة الرغدة التي لا يقبل عوضا عنها. كما يفسر لنـا انتشـار ظـاهرة الزواج عن غير حب، بل وشيوع الاستخفاف بعاطفة الحـب ذاتها، متى سنحت فرصة الاقتران بزوج ثـري أو زوجـة ثرية، وظاهرة افتقار التجار والوسطاء ومقاولي البناء، بـل والكثيرين من الأطباء والمحامين وغيرهن مـن المشـتغلين بالمهن الحرة، إلى أدنى مستويات الذمة والأمانة.

فإن نحن نظرنا في مجال الفنون والثقافة، نجد أن ممثلـة من الجيل الماضي – كجريتا جاربو مثلا – كانت تحـرص في مستهل حياتها الفنية على الالتحاق بمعهـد أو أكاديميـة للتمثيل، تقضي به أو بها السنوات الطوال في دراسة منتظمة شاقة، تنتقل بعدها إلى قبـول أدوار مسـرحية أو سـينمائية صغيرة، وتظل هذه الأدوار تتزايد في أهميتها حتـى يسـند إليها دور البطولة، ثم حتى تصبح نجمة لامعة. أما اليـوم – ربما منذ اكتشاف المخرج إيليا كازان لجـيمس ديـن عـام ١٩٥٥ وهو في الرابعة والعشرين من العمـر، واكتشـاف المخرج ستانلي كريمر لصوفيا لورين عام ١٩٥٧ وهي في

الثالثة والعشرين – فإن أي شاب يتطلع إلى احتراف التمثيل، بات يحدوه الأمل في أن يكتشفه مخرج مرموق فيجعل منه نجما بين عشية وضحاها؛ ولذا فقد قيل: "إن الممثلة كانت في الماضي تحاول جاهدة أن تصبح نجمة، أما اليوم فليس ثمة غير نجمة تحاول أن تصبح ممثلة"!

لقد بات ثمة الآن ما قد نسميه بالشهرة الفورية، أسوة بالأطعمة الفورية Instant Food أو القهوة الفورية Instant Coffee مما تقدمه لعملائها محلات مكدونالدز، وهي إحدى السمات الرئيسية للعصر الذي لا يطيق أبناؤه الانتظار. وقد أدرك المؤلفون الشباب في زمننا هذا – وهم المتعطشون إلى الشهرة الفورية – أن هذا النوع من الشهرة لا يتوقف على ما تعرفه، وإنما على من تعرفه (أعني من النقاد ورؤساء التحرير وأصحاب دور النشر والقائمين على جهازي الإذاعة والتليفزيون). وهم يفضلون كتابة المقالات للصحف والمجلات واسعة الانتشار على قضاء السنوات الشاقة في تأليف كتاب تطبع منه ثلاثة أو خمسة آلاف نسخة لا تنفد إلا بعد انصرام أعوام. فإن طبعت لهم كتب فكثيرا ما تكون من صنف الكتب مضمونة الرواج؛ كالكتب الجنسية

الفاحشة، أو الفكاهيـة الرائقـة، أو البوليسـية الشـائقة، أو العاطفية الرومانسـية التـي تسـتهوي قلـوب المـراهقين والمراهقات، أو شديدة التعاطف مع تيار سياسي أو ديني لـه شعبية كبيرة مؤقتة.

حينئذ يلمع اسم الكاتب، وتزويد دور النشـر مـن نسـبة مكافأته، وتستجلبه الإذاعة للحديث فيها، والتليفزيون لكتابـة التمثيليات المسلسلة له، وتستكتبه الجرائد والمجلات، ويدعى للاشتراك في ندوات، وإلى إلقاء المحاضرات، وتجرى معـه المقابلات الصحفية، وتسند إليه كتابة عمود يومي أو مقـال أسبوعي، ويؤخذ رأيه عند وقوع حدث، ويمطر بالأسئلة عن نمط حياته وأسلوب معيشته، وعن ألوان الطعام التي يهواها، والأغاني التي يفضلها، وعلة غرامه بالقطط، وسبب كراهته لارتداء رباط العنق.

وهو إذ يقبل على كل هذا في نشاط وهمة، إنما يحفر قبره بنفسه.. فالساعات التي كان يقضيها في الاطـلاع والقـراءة تتناقص فتتضاءل فتندثر.. والمال الذي بات يغدق عليه قـد نقله من الريف أو مدن الأقاليم إلى العاصمة، أو من وسـط شعبي يفيض حياة وكان مصدر إلهام كتاباته الأولـى إلـى

صالونات الأغنياء والأدباء من أمثاله. وقد تعـرف بسـبب نجاحه بعدد كبير من النقاد والكتاب، وأنشأ معهـم علاقـات شخصية، فباتوا مضطرين اضطرارا إلى امتداح كل إنتـاج جديد له، أو الإحجام، على الأقل، عن بيان نقائصه وعيوبه، فيزيده مديحهم الذي يحسبه مخلصا غرورا واطمئنانـا إلـى استمرار موهبته. وإذ إن المجلات والصحف ودور النشـر وسائر وسائل الإعلام يهمها شهرة الكاتب قبـل جـودة مـا يكتبه، فإنها تظل على إلحافها في طلب المقالات والتمثيليات والكتب إلحافا يوهمه بأنه لا سبب وراءه غيـر عبقريتـه.. وعموده اليومي في الصحيفة يملأ، ومقاله الأسـبوعي فـي المجلة يكتب، وإن لم يكن قد بقي في عقله أفكـار جديـدة، والبئر لا بد من استخراج الماء منها ولـو كانـت فارغـة. وأصحاب الصالونات من الأغنياء يتهـافتون علـى دعوتـه لإضفاء البريق على سهراتهم، فيتبدد وقته وتتشـتت طاقتـه الذهنية والروحية بالتردد عليها لسماع الثناء على آخـر مـا كتب، وأحدث ما نشر.. وثمة نساء وفتيات قاصرات العقـل يراسلنه أو يستشرنه أو يتزاحمن عليـه، ويـرين فخـرا أن ينشئن معه علاقة جنسية.. كل هذا وغيره أمور من شأنها أن

تقتل الموهبة الصادقة بله الموهبة الزائفة، فإذا كل إنتاج جديد له هو أضعف مما سبقه، وأتفه من سلفه، حتى إذا ما صـار كقشرة الليمونة قد اعتصر منها كل ما في جوفهـا، تعجـب وتأفف، وتألم وتذمر؛ إذ يرى الجمهور وقد تحول عنه فجـأة إلى كاتب صاعد ونجم جديد، وإذا مكانه في صفيحة القمامة وهو الذي كان قد أوشك أن يصبح على ثقة من أنه في زمرة الخالدين.

إنه ما من شيء ذي قيمة حقيقية إلا استغرق نموه زمنـا طويلا. أو كما قال ابن حزم: "أسرع الأشياء نموا أسـرعها فناء، وأبطؤها حدوثا أبطؤها نفادا، وما دخل عسير لم يخرج يسيرا".. ولا شك في أن هذا هو ما كان وراء قولة الروائـي الإنجليزي أنتوني ترولوب الشهيرة: "إن النجاح هو بمثابـة السم الذي ليس من المصلحة تناوله إلا في أواخـر العمـر، وحتى في أواخر العمر فإنه لا ينبغي تناوله إلا في جرعـات صغيرة؛ فالكهل والشيخ أبصر من الشباب بـالأمور علـى حقيقتها، وأصعب انبهارا بالمتقلب الفـاني، وأقـل تعرضـا للإصابة بالزهو والخيلاء، أو بـالإفراط فـي تقيـيم متـاع الغرور.

أضف إلى ذلك أن تأخر الشهرة والنجاح سـبب فـي ألا يتعجل الكاتب الإنجاز، إذ ليس هناك ما يستحثه ويدفعه إلـى أن يمسك بالقلم ما لم تجل بخاطره فكرة جديدة ذات قيمـة. وهو في العادة إنما يكتب لإرضاء حافز داخلي قوي يحفـزه إلى التعبير عن ذاته، لا لإرضاء جمهور قرائه؛ لذلك فهـو حريص كل الحرص على كمال الأداء، وإتقان الصنعة، ليس ثمة أمامه عمود يومي عليه أن يملأ سطوره بأي كـلام، ولا وراءه رئيس تحرير مجلة يستحثه الإنجاز حتى يلحق بالعدد الأسبوعي، أو مدير إذاعة يستعجل حلقـات التمثيليـة قبـل ظهور هلال رمضان.. وقد قضى جوته في كتابة "فاوسـت" اثنين وستين عاما. ولو أنه كان ينشرها في حلقات في مجلة، أو استعجله مدير الإذاعة لتسجيل المسلسل، لكان من المؤكد أن يحرم الأدب العالمي من إحدى روائعه!

أبناء الدبلوماسيين..

محظوظون أم مغبونون؟

أجدني، بعد خمسة وثلاثين عاما من العمل فـي السـلك الدبلوماسي، أسائل نفسي عما إذا كانـت مهنتـي وإقـامتي الطويلة خارج الوطن قد أفادتا بنـاتي الـثلاث، أم أضـرت بهن؟! ثم بوجه عام، عما إذا كان أولاد الدبلوماسيين وبناتهم من المحظوظين المنعمين، أم من المتضررين المحرومين؟

إن سألت بناتي أنفسهن، أجبن جميعا في سرعة وفي ثقـة وفي نفس واحد بأن مهنتي أضرت بهن أفدح الضرر. وهما سرعة وثقة توحيان بأنهن قد سبق لهن التفكير طويلا، وفـي تعمق في هذا الأمر، ووصلن إلى رأي قاطع. ثم إنـه لممـا يقطع بإخلاص إجابتهن أنه ما من واحدة منهن قبلـت بعـد تخرجها في الجامعة الالتحاق بالسلك الدبلوماسي، أو قبلـت الزواج من أحد شباب الدبلوماسيين وإن راقهـا؛ خشـية أن تجني على أولادها مثلما جنيت أنا عليها!

وحجتهن الرئيسة التي لا مفر من الإقرار بوجاهتها هـي أنهن عشن طفولتهن وصـباهن وشـبابهن الأول هائمـات

شريدات، لا تستقر بهن أرض، ولا يعرفن لأنفسهن مسـكنا بعينه، ولا دامت صداقة لهن أكثر من ثلاث سنوات أو أربع، ولا اتصلت دراستهن في ظل نظام واحـد أو فـي مدرسـة واحدة ومع نفس المدرسين، ولا كان لهن يـد فـي إطالـة إقامتهن في بلد أحببنه، أو في قطع إقامتهن في بلد كرهنـه، كل ما يذكرنه من حياتهن معي هو إعداد الحقائـب وإفـراغ الحقائب، واستقبال في المطار وتوديع في المطـار، وبحـث عن مساكن وهجر لمساكن، وعقد صدقات ونقض صداقات، ودراسة مضطربة أينما حللن، والإقدام على تعلم لغة أجنبيـة بعد لغة أجنبية يعلم الله وحده ما إذا كن سيسـتخدمنها بعـد مغادرتهن للبلد الذي يتكلم بها. وتنقل لا ينقطع بين قـارات مختلفة، وأنظمة سياسية واجتماعيـة واقتصـادية مختلفـة، ومستويات حضارية متفاوتة، وعـادات وتقاليـد متباينـة، وديانات متصارعة، حتى إذا ما عدن إلى وطنهن لقضاء عام أو عامين فيه وجدن أصدقاءهن الحميمين القدامى وقاد بـات لهم أصدقاء حميمون جدد، وصادفن السخرية من الكافة مـن عجمة في ألسنتهن متى تكلمن العربية، وقابلن الصعوبات في محاولة التكيف، وتعجب الناس من مسلكهن وزيهن ونطقهن

وعاداتهن ومفاهيمهن عن الحياة. فإذا هن غريبات حتى في وطنهن، أجنبيات حتى بين بني جلدتهن وأقربائهن.

وكلها أقوال لا أستطيع لها دفعا، ولا أملك إلا أن أشعر إزاءها بالأسف والألم وتأنيب الضمير.. غير أني – وهو أمر طبعي – أحاول جاهدا أن أجد للصورة وجها آخر، وجانبا مضيئا يخفف من ذلك الألم، بل ويحيله إلى إحساس بالرضا والاطمئنان. ولكم أراحني وأغبطني أن أقرأ الجملة التالية في كتاب المستشرق البريطاني برنارد لويس عن تاريخ تركيا الحديث:

"إن الغالبية العظمى من كبار رجال الدولة وشاغلي المناصب العليا في الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر، كانت من أبناء الدبلوماسيين الأتراك".

فما عساه أن يكون سبب هذه الظاهرة إن لم يكن في حياة أبناء الدبلوماسيين بصفة عامة وفي تعليمهم ما يجعلهم من المتميزين المتفوقين على أقرانهم؟

إنه لكثيرا ما يخيل إلي – رغم كل ما أسلفت ذكره عن المتاعب التي يتعرض لها أبناء المشتغلين بمهنتي – أن بناتي إنما ولجن وفي أفواههن ملاعق فضة! كل منهن قد صارت

تملك ناصية خمس لغات أجنبية أو ست، تتحادث بأيها حديث أهل هذه اللغة. قد زارت قبل بلوغها العشـرين أكثـر مـن ثلاثين دولة، وأقامت السنوات في سبع منهـا: فـي غـرب أفريقيا وشمالها، وشرق أوروبا وغربهـا، وشـمال أمريكـا وجنوبها. قد عرفت - عـن كثَـب - مجتمعـاتٍ شـيوعية ورأسمالية، متقدمة ومتخلفة، بيضـاء وسـمراء وسـوداء، مسيحية وإسلامية وملحدة، بل وكان لها صديقات وثنيات هن بنات جيراننا النيجيريين من قبائل الأيبو، وتعلمـت احتـرام ديانات الكافة وتقاليدهم والجوانب الإيجابية فـي معتقـداتهم وعاداتهم. قد عاشت في ظل أنظمة ديكتاتورية ثقيلة الوطأة، لا تعبر عن الرأي إلا خلسة، ولا تنبس بالكلمة إلا همسـة، وفي ظل ديمقراطية تسمع فيها أكثر ما تسمع مـن أبنائهـا عبارة "نحن في بلد حر!" قد شهدت صرامة الألمان ونظامهم وجدهم في العمل، وشهدت مرح البرازيليين ولهـوهم علـى الشاطئ، واحتفالهم بكرة القدم والكرنفالات أكثر من احتفالهم بأي شيء آخر من أمور الحياة.

راقبت مظاهر التفرقة العنصرية في الولايـات المتحـدة، ومشاكل الجنسيات المتعددة في الاتحاد السـوفييتي، وتـأثير

الاستعمار الفرنسي في لغة الجزائريين وعاداتهم وطبـائعهم، والانحسار التـدريجي فـي اعتـزاز البريطـانيين القـديم ببريطانيتهم.

فكم يا ترى من المصريين قد أتيح لهم ما أتيح لهن مـن فرصة للاطلاع على ما اطلعن عليه، ولاكتساب ما اكتسـبنه من لغات وخبرات؟ يقول المثل العربي القديم: "من لم يعرف غير لغته لم يعرف لغته، ومن لم يعرف غير وطنه لم يعرف وطنه، ومن لم يعرف غير دينه لم يعرف دينه"!

وما من شك في أن أبناء الدبلوماسيين قد عرفوا - أكثـر من غالبية بني جلدتهم - لغات غيـرهم وأوطـان غيـرهم وديانات غيرهم. وهم بالتالي مؤهلون أكثر من غيرهم للحكم على مختلف جوانب الحياة في مجتمعهم، وأحد نظرة إلى هذه الجوانب، حتى إن بدوا غرباء في بلادهم، ومـع الصـعوبة التي يعانونها في التكيف مع واقع الأحوال فيها. وعلى حـد قول الشاعر:

إن الكريم غريب حيثما كانا!

كل هذه صحيح أيضا، وكفيل بأن يدخل إلى قلبي العزاء، وأن يخفف في قلوب بناتي مشاعر النقمة على قدرهن! وعلى

أي الأحوال، فهل ثمة مهنة لا يعرف النـاس لهـا مثالـب وسلبيات لصيقة بها ونابعة من طبيعتها.؟ ألا يشـكو أبنـاء العسكريين من فرط النظام وصرامته فـي البيـت؟ وأبنـاء الأطباء والصحافيين من انشغال آبائهم عنهم وقلة ما يقضون من وقت معهم؟ وأبناء المعلمين والمحامين من إفراط آبائهم في الكلام وضعف قدرتهم على الاستماع على الغير؟ فحديثك إذن عن سلبيات المهنة ممكن ومشروع، كحديثك عن مخاطر المهنة.

أمر واحد جلل لا أملك معه دفاعا فيما يتصل بآثار الحياة الدبلوماسية في الأبناء: وأعني به اضـطرار الأبنـاء فـي طفولتهم إلى هجر كل ما هو مألوف من وطن وسكن ووجوه ومعالم.... إلى آخره، والانتقال فجأة إلى وسط جديد كل مـا فيه غير مألوف. فقد أكد علماء النفس جميعا دون استثناء أن انتقال الطفل على هذا النحو من المألوف الذي بدأ يستشـعر إزاءه بالدفء والاطمئنان، إلى الجديد غير المـألوف الـذي سيستشعر إزاءه بالحيرة والخوف، من المؤكد أن ينجم عنـه إحساس بالافتقار إلى الأمن قد يستمر معه طيلة الحيـاة، وأن يؤثر في مواقفه مما حوله ومن حوله، وخبراته في المستقبل.

وهم لذلك ينصحون الآباء بأن يضمنوا أن يحـاط الطفـل - قدر المستطاع - بما هو ثابت متكرر، وبأن يتجنبوا – حتى يبلغ الطفل سن السابعة أو الثامنة – تغيير المسكن أو الأثاث أو العادات أو الوجوه المحيطة أو المدرسة إلى آخره حتـى ترسخ دعائم أسس متينة يمكن بعدها التنقـل والتغييـر دون عواقب وخيمة.

هذا إذن هو أخطر آثار المهنة على أبناء الدبلوماسـيين. وعلى المقبلين على اختيارها من الآباء والأمهات أن يوازنوا قبل اتخاذ قرار بشأنها بين هذا الاحتمال شبه المؤكد أن يفقد أولادهم الإحساس بالأمن، وبين الاحتمال شبه المؤكـد هـو أيضا أن يكتسب أولادهم من التميز العقلي، ومن سعة الأفق، ما هو كفيل بأن يجعلهم من صفوة أفراد مجـتمعهم، ومـن قادته في مختلف الميادين.

مجرد وقاحة

- يا وقح يا قليل الأدب!
- هكذا صاحت السيدة وسط الزحام المتدفق الخارج من قاعة السينما، في وجه الرجل خلفها.
- يا ستي أن ذنبي إيه؟ موش شايفة اللي ورايا بيزقوني إزاي؟ أعمل إيه أنا؟
- قليل الأدب!

هكذا كررت السيدة. غير أن نظرة واحدة منها إلى الوراء على جموع الهمج المتدافعة كانت كافية لإقناعها بأن الرجـل مظلوم.. ومع ذلك فإنها لم تعتذر. واكتفت بالتمتمة بعبـارات سخط غير واضحة.

كنت على بعد بضع خطوات منهما، أعاني ما يعانيـان. غير أنه كان بي – لحسن الحظ – فضل طاقـة – جعلنـي أفكر:

ألا ينطبق هذا الذي يحدث هنا على شكوى المرأة ممـا تعانيه من قهر الرجل لها في مجتمعاتنا الإسلامية؟ المسـكين يعاني في كل يوم وفي كل ساعة من قهر سياسي واجتماعي واقتصادي، ولا يجد مجالا للتنفيس عن همه إلا في محـيط

أسرته. وكما يفعل به يفعل بالآخرين.. ما يفعله به أعداؤه يفعله بأقرب الناس إليه.. ثم أليس من الشائق حقا أن نلاحظ أنه في حين تمكنت الحكومات والمجالس التشريعية في الدول الإسلامية بسهولة بالغة – ودون أدنى حاجة إلى تبرير وإيضاح – من سن التشريعات والقوانين المدنية والتجارية والجنائية التي لا صلة لها بما نص القرآن عليه في هذه المجالات، كان كل تعديل مهما هان شأنه في قانون الأحوال الشخصية، يستهدف التخفيف من قيود المرأة المسلمة الأسيرة في قبضة الرجل، يلقى معارضة ضارية وغضبا عارما من الرجال كثيرا ما أفلحا في تعطيله أو إلغائه؟ لقد وجدت معظم الطبقات في تطوير التشريعات المدنية والتجارية ما يخدم مصالحها، وفي تطوير الأحكام الجنائية ما لا يمس مصالحها من بعيد أو قريب. فدفعها ذلك إلى تجاهل مناقضتها للأحكام القرآنية. أما التخلي عن المفاهيم والقوانين التي تجعل المرأة في حكم الأمة للرجل، فمعناه تخلي الرجل في مجتمعنا عن المجال الوحيد المتبقي له للتنفيس عما يشعر به من قهر، وبالتالي فقد رآه الرجال وثيق الصلة بالإسلام، واعتبروا مقاومته واجبا مقدسا يحتمه الدين.

وأعود إلى داري فأبادر بالاتصال تليفونيا بصديق حميم لم أره طوال السنوات الخمس التي غبتهـا عـن مصـر. وإذ تروعني نغمة اكتئاب عميق في صوته لـم أعهـدها منـه، وأسأله عن مصدرها، إذا به يصيح فجأة.

"سيادة السفير! هل تفهم شيئا مما يدور اليوم في منطقتنا؟ أرجوك أن تشرح لي إن كانت لديك نظرية بشأن ما يجري.. هل كان صدام حسين يدرك ما يفعله؟ هل هو مأجور؟ عميل إسرائيلي؟ أحمق ينفذ دون وعي منه مخططا أمريكيا؟ ومـا هو هذا المخطط إن وجد؟ البعض يقول: "إن جورج بـوش نفسه لم يكن يدرك منه إلا قشرة رفيعـة ممـا سـمح لـه الصانعون الحقيقيون للسياسة الأمريكية بأن يطلع عليه. فمـا بالك بأمثالي ممن يستقون معلوماتهم، لا من تقـارير وكالـة المخابرات الأمريكية والبرقيات الرمزية للسفراء، وإنما مـن الصحف.

المصرية؟".

واستطرد قائلا في لهجة تزداد مرارة وحنقا:

"صديقنا ك. م. يقسم لي أن لديه أرقام الشيكات التي كانت السفارة العراقية بالقاهرة تصرفها للصحافيين المصريين الذين يدافعون عن صدام.

وصديقنا ح. ق. يؤكد لي أن فلانا وفلانا قد حفزتهما أموال سفارة الولايات المتحدة للدفاع في الصحف عن التواجد الأمريكي في المنطقة.. غير أني أريد أن أسألك، وبالله عليك: ماذا عساه أن يكون موقف الصحف والمجلات القومية التي تهاجم النظام العراقي اليوم بكل حدة وشراسة لو أن الرئيس حسني مبارك اختار منذ البداية أن يؤيد العراق دون الكويت؟ لقد ظلت هذه الصحف القومية صامتة عن أية إدانة، ومحجمة عن اتخاذ أي موقف، طوال الأيام الثلاثة الأولى التالية لغزو الكويت في انتظار قرار الرئيس. فما اتخذ قراره بالانتصار للكويت ضد العراق حتى بدأت الحملة الضارية فيها جميعا ضد صدام حسين.. وأقسم لك أنه لو كان القرار غير ذلك لانبرت الأقلام كافة تمتدح صداما وفعلته، وتؤكد تمسك مصر بالتزامها الذي تفرضه عليها اتفاقية مجلس التعاون العربي بالوقوف في صف العراق الشقيق.. أتعلم أن رئيس تحرير إحدى الصحف القومية كتب

خلال تلك الأيام الثلاثة السابقة على قرار الرئيس مقالين افتتاحيين لصحيفته، أولهما يهاجم العراق، وثانيهما يناصره ويدافع عنه، واحتفظ بهما عنده في درج مكتبه حتى أتته الإشارة، فدفع بالمقال الأول إلى المطبعة ومزق الثاني؟!!

"هم اليوم يتنافسون فيما بينهم على نشر ملفات التاريخ الأسود لعهد صدام، ولجرائمه منذ تسلمه الحكم بل وقبل تسلمه الحكم (منذ طفولته في واقع الأمر!) والمذابح التي دبرها، والمؤامرات التي حاكها، والاغتيالات التي أمر بها.. فهل كانت كل هذه الملفات مجهولة لديهم وقت أن كانوا يشيدون به، ويهللون لإبرام اتفاقية التعاون العربي معه، ويلبون دعوته لحضور احتفالات تحرير الفاو، وتبهجهم السيارات والعطايا والجوائز والمنح التي كان يكيلها لهم كيلا؟ هل ظهرت لهم هذه الملفات فجأة ولأول مرة بعد قرار الرئيس بإدانة غزوه للكويت؟ وهل ستظهر يا ترى في يوم ما ملفات مماثلة عن عهدي الملك فهد والرئيس حافظ الأسد إن حدث وفسدت العلاقات بهما؟

"ماذا تراهم يفعلون بنا وبعقولنا يا صاح؟ وكيف يمكن لإنسان منا يحترم نفسه أن يسمح لهذه الصحافة المصرية بأن

تسهم في تكييف أفكاره، أو تساعده في تكوين رأي؟.. أتريد الحق إنها مجرد وقاحة وقلة أدب!

***

"وقاحة وقلة أدب".. المرة الثانية التي أسمع فيهـا هـذه العبارة في أقل من ساعة واحدة.. أيمكن أن يكـون السـبب واحدا؟

تفكير ربع ساعة كان كافيا لأن يدفعني إلـى أن أهتـف بصوت عال:

- نعم!

***

حين عبر قيصر الروبيكون في ١٠ يناير من عام ٤٩ ق.م قالت الخاصة والعامة في روما إنه يهدف إلى القضاء على الجمهورية فيها، وأنه من بين الدوافع وراء تصرفه هذا علمه بالمؤامرات التي تحاك ضده، واتجاه البعض، مثل كاتو، إلى طلب محاكمته ونفيه، ولأن مدة حكمه في بلاد الغال كانت قد أشرفت على الانتهاء فيفقد بانتهائها الحصانة التـي يسـبغها عليه مركزه.

وحين عبر بونابرت الحدود الفرنسية إلى إيطاليـا عـام ١٧٩٦، قالت الخاصة والعامة في أوروبا إن الجيش الفرنسي كان يؤمن بأن لفرنسا رسالة هي تعميم الحرية فـي أرجـاء العالم، وأنه استغل فرصة ضعف النمسا وتطلع الإيطـاليين إلى خلع نير استعمارها، لنشر مبادئ الثورة الفرنسـية فـي أوروبا، وتقليص نفوذ البابا الذي كان يشجع ويحرض القوى المضادة لتلك الثورة.

وحين اجتاحت الولايات المتحـدة تكسـاس عـام ١٨٤٥ واغتصبتها من دولة المكسيك، ذهب الرأي العام العالمي إلى أن غنى هذه البقاع، ورغبة الولايات الشمالية الأمريكية فـي تسويق سلعها الصناعية في تكساس، والحصول على قطنهـا بثمن بخس، ورغبة الكثيرين من سكان الولايات الجنوبية في الهجرة إلى موطن جديد، وخشية الجميع من نيـة إنجلتـرا تحويل تكساس إلى محمية بريطانية، هي الدوافع إلـى هـذا الاغتصاب.

وقد أقرت كتب التاريخ حكم العامة والخاصة فـي هـذه الأحداث، ووافقت على ما ذهب إليه الرأي العام العالمي.

أما حين اجتاح الجيش العراقي الكويت في ٢ أغسـطس ١٩٩٠، وبادرت الولايات المتحـدة ودول كثيـرة غيرهـا بإرسال الحشود العسكرية الضخمة إلى المملكة السعودية، فقد وقع الناس، خاصتهم وعامتهم، في حيص بـيص، وتعـددت التفسيرات وتناقضت الآراء. بل إن حيرة الخاصة وتخبطهـا كانا بدون شك أعظم وأدهى من حيرة رجل الشارع.

ذلك أنه ما من أحد في عالم اليوم هو من السذاجة بحيـث يقبل - على علاتهـا - تصـريحات الساسـة وتفسـيرات الرسميين، أو يأخذ البواعث المعلنة على محمل الجـد.. قـد كان ثمة دائما كذب وخداع من الساسـة واسـتخفاف مـنهم بعقول البشر، منذ فجر التاريخ إلى يومنا هـذا، مـن زمـن حصان طروادة إلى تحريف برقية إيمز عـام ١٨٧٠ إلـى المبررات السوفييتية لغزو أفغانستان.. غير أن حالنا اليـوم هو أبعد ما يكون عن حال الناس حين كانوا بـين مصـدق ومكذب لنية أوليس، أو نية بسـمارك، أو نيـة بريجنيـف. والأقرب إلى الواقع هو القول بأنه - فيما عـدا المعـروفين بالسذاجة المفرطة، والمشهود لهم بالغفلـة، والصـحافيين - أضحى الناس يأبون تفسير الأمور على ضوء ما يبدو مـن

ظاهرها، وغلب عليهم الميل إلى البحث عن المبررات الخفية، والنوايا البعيدة، والخطط الشيطانية، والاتفاقات السرية، مما يكمن وراء هذا الحدث أو ذاك.

هناك اتفاق بين معظم المثقفين على أن أزمة الخليج هي الضوء الأخضر للشروع في إعادة ترتيب البيت العربي ومنطقة الشرق الأوسط بحقول نفطها، أسوة بإعادة ترتيب البيت الأوروبي الذي بدأ عام ١٩٨٩ بل وقد يتفقون على أن إرسال القوات الأمريكية وغيرها إلى المنطقة لم يكن من أجل التصدي لعدوانية العراق، وإنما كانت عدوانية العراق – باتفاق صريح أو بغير اتفاق صريح مع صدام حسين – تستهدف أصلا أن يتلوها إرسال القوات الأمريكية إلى المنطقة لإعادة ترتيب أوضاعها.

غير أنهم يختلفون بعد ذلك اختلافا شديدا حين يحاولون تخمين معالم هذا الترتيب الجديد المعتزم.. أمن بينها الهيمنة الغربية الدائمة على منابع النفط؟ تسوية النزاع العربي الإسرائيلي؟ نسف الاتحادات واتفاقيات التعاون داخل العالم العربي، وخلق فرقة وانقسام دائمين فيه؟ ضم الدويلات الخليجية والسعودية في تنظيم واحد له بنية سياسية

واجتماعية واقتصادية شديدة الاختلاف عن البنية الراهنـة، وتلعب فيها الديمقراطية دورا أبرز؟ وضـع أسـس جديـدة لاستفادة أقطار المنطقة طرا - غنيها وفقيرها - من أمـوال النفط؟

كل هذا وعشرات من الأسئلة الأخرى التي باتت تهـيمن هيمنة كاملة على تفكير المثقفين، لا يعنيني منها في مقـالي هذا غير حقيقة واحدة: هي أن هؤلاء المثقفين – أو جلهـم – قد استقر لديهم الإيمان بأن هناك إرادة عليا، في مكان ما، لا راد لها، تنوي فرض أمر أو أمور علـى منطقتنـا بعـد أن فرضت أمرا أو أمورا على البيت الأوروبي من قبـل، وأن المثقفين وسائر أبناء منطقتنا، بل وغيرها من المنـاطق، لا يملكون إلا تخمين كنه هذه الإرادة، وحزر رغباتها، وتشـمم اتجاهاتها، عن طريق التقاط هذا الخـيط أو ذاك، والإشـارة إلى هذه الأدلة أو تلك، وتجميع القطع الصغيرة المتناثرة في شكل صورة مفهومة. أما أن يقفوا في وجه هـذه الإرادة إن اختلفوا معها، وأن يفرضوا إرادتهم هم، والأوضاع المثلـى في رأيهم هم "فأمر لعمركِ ما إليه سبيلُ".

وهذا هو الجديد في الموقف.. الجديد فـي عـالم اليـوم: الإحساس بوجود إرادة عليا، غامضة، لا تقهـر، ولا يملـك المثقفون إزاءها إلا الحدس والخمين، ولا الشعوب حيالها إلا الإذعان والاستسلام.

والطريف حقا في هذا الموقف شبه الـديني، أن التعـابير التي يستخدمها المؤمنون في عباداتهم، قد بـت ألحـظ مـا يطابقها أو يماثلها في أحاديـث المفكـرين والمثقفـين مـن معارفي، حتى الملحدين منهم: وما تشاءون إلا أن يشـاء الله رب العالميين.. تقدرون وتضحك الأقدار.. العبد في تفكيـر والرب في تدبير.. لله في خلقه شئون.. وعسى أن تكرهـوا شيئا وهو خير لكم.. حكمة ربنا.. هذه مشيئة الله.. وإنـا لله وإنا إليه راجعون.

تعابير إن أوحت بشيء، فإنما توحي بأن الهيمنة الدوليـة تبدو وكأنما قد أحلها الناس في زمننـا هـذا محـل الإرادة الإلهية.

وهذا بالضبط هو سر ما انتاب مثقفينا في الآونة الأخيرة – ومن بينهم صديقي الذي تحدثت عنه – من اكتئاب.. هـو ليس حزنا على ما حدث فـي الخلـيج، ولا علـى المنظـر

المخزي الذي يبدو عليه العرب، ولا الفرقـة فـي الصـف العربي، ولا هو الذعر من الوجود العسكري الأجنبـي فـي منطقتنا، ولا الخشية من عواقب تردي الأوضـاع، ولا هـو أسف على مصالح خاصة قد أضيرت. وإنما هـو إحسـاس شبيه بإحساس المرأة في المجتمع الإسلامي. الإحساس بالقهر الإحساس بأنهم قد باتوا مغلوبين على أمرهم. بأنه لم يعد في وسعهم التأثير في الأحداث. وبأنهم لا يشاءون إلا أن تشـاء القوة الوقحة المهيمنة على مجريات الأمور، وأن كل ما بقي في مقدورهم محاولته هو تخمين اتجاه هذه المشيئة.

قد عشنا في ظل أنظمة دكتاتورية غاشمة عانينا منها كل ضروب القمع والقهر والاستبداد. غير أن مشـاعرنا وقتهـا ليست كمشاعرنا اليوم. كنا وقتها نلمح في آخـر السـرداب الطويل المظلم بصيصا من الضوء.. بريقا من الأمل، وكنـا على ثقة من أن المقاومة العنيدة المثابرة من قِبـل الثـوريين المتكاتفين كفيلة بأن توصلنا في النهاية إلى هذا النور.. أمـا اليوم فقد "أناخ الدهر علينا بكَلْكَلِه، و"لا حول ولا قوة إلا بالله" و"إنا لله وإنا إليه راجعون".

شعورنا اليوم هو نفس الشعور الذي تخرج به من قـراءة شوبنهاور وتوماس هاردي: إن ثمة قوة رهيبة عمياء تحكـم عالم الظواهر، لا تتزحزح ولا يمكن التأثير فيها أو الفـرار بمصائرنا منها، وأقصى ما يمكن للمتفائل أن يقوله بصـددها هو: "حكمة ربنا" أو "وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم".

***

وأسرد أفكاري هذه على صديق أديب لي، فيشرد ذهنـه لحظات ثم إذا هو يقول:

"كلامك هذا يعيد إلى ذهني ذكرى يوم مشهود مـن أيـام حياتي في لندن..

"كنت وقتها أعمل مع دار نشر بريطانية متخصصة فـي قضايا العالم الثالث، عظيم السعادة بما يتاح لي مـن فـرص التردد على المسارح والمتاحف والمعارض، والتـزود مـن الحياة الثقافية في أوروبا، والاطلاع علـى أحـدث ثمارهـا الفكرية والفنية.. ثم إذا بي في أحد أيام سنة ١٩٥٦ أتلقى نبأ الهجوم الإسرائيلي على مصر.. أصارحك القول بأني لم أر فيه شيئا غير عادي، ولا توقعت أن تترتب عليه عواقب غير عادية. فعشرات هي المرات التي قرأت فيها أخبـارا عـن

اشتباكات بين مصر وإسرائيل، أو بين إسرائيل والأردن، فلم يتمخض عنها سوى تقديم الشكاوى، وإحالة النزاع إلى لجان الهدنة المشتركة، ثم ينتهي الأمر. وما كان هناك في الاعتداء الجديد ما يدل على أن مصيره سيكون مختلفا.

"قضيت نهار اليوم التالي في دار النشر، ثم عـدت إلـى مسكني أنتظر مجيء صديقتي بولين.. وأدرت المذياع فـي السادسة مساء لسماع الأخبار، متوقعا أن أسمع إما أن القوات المصرية قد صدت الإسرائيليين، أو أن القوات الإسرائيلية قد انسحبت من تلقاء نفسها بعـد أن دمـرت بعـض مراكـز الفدائيين. غير أن الذي سمعته لم يكن هذا أو ذاك، وإنما هو إنذار من بريطانيا وفرنسا بأن قواتهما ستدخل مصر لحماية الملاحة في قناة السويس، إن لم تسحب إسـرائيل ومصـر قواتهما لمسافة معينة عند ضفتي القناة.. وقد كان شـعوري عند سماع الخبر غريبا. وجدتني أقفز مِن كرسـيي وأخـبط جبهتي بكفي عدة مرات وأنا أصيح: يا ولاد الكلاب! يـا ولاد الكلاب! من غير أن أدرك أي جهة أسبها، وأحسست بأن من واجبي أن أفعل شيئا.. شيئا ما.. وفورا.. لا أن أعود لتـوي إلى مصر (فقرار العودة لم أتخذه إلا بعد أيام)، وإنمـا هـو

شيء آخر.. شيء أدفع به هذا الظلم الفادح.. هذا القهر كله.. هذه الإرادة الملعونة..

"كنت – كما ذكرت لك – سعيدا كل السعادة بحياتي فـي إنجلترا، كالسمكة في الماء وكان المسرح حبي الأعظم فـي ذلك الوقت، أتردد عليه ثلاث مرات أو أربعا كـل أسـبوع، وأتطلع بكل كياني إلى أن أصبح كاتبا مسرحيا.. وكنت مدلها بحب بولين.. وكنت أقوم في إجازاتي برحلات ممتعة واسعة النطاق في القارة الأوروبية، أو في اسكتلندا وأيرلنـدا، أزور متاحفهـا ومعالمهـا، وأحضـر مهرجاناتهـا السـينمائية والمسرحية.

"وها أنا ذا اليوم أواجه فجأة ودفعة واحدة بمسألة الخيـار بين بديلين: التنكر لبلادي والبقاء بين ظهرانـي أعدائـه، أو العودة إليه واحتمال حياة ثقافية ضحلة لا تغني ولا تسمن من جوع.. والمسئول عن مواجهتي بهذا الخيار المصيري المـر رجل لا يعرفنـي ولا أعرفـه.. أنتـوني إيـدن.. حكومـة المحافظين.. لم أخطر له أو لها ببال.. أفليس هذا هـو مـا يعنونه بالقهر؟ أم هي مجرد وقاحة وقلة أدب؟

"في السابعة وصلت بولين، ووجهها متهلل باسم كالعادة.. لم تكن قد سمعت الخبر بعد. وكانـت تكـره الحـديث فـي السياسة كراهة التحريم. فإن حادثتها فيها سكتت صابرة وهي تدعو الله في سرها ألا تعكر انشغالاتي السياسية هذه صـفو مضاجعتي إياها. ويبدو أن أول ما دار بخلدها حين سـمعت مني خبر الإنذار البريطاني الفرنسي أنـه لا أمـل فـي أن أضاجعها ذلك اليوم. فاستسلمت للأمـر الواقـع، وخلعـت معطفها، وجلست تستمع إلى دلالات ما حدث، وهي تعجـب كيف يمكن لشخص أن يصفر وجهه، وتـرتعش يـده، وأن يتأثر كل هذا التأثر لخبر سياسي خارج عن إرادتـه.. ثـم سرعان ما شرعت تفكر في مواعيد قطارات العـودة إلـى دارها.

"وإذا بشيء غير متوقع ألبتة يحدث.. كنت أنا أيضا واثقا من أني لن أجامعها ذلك المساء. غير أني ما سمعتها تتمـتم: "يا إلهي! كم أكره هذه السياسـة!" حتـى غمرنـي شـعور غريب.. قلت لنفسي صائحا بالعربية: "فليكن!" وأشرت إليها أن تأتي لتجلس في حجري بجانب المدفأة، ثم انتقلنا بعـدها إلى الفراش، وجامعتها تلك الليلة كما لم أجامع امرأة من قبل

أو من بعد.. جماع إنسان الغابـة لأنثـاه.. كنـت محـض حيوان.. وزاد من حيوانيتي كونها تنتمي إلى البلد المعتـدي على بلادي.. وكانت هي تصرخ وتضـحك فـي آن واحـد، وتعض ذقني حتى سال الدم منها. أما عنـي فكنـت طـوال الوقت أفكر: لعنة الله على السياسة وعلى صانعيها، وعلـى من شغل باله بها.. أهذه طريقة يعاملوننا بها؟ ألسـنا بشـرا ذوي قلوب وأحاسيس حتى يتصرفوا في مقدراتنا على هـذا النحو، وعلى ما يحلو لهم؟ هم لا يحترموننا ولا يحترمـون آراءنا ومشاعرنا، أليس كذلك؟ فليكن.. فليدعونا إذن نحيـى كالحيوانات، ونستمتع بملذات الحيوان، تاركين لهم السياسـة بأسرها.. وملعون دين من اكترث بعد اليوم بما يصنعون.

"كان هذا الإحساس بطبيعة الحال مؤقتا لم يتجاوز انقضاء تلك الليلة، غير أني لم أنس تلك الليلة من حياتي قط، ولا ما دار في ذهني وقلبي خلالها من أفكار ومشاعر.."

***

وهي نفس الأفكار والمشاعر التي تتهدد مثقفينـا الآن إذ تتضاءل في نفوسهم الثقة، مع كل يـوم يمـر، فـي قـدرة

الشعوب على اختيار مصائرها وتكييفها.. وقد أضحى الخيار أمامهم بين واحد من ثلاثة:

بهيمية كبهيمية صاحبي مع صديقته بولين..

أو الأخذ بنصيحة فولتير في ختام روايته "كانديد" فيحصر كل منا اهتمامه في تعهد حديقته الخاصة..

أو القيام بجهد جماعي انتحاري كجهد المكـابيين الـذين اختاروا في القرنين الثاني والأول قبل المـيلاد أن يقـاوموا حتى الموت التهديد الحضـاري الهيلينـي لتـراث اليهـود وتقاليدهم..

قد كان جهدهم – كما ذكرت – جهدا انتحاريا لم يحقـق طائلا.. غير أنه جهد لا يزال التاريخ يذكره في إجلال.

انطباعات

عائد إلى أرض الوطن

أعود إلى مصر بعد غيبة سنوات، فإذا بي أكاد أنكر كـل ما حولي ومن حولي..

(١)

سرح الطرف أينما شئت: زحام وحشود.

المدن مكتظة بسكانها، والمنازل مكتظة بقاطنيها، والفنادق مكتظة بنزلائها، والمقاهي والنوادي مكتظة بروادها، والقطارات وسائر وسائل المواصلات مكتظة بالركاب، والمستشفيات وعيادات الأطباء مكتظة بالمرضى، والبقاع الأثرية مكتظة بالسياح، والمتاجر مكتظة بالزبائن، ودور السينما والمسارح مكتظة بالجمهور، والشوارع مكتظة بالمارة، والشواطئ مكتظة بالمصطافين.. ومشكلة الإنسان منا هي في أن يجد لنفسه في هذا الزمان ووسط هذا الزحام مكانا.. مكانا في الشمس، هو فيه إنسان لا رقم.. فرد متميز، لا فرد من قطيع.

ما كان الأمر هكذا في الماضي، ولا أحسب تزايد عدد السكان سببا رئيسيا في هذه الظاهرة.. فالأفراد الذين بوسعهم التجمع في حشود، كانوا دوما بيننا، ولكن دون احتشاد. كانوا منتثرين، أو متفرقين في جماعات صغيرة، هم دائما في خلفية الصورة.. أما اليوم فقد اجتمعوا واحتشدوا، وتقدموا إلى دائرة الضوء على خشبة المسرح.. على خشبة المسرح في دور رئيسي.

ولا الأمر بالخالي تماما من الجوانب الإيجابية. إذ مـن ذا الذي لا يسره أن يرى العامة تخرج لأول مرة في تاريخهـا إلى الشواطئ، تستمتع بالبحر والشمس والهواء الطلق، وإلى دور السينما والمسارح للترفيه والتسـلية، وإلـى النـوادي للتريض، وأن يراها وقد عرفت الطريق إلى عيادات الأطباء والمستشفيات، واتسعت مداركها بالتنقل والسفر، وقررت أن من حقها أن تعرف المتع التي كانت مقصورة فيمـا مضـى على فئة محددة؟ نعم! غير "أن المشكلة هي في أن جل مـا ذكرناه من الأماكن التي باتت تغص بالجماهير لم يؤخذ فـي الاعتبار وقت إنشائها أو تدشينها أن تسـتخدمها كـل هـذه الجموع، أو هذه النوعية من الجموع. فإذا بأبعادها – مهمـا توسعت – محدودة، ومساحاتها - مهما زيد فيها – ضـيقة، ووحداتها أو مقاعدها أو مرافقها – مهما كثرت – غير كافية لاحتواء حشود تتزايد يوما بعد يوم.

كذلك فقد كان لا بد هنا لقانون جريشام مـن أن ينطبـق فتطرد العملة الرديئة العملة الجيدة من السوق، خاصة وقـد باتت إدارات هذه الأماكن، أو القائمون عليها، أكثر احتفـالا بإرضاء العامة ومراعاة أذوقها – مهما كانت هابطة – منها

بخدمة أذواق الصفوة ومتطلباتها.. فـإذا الصـفوة تتراجـع وتنسحب تدريجيا، مخلية مواقعها للعامة الزاحفة كثرتها على كل موقع.

(٢)

قد انتقل المال والثراء في السنوات الأخيرة إلـى حثالـة القوم. من أولئك الذين كـانوا يرعـون النهضـة الثقافيـة والحضارية إلى من تمكنوا بفضل ثرائهم الجديد من فـرض أذواقهم في كل مجال، وفرض مفهومهم عن الفـن والثقافـة (وهو مجرد الترفيه) على مجتمعنا بأكمله، بمـا فـي ذلـك المشتغلون بالآداب والفنون ممن باتوا يراعون إرضاء هـذه الطبقة الجديدة ذات القدرة المالية. وهو ما يجعل من السـهل أن نفهم كيف انتقلنا من عصر التنوير، عصر طـه حسـين وسيد درويش ومحمود مختار، إلى عصـر أحمـد عدويـة وسحر حمدي؟! وكيف بات المثقفون محاصرين مـن كـل جانب، يرون حصنا بعد حصن في بقعتهم الضيقة يسقط في يد السوقة، وفردا بعد فرد من ثلتهم يسقط صريع القنـوط أو الإغراء؟!

مر بنا زمان كان يقال فيه: "إن أنت لم تفهم كلمة صـينية فليس معنى هذا أنها لا تعبر عن معنى" وكان الجمهـور إذا وجد صعوبة في شيء، في فهم عمل فني أو غيره، قال: إنه صعب ومضى. أما اليوم فلا شيء صعب! هو إما سوقي أو هراء. إما سهل أو دجل. إما عامي أو جريمة.. قد جئنا هنـا نتسلى والويل لمن لا يخلق لنا التسلية.

كان جمهورنا قبل سنوات يتجنب الأعمال الفنية التي قصد بها المثقفون. فإن قادته قدماه إليها خطـأ، أو علـى سـبيل التجربة، خرج منها في صمت وتواضع، عارفًا قدر نفسـه، معترفا راضيا مبتسما بأنه لم يفهم لجهله بهذه الأمر.. غيـر أن الوضع الآن قد تغير؛ فانتهاج سياسة تملق الجماهير ساهم في تضخيم إحساس هذه الجماهير بنفسها، وتقديرها لـذاتها، وشعورها بأن كل ما يتم وينتج – حتى الإنتاج الفني – ينبغي أن يكون له وفي مستواه. فإن أفلت من هذا الحصار عمـل ممتاز، شعر الجمهور بالتحدي الذي يواجهه، والخطر الـذي يرى أنه يهدد حقوقه، والمهانة إذ يجد هذا العمـل الممتـاز يصرخ في وجه متوسط الذكاء أنه متوسط الذكاء. وهنا تثور ثائرته: كيف حدث هذا، مسرحية ليست له؟ فيلم لم يفهمـه؟

موسيقى لم تطربه؟ كيف؟ في هذا العصر؟ اسـألوا الإدارة! حاكموا المسئول! اشنقوا المؤلف! سـلموا المخـرج إلينـا! المسرح والسينما والإذاعة والتلفزيون والصحافة لنا لا لمـن يسمون بالصفوة.. كل شيء لنا لا لمن يسمون بالمثقفين. كذا قيل لنا، وكذا سيكون الأمر.

(٣)

استرق السمع إلى من شئت، وستجد حديثه عن المال.

حديث الكافة وشغلهم الشاغل قد انحصـرا فـي وسـائل الكسب، الكادحون يلهثون وراء القرش، ومن توفر له القرش أراده قرشين.. وقد انمحت الفوارق في هـذا الشـأن بـين الطبقات: فكما يجلس الآن رب الدار وخادمه يتابعـان معـا مسلسلا تليفزيونيا غثا واحـدا، اسـتغرقت فكـر الأغنيـاء والفقراء على سواء سبلُ تحصيل المـال؛ فـالجميع فقـراء بالمعنى اللغوي لكلمة الفقر؛ وهو الحاجة. والجميع مرهـق يلهث، ساخط يتأفف.

قد كان ثمة في مجتمع صباي وشبابي تجـار، غيـر أن الناس كانوا وقتها فريقين: تجارا وغير تجار. وقد أضـحت الكافة الآن – ودون استثناء تقريبا – تجارا، لا فـارق بـين

بائع الشاورمة على قارعة الطريق، وبين أستاذ الجامعـة أو المدرس أو الصحافي أو الدبلوماسـي أو الطبيـب أو مـن شئت.. الكل قد بات القرش إلهه، والثراء غايته. وربما كان بائع الشاورمة أعفهم يدا وأقلهم طمعا. وقد بلـغ انزعـاجي منتهاه حين جلست إلى طائفة من المثقفين الأثرياء، متوقعـا أن أسمع نغمة مختلفة من الحديث، فإذا كلامهم لا يخرج عن الشكوى من التضخم وارتفاع الأسـعار، أو عـن مناقشـة مشروعات لديهم كفيلة بأن تحقق الثراء السـريع: منحـل، مفرخة، سوبر ماركت، ملهى ليلي، متجر أزياء، أو ما شئت.

فإن نحن نظرنا إلى من اعتزل دنيانا وتـدروش، فإنمـا ننظر إلى الوجه الآخر من نفس العملة: أناس عجزوا عـن المدافعة والمزاحمة، وكانوا أضعف من أن يطئـوا غيـرهم تحت أقدامهم، فاختاروا إدانة المجتمع بأسره على أساس من الدين؛ حتى لا يفقدوا احترامهم لأنفسهم.

فكيف يمكن في مثل هذا المناخ أن تنتعش حياة ثقافية، أو يكون هناك فكر أو فن، اللهم إلا أن كان فكرا تجاريا، وفنـا تجاريا؟ فإن كان الأساتذة الجامعيون قد أضـحوا يتـاجرون بالعلم، وملائكة الرحمة بالرحمة، فما يحول بين الأديـب أو

الصحافي أو الفنان وبين أن يبيع قلمه أو فنه لمن بيده سلطة إغداق الأموال، أو التعيين في المناصب؟

(٤)

لا بأس من فقدان الإيمان بالأيديولوجيات، فهذه سمة من سمات عصرنا في كل مكان غير أن فقدان الثقة في كل القيم والمثل العليا، في الأخلاقيات، في إمكانية الإصلاح وجدوى محاولته، في كل ما من شأنه أن يجعل من الشباب شبابا، فأمر محزن حقا، كئيب حقا.. وشباب اليوم إلى حد كبير معذور.. قد جربت أنظمة الحكم المتتالية فيه مختلف الحلول والمذاهب كما يجرب العلماء في خنازير غينيا والأرانب في معاملهم. جربت الليبرالية والحكم العسكري، والديمقراطية والفاشية، وتعدد الأحزاب ونظام الحزب الواحد، والرأسمالية والاشتراكية والانفتاح الاقتصادي، والسير في ركاب الغرب والسير في ركاب الشرق، والقومية المصرية والوحدة العربية والانتماء الإفريقي، ونادينا بكافة الشعارات، وتلونت أجهزة إعلامنا بألف لون. وقلب الكتاب والصحافيون معاطفهم ألف مرة، ورقعوها بألف رقعة، وتغنينا بمدح الحكام ثم بهجائهم. وأقمنا لهم التماثيل ثم حطمناها بعد

وفاتهم. وسمينا الشوارع والميادين بأسمائهم ثـم غيرناهـا. وحاربنا إسرائيل ثم صالحناها. وأبرمنا معاهدة صداقة مـع الاتحاد السوفييتي ثم مزقناها. وقاومنا النفوذ الأمريكـي ثـم استسلمنا له. وهللنا للقذافي ثم لعناه، ثم صافيناه. ودخلنا مـع العراق في مجلس تعاون عربي، ثم هاجمناه..

فما الذي بقي لنا مما لم نجربه بعد؟ ما الذي تبنيناه ولـم ينجم عنه حين طبقناه سوى شيوع الفساد والدمار الاقتصادي، وانهيار القيم والأخلاق، وقمع الديمقراطية والحريات، وتفاقم المشكلات الاجتماعية؟

وحكامنا؟ الحاكم الذي وعدنا بالنصر الأكيد القريب توفي على أثر نوبة قلبية قبل أن يتحقق النصر. ومعلهش وحقـك علي. والحاكم الذي وعدنا بالرخاء العظيم والخير العميم سنة كذا، حدث للأسف الشديد أن اغتيل قبل حلول تلـك السـنة، ومعلهش وحقك علي. وبقي الشعب بعد هذا أو ذاك على قيد الحياة، يتساءل مشدوها حائرا وقد فغر فاه: كيف جاز لهـذا أن تفاجئه نوبة قلبية؟ بأي حق يموت ذاك قبل عام الرخـاء؟ ومن عسانا نحاسبه الآن على الوعود التي كانت تكـال لنـا كيلا؟ الحاكم الجديد.؟ إنه لم يدل بتلك الوعود، ولا هو بالذي

تربطه بأسلافه صلة قرابة؟ بالعكس. لقد جاء ليعترف لشعبه بأن الوضع الاقتصادي مؤلم حقا. قد تكون سياسة سلفه هـي السبب، ولكن، من يجيء لنا الآن بسلفه؟

ومجتمعنا؟ عشرون عاما من الانفتاح الداعر على الغرب. وتهديد للقيم الإسلامية، وللتقاليد المصرية، ولكل خيط ولـو رفيع في نسيج الأمة، وانفتاح اقتصادي كان معظم من أفـاد منه ممن لا خلاق له ولا مبدأ. وتضخم ضاعت معه طبقـة الموظفين والبورجوازية الصغيرة. وسلع في متناول القلـة، ودون تملك غيرها لها أهوال وفساد في الخُلُق وبيع أعراض. وشهادات دراسية صرنا نرى الآباء ينصحون أبناءهم بالغش من أجل الحصول عليها. وشرفاء يعيرهم الناس، بل وأبناؤهم وأزواجهم؛ إذ كان شرفهم عائقـا دون تكـوينهم الثـروات. وعمارات سكنية تبنى من تراب. ومـواد غذائيـة تسـتورد فاسدة. ومهنيون بسطاء يكسبون أضعاف مـا يـأتي أفـراد الطبقة البورجوازية والمثقفون من دخل، حتى داخَل أصحاب العلم وذوي الثقافة الرفيعة الشك في قيمة ما حصلوه. وتجار مخدرات لهم الهيمنة والنفـوذ والسـلطة، تقـف سـياراتهم

ومستخدموهم قرب النوادي والمدارس لبيع سمومهم للشـباب والطلبة.

قد فقد شبابنا الثقة. ثقته بنا وبأنظمتنا وقيمنا وأخلاقياتنـا، وراح وملؤه المرارة والغضب، والشك والسـخرية، يشـق لنفسه طرقا أخرى: الهجرة، فتح المطاعم لبيـع البيتـزا أو الهمبرجر، الحصول على توكيل استيراد سلعة، الخدمة فـي فنادق الشيراتون والهيلتون، الإتجار في العملات الصـعبة، بيع العرض، أو البحث عن السلوى في المخدرات.. شـباب خيرهم مجتمعهم صراحة بين الانحراف والاندثار.

(٥)

أتربة تغشى كل شيء: الشوارع، والأشجار، والمنـازل، والبشر، والعقول والأفئدة. وأكوام القمامة في كـل مكـان. والهواء في أي بقعة قصدت تمتزج به رائحة البول وعـادم السيارات.

وسحابات التلوث قد أنستنا كيف كانت زرقـة السـماء.. وتتفرس في وجوه المارة حولك.. فإذا هـي وجـوه تنطـق بالبؤس، أو القلق، أو الحيـرة، أو بالكراهيـة، أو بمجـرد الإحساس بالقهر.. ويدهشك ويفزعك من آن لآخر أن تلمـح

بينهم أطفلا.. ماذا؟ أطفال في زمننا هذا؟! في مجتمعنا هذا؟! من ذا الذي فكر في إنجابهم؟ أو بالأحرى، من ذا الـذي لـم يفكر عند إنجابهم؟ من ذا الذي لا تزال لديه رغبة في إنجاب الأطفال في الوقت الذي بات الناس فيه لا تقلقهم فكرة الموت المبكر، بل وقد يرتاحون إليها ويطمئنون باعتبارهـا المـلاذ الأوحد مما يعانون.

(٦)

في مسرحية "الأشباح" لإبسن، يقول أوزوالد لأمـه بعـد عودته من باريس:

تسألينني عن بهجة الحياة يا أماه؟ ذلك أمر لا تعرفون عنه الكثير في هذه البقعة من العالم، ولا خبرته هنا قط، ولا بهجة العمل التي هي الوجه الآخر لنفس العملة.. لقد نشأ الناس هنا على فكرة أن العمل لعنة وعقوبة على خطيئة، وأن الحيـاة شر نتمنى لو انتهى اليوم قبل الغد.. أما في البلاد التي قدمت منها فلا مكان لمثل هذه الأفكار، وما عاد أحـد يصـدقها.. هناك تشعرين بالسعادة والنشوة لمجرد استنشاق الهواء.. ألم تلاحظي يا أماه كيف أن كل اللوحات التي رسـمتها هنـاك كانت تصور الفرح بالحياة؟ دائما، دائمـا الفـرح بالحيـاة؟

النور.. ضوء الشمس.. الهواء المـنعش.. والوجـوه التـي تنضح بالسعادة.. لهذا فإني أخشى البقاء هنا في هذا البلـد. أخشى البقاء هنـا حتـى لا يغلـف القـبح كـل غرائـزي ومشاعري.. قد أحيى هنا نفس النمط من الحياة الذي أحيـاه هناك، غير أنها لن تكون نفس الحياة.

(٧)

بيد أن أفظع ما لمسته خلال أيام قليلة تلت عودتي، هـو غياب القانون عن ساحة الحياة في مصر. لم يعد ثمـة مـن يعبأ به أو يقيم له وزنـا وحسـابا.. فـإن كـان بـاكونين وكروبوتكين وتولستوي وغيرهم قـد كتبـوا فـي تفضـيل الأناركية على الحكومة والقوانين، فإني لا أشك في أن نظرة واحدة منهم إلى حال مصر اليوم – وقد تحقق فيها حلمهم – كفيلة بأن تبدد وهمهم.. ما من شيء يتحقـق الآن إلا بقـوة الذراع، أو قوة الجنيه، إما بما يسمونه الفهلوة، أو بالرشـوة، أو بالعنف الجسدي. أما اللجوء إلى المحاكم أو إلـى أقسـام الشرطة ورجال الأمن، فخير لك أن تنساه. وقـد يكفـي أن تنظر إلى وجه الشرطي البائس المتعب في الطريـق العـام لتدرك أنه، وهو المكلف بالحراسة، ما عاد يعبأ بحماية أنظمة

أو قوانين لن يؤدي أي قدر من العبث بها إلى تدهور نوعية حياته أو تهديد رغد عيشه. وقد يكفي أن تلجأ في نزاع إلى محكمة، أو بالشكوى إلى قسم من أقسام البوليس، حتى تقتنع بأن الزمن قد يأتي قريبا حين يضطر الناس، كما في العصور الوسطى، إلى السير في الشوارع حاملين الخناجر أو السياط لاستخدامها في حماية أنفسهم، وفض نزاعاتهم وحل قضاياهم. وقد يكفي أن تنظر إلى ما بلغته فوضى المرور في مصر لتفهم ما أعني، وترى إلى أي حد من التحلل قد بلغته الأخلاق وبلغه الذوق العام في مصر.

أجلس للعشاء في نادي السيارات مع ثلاثة من الأصدقاء الحميمين القدامى.. ثلاثتهم أساتذة جامعيون. واثنان منهم عرفتهما في الأيام الخوالي لا يكفان طوال جلساتنا عن المزاح والتندر والضحك.. أما اليوم فقد كانت هيئتنا جميعا هيئة من يساق إلى الذبح، وكان حديثنا من أول اللقاء إلى نهايته سلسلة متصلة من الشكوى والتبرم بالأوضاع.. هذا يكلمنا عن الشقة المقابلة لشقته، وكيف حولها صاحبها إلى ماخور للدعارة تتردد عليه المومسات وأثرياء العرب، دون أدنى اعتبار لمشاعر سكان العمارة وبناتهن، أو أدنى خوف

من رجال الشرطة. ويسهب الثاني في سرده أنباء جارتـه – وهي سيدة محترمة المظهر، واسعة الثراء، وكيـف جنـدت وتجند فتيات جميلات دون العشرين، يخرجن فـي الصـباح الباكر من منازلهن بكتبهن لإيهام الآباء بأنهن في طـريقهن إلى الجامعة، ثم تصحبهن السيدة إلى المطار لتنقلهن طائرات الأمراء العرب إلى ممالكهم وإمارتهم، ثم يعدنهم - أو يعدن ما بقي منهن – إلى القاهرة في ختام اليوم "الدراسي" وكيـف ألقي القبض في يوم ما على هذه السيدة، ثم أفرج عنها بعـد ساعات قلائل لسبب غير معلوم.

أما الثالث فكان حديثه عما يعانيه من مكبر الصوت فـي المسجد المواجه لمنزله؛ ما تعانيه منه دراسـاته وبحوثـه، ويعانيه سمعه وأعصابه، ويعانيه أولاده الصغار، ومـا أدت إليه إذاعته للأذان وخطبة الجمعة والدروس الدينية والتواشيح وحملات جمع التبرعات من كفر هـؤلاء الصـغار بالـدين بأسره، وكيف خاب مسعاه وباءت جهوده بالفشل حين حاول اللجوء إلى القائمين على أمر المسجد، أو قسم الشـرطة، أو المحافظ أو وزارة الداخلية، من أجل تطبيق اللوائح الخاصـة بمكافحة الضوضاء.

وأتأمل الأصدقاء البائسين الثلاثة فتقفز إلى ذهني قصة كانت جدتي ترويها لنا في طفولتنا، عن الحمار الأعرج البائس الذي استغنى عنه صاحبه حين كسرت ساقه، والكلب العجوز البائس الذي طرده سيده حين تقدمت به السن، والقطة النحيلة البائسة التي هربت من سوء معاملة أهل الدار لها، والديك السمين البائس الذي سمع صاحبه يقول لزوجته إنه ينوي ذبحه لوليمة يقيمها في اليوم التالي لأصدقائه.. ويجمع البؤس بين هؤلاء الأربعة ويؤلف بينهم، فيخرجون ينشدون مكانا يقيمون سويا فيه، حتى إذا ما عثروا على دار مهجورة في الصحراء خارج المدينة، وهموا بالدخول إليها، لمحوا من النافذة عصابة من الأشرار في إحدى الحجرات يقتسمون أموالا وحليا فيما بينهم. فاعتلى الديك ظهر القطة، والقطة ظهر الكلب، والكلب ظهر الحمار، وشرعوا عند النافذة يصرخون في وقت واحد: نهيق ونباح، ومواء وصياح، فإذا الهلع يصيب أفراد العصابة وقد ظنوا أمرهم قد افتضح، ويلوذون بالفرار تاركين الدار بما فيها من حلي وأموال.

وأودع أصدقائي مفكرا:

فإن كنت وأصحابي ذلك الحمار والكلاب والقطة والديك، فمن عساها تكون تلك العصابة من الأشرار؟

***

وأتأمل على طول الطريق أثناء عودتي إلى البيت، إلى يميني ويساري، ملصقات مرشحي الحزب الوطني الحاكم لانتخابات مجلس الشعب. كل مرشح منهم يعدنا باستمرار النعيم الذي نحيى فيه منذ سنوات طويلة طويلة، لعدة سنوات أخرى.

مجتمع الشحاذين

(١)

لم أكن قد قابلت صديقي فخري لوقا منذ تعيينه سفيرا في الفيليبين وتعييني سفيرا في الجزائر، فافترقت بنا الطرق.. وحين التقينا ظهر اليوم مصادفة في مطعم نادي وزارة الخارجية، وفرغنا من التصافح الحار والتعبير عن عميق الأشواق، ظل كل منا برهة يتفحص وجه الآخر في صمت ليرى ما صنع به الدهر، وفعلت به الإقامة الطويلة خارج مصر.. ثم سألته عن زوجته الثانية التي اقترن بها قبيل

رحيله إلى الفيليبين، فأخبرني أنه رزق منها منذ ستة أشـهر بمولود ذكر، وأن الله وفقهم بعد عودتهم من مانيلا بأسـبوع واحد إلى العثور له على مربية مصرية ممتازة، هي أعظـم كفاءة من أية مربية من المربيات الفيليبينيات اللواتي يتشـدق مستخدموهن من المصريين بأمانتهن وإخلاصهن في العمل:

أدفع لها مرتبا معقولا.. ثلاثمائة جنيه في الشهر.. غيـر أنها تساوي وزنها ذهبا.. يكفي أن تلاحـظ مـدى سـعادتها بالطفل، وسعادة الطفل بها، وتعلق كل منهما بالآخر.. وهـي تؤمن بأهمية الهواء الطلق لصحته، فتخرج به بعد الغذاء كل يوم ساعتين أو ثلاثا إلى حديقة عامة قرب منزلنـا بمصـر الجديدة، مما يتيح لي ولزوجتي فرصة الراحـة أو الحـديث بعض الوقت عقب الغذاء دون انشغال بالطفل.. ولكـن، مـا أخبارك أنت؟ متى عدت من الجزائر؟ وهل لمست ما لمسته أنا من تغيير رهيب في نوعية الحياة في مصر؟.. تعالَ ننتقل إلى الصالون لنشرب قوتنا فيه.

وانتقلنا إلى الصالون نواصل الحديث.

(٢)

قد مضى – إذن - على عودتك من الجزائر نحو عـام. وهي فترة كافية لتقييم الوضع الجديد في مصر.. فهل يمكنك إعطائي فكرة مختصرة عن النتائج التي توصلت إليها؟

قالت:

في اعتقادي أنه حين كانت حكومتنا في طـور مقاومـة صندوق النقد الدولي وشروطه، لم تأخذ في اعتبارها غيـر احتمال أن ينجم عن إلغاء الدعم ورفع الأسعار وارتفاع نسبة التضخم، اضطرابات شعبية واسعة النطـاق، قـد يسـتغلها الأصوليون المتطرفون في محاولة للاستيلاء علـى مقاليـد الحكم.. غير أن الحكومة رضخت في نهاية المطاف لضغوط الصندوق، ولتهديده بالامتناع عن تقديم المزيد من القروض.. فكان أن ارتفعت الأسعار بصورة جنونية، خاصة بعد فرض ضريبة المبيعات، في حين عززت أجهزت الأمن من قدراتها على مواجهة أي شغب قد يحدثه هـذا الشـعب المطحـون البائس، العاجز حتى من قبل الرضوخ لمطالب الصـندوق، وقبل فرض ضريبة المبيعات، عن مواجهة أعبـاء الحيـاة وتكاليفها.

هذا حق.

وقد نجحت السلطات نجاحا باهرا في الإيحاء إلى الشعب بأن أي احتجاج وأي مظهر من مظاهر المقاومة مقضي عليهما بالفشل إزاء قوة الجيش والشرطة والمباحث.. فإن كنا قد شهدنا في زمن ما، (وهو زمن غير بعيد إلا أن نظرنا إليه على ضوء ما طرأ على طبيعتنا من تغير رهيب محزن)، احتجاجات دموية نتيجة رفع سعر الأرز أو السكر بمبلغ نصف قرش، (وهي احتجاجات سرعان ما دفعت الحكومة وقتئذ إلى إلغاء الزيادة، والاعتذار للشعب، وإلقاء المسئولية على هذه الوزارة أو تلك)، فقد صرنا إلى زمن تتضاعف فيه أسعار السلع شهرا بعد شهر، دون أن يحرك الناس ساكنا، ودون أن تبدر منهم بادرة غضب جماعي.

في اعتقادك إذن أن إجراءات إلغاء الدعم ورفع الأسعار قد مرت بسلام؟

لا يا سيدي.. غياب المقاومة والاحتجاج لا يعني أن تلك الإجراءات مرت بسلام.. كل ما هناك هو أن رد الفعل إزاء هذه الكارثة جاء في صورة مخالفة تماما لكل ما كانت السلطات تتوقعه وتخشاه، وتعمل حسابا له بتعزيزها لقدرات أجهزة الأمن.. وفي ظني أن الحكومة لو كانت قد خمنت قبل

إذعانها لشروط الصندوق طبيعة رد الفعل الشعبي الذي حدث بالفعل، لدفعها هذا الإدراك إلى مزيد من التفكير، ومزيد من التردد، وإلى الشك في حكمة الرضوخ لذلك الجهاز الأجنبي الذي لا يعنيه في شيء صلاح أمر المصريين أو فساده، كما أنه في اعتقادي أن رد الفعل الناجم عن هذا الغلاء الفـاحش الذي بات الناس يحيون في ظله، هو أسوأ عاقبة وأشد وبالا على أمتنا، في المدى القريب والمـدى البعيـد، مـن آيـة اضطرابات أو احتجاجات أو أعمال عنف..

ماذا تعني؟

أعني أن مجتمعنا المصري قد تحول في الفترة القصـيرة إلى مجتمع شحاذين.

لا فض الله فاك. وهذا بالضبط ما لاحظته، ولما يمـض على عودتي من الفيليبين غير شهر واحـد.. ولكنـي أريـد الاستماع إلى أمثلة وتفاصيل.

(٣)

وضع الجارسون أمامنا فنجانين من القهوة ثم انصرف.

الأمثلة تتكرر كل خمس دقائق أو عشر، سواء خرجـت إلى الطريق أو مكثت في دارك.. ساعي البريد لا يأتي إليك

بخطاب ما لم تعطه في كل مرة مبلغا يغريه بالعودة إليك.. موظف شركة الغاز كلما حضر لقراءة العداد ادعى أن له فضلا عليك؛ إذ نقل حسابك من شريحة إلى شريحة، منتظرا منك البقشيش مقابل تخفيضه للمبلغ المستحق عليك عن استهلاك الغاز.. محصل فواتير الكهرباء يعرض عليك - سرا مقابل مكافأة له - أن يدس في العداد سلكا يقلل من سرعة دورانه إلى النصف.. موظف قسم المخالفات بإدارة المرور يعرض إخفاء مخالفات سياراتك البالغ قدرها أكثر من مائة جنيه مقابل عشرة جنيهات لا غير يأخذها لنفسه:

بخمسين قرش يعفيك المفتش ... من الغرامات، ويشطب لك قضية
بخمسين قرش تتبدل محاضر ... بتهمة عليك وتتحول علي
بخمسين قرش شيخ حارتك يخلي ... ولادك يهربوا م العسكرية
بخمسين قرش ترفع ميكروفونك ... لوش الفجر، وزيادة شوية
بخمسين قرش أكتب لك شهادة ... بموت خالتك، وخالتك لسة حية
بخمسين قرش أكتب لك مقالة ... بأنك من رجال العبقرية

أما عن رجال الشرطة والمرور – رموز هيبة الدولة ونظامها وقوانينها – فحدث ولا حرج.. تقف بالسيارة عند

إشارة مرور، فإذا بشرطي المرور يضرب لك تعظيم سـلام لمجرد أنك صاحب سـيارة، متوقعـا منـك الصـدقة دون مناسبة.. ولقد رأيت بعيني رأسي بعض أصحاب السـيارات يناول الشرطي رغيف خبز أو كعكة، فيتقبل الصدقة منه في امتنان شديد، وبالدعاء له.. تستعد للنزول من السـيارة بعـد ركنها أمام النادي، فيهرع إليك شرطي يقف للحراسة أمـام بنك أو مؤسسة ليمسك بأكرة باب السيارة حتى تنزل، ومؤديا لك التحية العسكرية، على أمل أن تمنحه عشـرة قـروش.. تدخل من باب النادي، فإذا بالحارس يدعوك بسعادة الباشـا، ويسألك كالمشتاق الولهان عن سر غيابك عن النـادي مـدة أسبوع، على أمل البقشيش عند خروجك.. بل إنك لتمر على قدميك في النفق تحت ميدان التحرير فيحييك الشـرطي فـي إجلال وتوقير لمجرد أنك أنيق الهندام.. تقف بالسيارة عنـد مكتب بريد لتسجيل خطاب فإذا المنادي - وقد ظهـر فجـأة وكأنما انشقت عنه الأرض - يأتيك عدوا وهو يلهث ملوحـا بفوطته الصفراء ليخطرك أنه سيحول أثناء غيابك بين تلاميذ المدرسة المجاورة عند خروجهم منها وبـين إلحـاق الأذى بالسيارة.. تقصد دار السينما، فإذا الجالسة عند شباك التذاكر

إما أن تدعي أنه ليس لديها فكة فتستولي لنفسها على الباقي، أو أن تمتنع بكل بساطة عن رده دون تفسير.. تناول البـائع في دكانه ورقة من فئة عشرين جنيها فيناولك باقي عشـرة جنيهات مقسما بالطلاق أنك إنما أعطيته عشرة لا عشرين.. تشتري من بستاني بعض نباتات الزينة، فإذا هو يدق بـاب دارك في ساعة مبكرة من صباح كل يـوم جمعـة بحجـة الرغبة في الاطمئنان على الزرع، والسؤال عمـا إذا كـان "سعادة الباشا" في حاجة إلى خدمة أخرى.. فإن أجبته بالنفي ظل واقفا عند الباب لا يحيد يدعو لـك بالسـعادة وطـول العمر.. تدخل باب الوزارة فيحمد بوابها الله على سـلامتك دون أن يبين طبيعة الخطر الذي نجوت منه.. تزور متحفًـا تحوي صالاته من الذخائر والحلي ما لا يقدر بثمن، فيتعمـد حارس الصالة الخروج منها تاركا إياك وحدك فيهـا ليبـين ثقته فيك، مقابل بقشيش عند خروجك..

والمصـري لـو حـب يتـدفا علـى اسـتعداد
يخلـي متحـف بحالـه كـوم حطـب ورمـاد
وإن حـب يقعـد مفـيش مـانع يهـد بيـوت
علشان ياخد لـه حجـر يقعـد عليـه مبسـوط

أتذكر إجابة برنارد شـو أثنـاء زيارتـه لمصـر فـي العشرينيات على سؤال لأحد المصريين:

متى تتوقع أن تصبح مصر دولة متمدنة؟

أجابه شو بقوله:

حين تتعلمون البصق في مناديلكم.

إنني لا أزال أعتبر هذه الإجابة جوهر كل حـديث عـن مستقبل مصر.. وهي إجابة تخطر ببالي عشرات المرات في كل يوم كلما صادفت المظاهر المفجعـة المبكيـة للفرديـة والأنانية اللتين أصبحتا من السمات المميزة للكثيـرين مـن المصريين.. فإن كان عهد حسني مبارك هو المسئول عـن تحويل شطر آخر إلى فاقدي ذمة.. من سباك لا يصلح شيئا في حمام منزلك إلا خرب شيئا آخر لتستدعيه من جديد، إلى ملاك لمحلات سوبر ماركت، أو شركات لتوظيف الأمـوال، أو مكاتب استيراد، إلـى مـوظفين صـغار فـي الإدارات الحكومية، إلى مسئولين كبار في الدولة.. لقد تسبب العهدان في تبديد الإحساس بالمواطنة، بضرورة مراعـاة الصـالح العام، بمشاعر الجيزة الطيبة، وفي خلق روح من اللامبـالاة

بكل شيء عدا الصالح الشخصي الضيق.. فكيف يرجى إزاء كل هذا إصلاح أو تقدم؟!

إنني لأسير الآن في الطريق فأرى على جانبيه المئات من محلات السلع الاستهلاكية الجديدة، ومكاتب شركات الانفتاح والخدمات السياحية والمكاتب الاستشـارية، بـل ولافتـات المشتغلين بالمهن الحرة، فأكاد ألمح الأيدي الخفية تمتد منهـا لتنشل حافظة نقودي وتنهش جسدي نهشا.. كل يريد مالـك، كل يريد امتصاص دمك، كل بدعوى تقديم الخدمات لك!

قد تكون حالتي حالة مرضية تستدعي العرض على طبيب نفسي.. غير أن هذا هو الوضع.. قد بت الآن أتردد طـويلا قبل الخروج من منزلي خشية أن أقع فريسـة للشـحاذين أو فاقدي الذمة.. بت أخشى قراءة الصحف والمجلات خشية أن يقع عقلي فريسة لكتاب وصحفيين متسولين يشحذون من هذا النظام أو ذاك دون أدنى اعتبار أو احترام لي.. بـت أجـد صعوبة في أن أكتم حنقي كلما لمحت مصـريات يعرضـن أجسادهن في ردهات الفنادق على السياح العرب، ويتسـللن خفية أو يتوجهن جهرا إلى شققهم المفروشة؛ طلبا لدنانيرهم وريالاتهم.. بت أعجب كيف لم يتنبه السادات حـين تبنـى

سياسة الانفتاح، أو مبارك حين قبل شروط صـندوق النقـد الدولي، إلى الآثار بعيدة المدى التي كان لا بد أن تحدثها تلك السياسة وذلك الرضوخ في المجتمع المصري: فـي بنيتـه، وفي صورته، وفي أفراده من أحفاد الفراعنة.. وأخيرا، بت أعجب؛ كيف يمكن أن يستشعر الحاكم الرضا والتنعم بكرسي الحكم وهذا هو حال الرعية؟! وأكاد أهتف به:

فاحكم؛ فأنت على الأموات سلطان.

***

وهذا هو تقييمي الذي سألتني إياه للوضـع الجديـد فـي مصر.. فخبرني بالله عليك: أي مستقبل ذلك الـذي ينتظـر طفلك الرضيع وأطفالي إن استمر الحال على ما هو عليه؟

(٤)

دفعنا فاتورة الغداء وتهيأنا للانصراف.

سألني فخري لوقا:

- أين تسكن الآن؟
- قبالة مسجد السلطان حسين بشارع الثورة.
- معك سيارة؟
- لا

- أوصلك بسيارتي إذن، ومسكني غير بعيد منك.

وانطلقنا بالسيارة صوب مصر الجديدة.. فما دلفنـا مـن شارع العروبة إلى شارع الثورة مـارين بجـامع السـلطان حسين، حتى فرمل صديقي سيارته فرملة قوية كادت رأسي ترتطم بسببها بالزجاج الأمامي.

والتفت إلى السفير في دهشة فإذا به يهتف وقـد اتسـعت حدقتا عينيه:

- ما هذا؟ ما هذا؟ ما هذا؟

ثم اندفع خارجا من السيارة متجها إلى باب المسجد الذي كانت تخرج وقتها منه حشود المصلين بعد صلاة العصر.

وراقبته من نافذة السيارة.. اتجه صوب امرأة فـي نحـو الثلاثين في ثياب مهلهلة تقف عند باب الجامع وهي تحمـل إلى صدرها طفلا رضيعا قد دثرته بشال مهلهل كثيابها، مادة يدها إلى الخارجين من المسجد طالبة الصدقة، وهي تكـرر بصوت ذليل باك:

حسنة لليتيم الغلبان يا محسنين.. لله يا مسلمين.. حسـنة صغيرة تمنع بلاوي كتيرة.. عشانا عليك يا رب.. يا بخـت من..

غير أنها لم تكمل.. ذلك أن نظرها وقـع علـى السـفير فخري لوقا فبدا عليها الرعب الشديد، وحاولت أن تنسل مـن مكانها هاربة.. غير أنه سرعان ما لحق بها، وأمسكها مـن شعرها يشدها منه في اتجاه السيارة وهو يلكمها ويكيل لهـا أقذع السباب:

- مع ابني يا بنت الكلب؟!!

رحلة المليون

(١)

لا أدري من أين جاءتني هذه الموهبة الخارقة في شـئون المال.. ربما أكون قد ورثتها عن والدتي رحمة الله عليهـا.. كانت إذا تجمع لديها مبلغ لا بأس به، قل ما بين ثلاثين جنيها وخمسين، من مصروف البيت الذي تأخذه من أبي، فكـرت من فورها في شراء منزل، وصـار أول مـا تقـرؤه فـي الصحف الصباحية هي الإعلانات المبوبة في القسم الخـاص بالعقارات المعروضة للبيع، لترى ما إذا كان به إعلان عـن منزل مناسب، ثمنه في حدود المعقول.

ولازلت إلى اليوم أذكر يوم استرعى انتباهها في صحيفة "الأهرام" (إبان الحرب العالمية الثانية) إعلان عن بيع منزل من طابقين على النيل في حي الجيزة، له حديقـة واسـعة، ويملكه ثري إنجليزي ينوي الرحيل نهائيا عن مصر.. كـان الثمن المذكور في الإعلان ألفي جنيه وأربعمائة.. وقد بادرت والدتي بعد الإفطار مباشرة إلى العنوان المـذكور لمعاينـة البيت، وعادت تعبر عن مدى إعجابها وسعادتها بـه، وقـد عقدت العزم على شرائه مهما كانت الظروف.

فتحت صوانها وأخرجت من تحت قمصان النوم مظروفا أبيض مهلهلا، تعد ما به من جنيهات وفرتها من مصـروف البيت، فإذا المبلغ ثلاثة وأربعون جنيها.. فكرت لحظـة ثـم رفعت رأسها تسألني:

- مرزوق! (كنت وقتها في التاسعة من عمري)، كـم معك من النقود في حصالتك؟

جئت بالحصالة وفتحتها أعد ما بها مـن قـروش، فـإذا المبلغ ثلاثة جنيهات إلا قليلا قالت والدتي:

أعطني إياها وسيكون الكشك الخشبي الجميل في حديقـة المنزل ملكا لك، تجلس فيه وتذاكر دروسك أو تقـرأ طيلـة

النهار إن أحببت، ومن حقك أن تمنع غيرك إن شـئت مـن استخدامه إلا بإذنك.. ناولني الجنيهـات.. معـي الآن سـتة وأربعون جنيها، والباقي ألفان وثلاثمائة وأربعة وخمسـون.. بسيطة!

قامت بعد الغداء لتزور صديقتها الحميمة (وقريبتها فـي نفس الوقت عزيزة هانم برهان، زوجـة السياسـي البـارز عبد الحميد برهان باشا، وأخبرتها بأمر البيت الذي شـاهدته في الصباح، والذي أعجبها لدرجة أنها كانت تنوي – لو كان بمقدورها توفير ثمنه – أن تسميه "فـيلا راحتـي" غيـر أن المبلغ معها، للأسف الشـديد، (وهنـا اغرورقـت عيناهـا بالدموع) لا يكفي لشرائها.. لم تخبر صديقتها بقيمة المبلـغ الذي معها، فكان من الطبيعي أن تتصور عزيـزة هـانم أن الباقي على إكمال الثمن هو ما بين سبعمائة جنيـه وألـف.. قالت عن طيب خاطر:

- معي الآن ثمانمائة جنيه، أعيرك إياها وتردينها متى توفرت لك، دون أدنى حاجة إلـى اسـتعجال.. مـا رأيك؟

- قامت والدتي وعانقها وقبلتهـا، وأرادت أن تكتـب إيصالا بتسلم المبلغ، غير أن عزيزة برهـان أبـت ذلك:

- عيب يا نفيسة، عيب.. يكون بيني وبينك إيصالات؟!

- أقصد أنه في حالة وفاتي فجأة – على سبيل المثال - يكون ثمة ما يثبت للورثة أنني..

- عيب يا نفيسة! هل تتصورين أن حزني علـى فقـد المبلغ في تلك الحالة سيكون أعظم من حزني علـى فقدك؟

- قالت والدتي وهي تتسلم المبلغ منها:

- سأخصص لك في البيت حجرة هي استخدامك وحدك إن حدث (لا قدر الله) أن غاضبت زوجك.

ومن بيت عزيزة هانم توجهت والدتي إلى بيت خالي في حي العباسية، فحصلت منه على أربعمائة جنيه قرضا ميسر الدفع، ثم أجرت مكالمة تليفونية مع ابنة عم لها تسـكن فـي طنطا، فوعدتها بإرسال مائتي جنيه مع زوجها في الصـباح الباكر..

وإذ عادت إلينا في المساء، قالت لوالدي:

معي الآن أكثر من نصف ثمن البيت.

- أي بيت؟

- آه! نسيت أن أخبرك.. هو بيت قرأت إعلانا عن بيعه في "الأهرام" هذا الصباح.. ألفان وأربعمائـة جنيـه. معي منها الآن نحو ألف وخمسمائة.. ما رأيك فيما لو أقرضتني تسعمائة جنيه وتصبح ملكية البيت مناصفة بيني وبينك، فتكون قد ربحت بخبطة واحدة ثلاثمائـة جنيه، دون أدنى مجهود؟ هه؟ ما رأيك؟

وكان أن فكر والدي ساعة أو ساعتين ثم وافق.. وكان أن اشترت والدتي البيت في صباح اليوم التالي.. وقـد سـجلته باسمها وحدها بعد أن أقنعت والدي بأن هـذا هـو السـبيل الأفضل لاعتبارات خاصة بالضرائب..

(٢)

وتمر الأيام والسنون.. ويموت أبي ثم أمي، وتصير إلـي ملكية ذلك المنزل الجميل المطل علـى النيـل.. وأعتـرف للقارئ هنا بأني لم أشغل ذهني قط بما إذا كانت والدتي قـد سددت ديونها التي عقدتها من أجل شرائه، خاصة أنه ما من

أحد من دائنيها طالبني بعد وفاتها بسداد أي مبلغ. فكان مـن السهل أن أفترض أنها سددت كل ما عليها.

وفي أحد أيام شهر يناير الماضي دق جرس التليفون فـي مكتبي. وكان المتحدث مستشار السفارة الكندية في القـاهرة يقول: إنه قرأ الإعلان الذي نشرته في "الأهرام" عن رغبتي في بيع بيت أملكه على النيل في الجيزة، ويعرض علي ثلاثة ملايين من الجنيهات ثمنا له، ليكون مقـرا لسـكن السـفير الكندي.

ورغم أن قلبي خفق فرحا، فقد تظاهرت مدة بالتردد وعدم الرضا بالمبلغ، وإن لم أستطع في النهاية رفعه إلـى أربعـة ملايين.. كل ما أمكنني تحقيقه هو إقناعه بدفع مليون دولار أمريكي بدلا من الملايين الثلاثة من الجنيهـات المصـرية.. واتفقنا على موعد لتسجيل عقد البيع ودفع الثمن، واشترطت على المستشار أن يكون الدفع نقدا لا بشيك.

قصدت مبنى الشهر العقاري مزودا بحزام من قماش، ذي جيوب عديدة واسعة، فالخروج من الشهر العقاري بحقيبة يد كثيرا ما يغري أولاد الحرام (خاصة ممن شهد فـي المبنـى عملية تسليم النقود) بتتبعك واغتنام الفرصة لخطف الحقيبـة

منك.. فما أنهينا التسجيل وتسلمت المبلغ، حتى قصدت أقرب دورة مياه في المبنى، وأوصدت الباب من الداخل، وخلعـت سترتي وقميصي أربط الحزام حول صدري بعد أن دسسـت المليون دولار في جيوبه. ثم عدت إلـى ارتـداء القمـيص والسترة فوقه، وخرجت من دورة المياه وقد تضاعف وزني منذ دخولي.. أخيرا بعد أن كنت قد أشرفت على الإفـلاس، أجد نفسي مالكا لمليون دولار!

(٣)

لم أشأ أن أعود بالمبلغ إلى البيت. فقررت أن أودعه فـي أقرب بنك من الشهر العقاري.

دخلت البنك، فإذا هو غاص بالعملاء. ومكثت نحو ربـع ساعة أرقب الوضع من بعيد لا أدري كيف أتصرف أمام كل هؤلاء الناس. وأخيرا لاحظني أحد الحراس المنتشـرين فـي الردهة فارتاب في، وتقدم مني يسأل:

أي خدمة يا أستاذ؟

قلت: أريد التحدث إلى موظف بالبنك.

قال: وما يمنعك؟ كل هؤلاء موظفون بالبنك (وأشار بيده إلى الموظفين الجالسين إلى الشبابيك، يقبضون ويصـرفون ويعدون النقود) تفضل وقف في أي طابور من هذه الطوابير.

وقفت على مضض في أحد الطوابير، حتى جـاء دوري وصرت وجها لوجه مع الموظف الـذي انتظـر أن أبـدأه بالكلام.

- نعم!
- أريد أن أحادثك في غرفة خاصة.
- فغر الرجل فاه إذ يسمع ما قلت: هه؟!
- أريد أن أحادثك في غرفة خاصة.
- قال ساخرا: ولم؟

التفت حولي يمنة ويسرة وإلى الخاف، ثم انحنيت وقربت رأسي قدر الإمكان من فتحة الشباك الزجاجي، وقلـت لـه هامسا:

- لا أستطيع أن أخلع سترتي وقميصي أمام كل هـؤلاء الناس.
- تأملني بعض الوقت وقد خامره الشـك فـي قـواي العقلية، ثم قال:

- وأيةُ ضرورة تدفعك إلى خلع السترة والقميص؟

أشرت بإصبعي إلى قميصي عله يفهم، فلم يفهم..دققـتُ بكفي على صدري، فلم يفهم.. واضطررت في النهاية مـع هذا الغبي إلى مزيد من الإيضاح:

- أريد أن أودع مبلغا في بنككم.. والمبلغ تحـت هـذا القميص.

- أخيرا فهم!

- كم؟

- مرة أخرى التفت يمنة ويسرة قبل أن أهمس:

- مليون دولار.

- نعم؟

- مليون دولار.. إما في غرفة خاصة، وإلا مضيت بها إلى بنك آخر.

هب الرجل من فوره واقفا، وتناول من تحت مقعده لوحة كتب عليها "هذا الشباك مغلق" وأشار إلي أن أتبعـه، بينمـا تفرق الواقفون في الطابور ورائي إلى شبابيك أخرى وهـم يتأففون ويلعنون.

وتبعت الرجل، فإذا هو يقودني إلى مكتب مدير البنك في الطابق الأعلى.. دخلنا عليه، واقترب الموظف منه منحنيـا على أذنه ليهمس شيئا وهو ينظر تجاهي.

هب المدير بدوره واقفا، واقترب منـي وعلـى وجهـه ابتسامة عريضة ليصافحني:

- أهلا وسهلا.. أهلا وسهلا.. الأستاذ...؟
- مرزوق عبد العاطي.
- أهلا مرزوق بك.. تريد إذن أن تودع مليـون دولار في بنكنا.. هذا شرف كبير.. تريدها وديعة لمدة شهر، أم ثلاثة أشهر، أم سنة؟ غيرنا من البنوك يعطي فائدة لا تزيد على أربعة في المائة على مثل هـذا المبلـغ الكبير عن الوديعة لمدة سنة.. غير أننـا سـنعطيك خمسة في المائة إكراما لك.. ليس هذا فحسـب، بـل وسيزودك البنك من حين لآخـر بقائمـة بمجـالات استثمار المبلغ كله أو بعضه متى قررت استثماره في مشروع تجاري أو صناعي.

ثم التفت إلى الموظف يقول:

- اغلق الباب بالمفتاح حتى يخلع مرزوق بـك سـترته وقميصه.

قالت:

- لحظة من فضلك.. أريد أولا أن أسألكم عن الكفيل.

لم يفهم ما أعني.

- الكفيل؟

- نعم.. الكفيل.. الضامن.

- ماذا تعني؟

- سيادة المدير. أنا لست غبيا كما قد تتصورني. ولا أنا بالجاهل بطبيعة المعاملات المصرفية.. لقد قصـدت منذ عام أحد البنوك لاقترض منه مبلغا حتى أبدأ بـه مشروعا معينا، فلم يقبلوا إقراضي ما لم أقدم ضـامنا أو كفيلا يضمن سداد المبلغ في حالة عجزي.. فمـن هو الضامن لسداد هذا المبلغ الذي سأودعه الآن فـي بنككم؟

أجاب الرجل:

- ولكن البنوك غير مضـطرة إلـى تقـديم ضـامنين للمودعين عندها.. كل ما عليك هو أن تترك المبلـغ معنا وينتهي الأمر.

- ضحكت ساخرا وقلت:

- أترك المبلغ معكم وينتهي الأمر!! ولكني أريد أن أراه ثانية يا سيادة المدير!

فغر الرجلان فميهما في دهشة، ثم قال الموظف:

- ولكنك يا سيدي تستطيع سحبه في أي وقت شـئت.. وسنعطيك إيصالا مختوما بتَسلم المبلغ منك.

قلت:

- وهذا هو ما عرضته على البنك الذي أردت منذ عـام الاقتراض منه.. أخبرتهم أننـي سـأعطيهم إيصـالا باستلام المبلغ منهم. غير أنهم رفضوا ما لـم أقـدم كفيلا.

قال المدير مبتسما:

- يا أستاذ مرزوق.. لقد جرت العادة علـى أن تطلـب البنوك ضامنا لمن يريد الاقتراض منها. غيـر أنهـا ليست ملزمة بتقديم ضامن لمن يريد إيداع مبلغ فيها.

- ولم لا؟
- لم تجر العادة على ذلك.
- ولم لم تجر العادة علـى ذلـك رغـم أن الوضـعين متماثلان؟
- لأن المودع غير معروف لدينا.
- وهل سيادتك معروف لدي؟ هذه أول مرة أقابلك فيها.
- ولكننا مؤسسة! سيادتك لا تتعامـل معـي بصـفتي الشخصية، وإنما باعتباري مديرا لمؤسسـة.. مـديرا لبنك.
- لا أرى فارقا بين الوضعين.. البنوك ترفض إقراضي مبلغا دون كفيل، وأنا أرفض أن أعطـيكم المليـون دولار دون كفيل.
- هل كان لديك حساب في البنك الذي طلبـت قرضـا منه؟
- لا، ولكن بنككم أيضا ليس لديه حساب عندي.. ومـن العدل أن ينطبق على البنك ما ينطبق علـي.. كيـف يمكنني – بكل بساطة – أن أودع لديكم كل ما أملـك في هذه الدنيا، وهو مبلغ تعبت والدتي - رحمـة الله

عليها - وكدحت طيلة حياتها حتى وفرتـه، مقابـل مجرد إيصال منكم، ودون ضمان.

- قال المدير في صبر شديد:

- لا يبدو أن سيادتك قد فهمتني.. سيادتك متى تركـت المبلغ عندنا تستطيع إن احتجت إلى جزء منه في أي وقت من الأوقات أن تأتي إلينا لسحبه.

- وما أدرى البنك الذي رفض إقراضي المبلغ أنه لـو كان احتاج إلى جزء منه في أي وقت مـن الأوقـات كنت سأرفض إعطاءه إياه؟ ثم إنني أذكـر جيـدا أن والدتي - رحمة الله عليها - أخبرتني أكثر من مـرة وهي تتنهد أنها في عام ١٩٢٨ أودعت في بنك مصر خمسة عشر جنيها، فلما أفلس البنك في أعقاب الأزمة العالمية في أوائل الثلاثينيات لم يمكنها استردادها.

- نعم. في حالة إفلاس البنوك يصبح من الصعب على العملاء استرداد ودائعهم فيها.

- ها هاها! وهذا هو ما أعنيه.. لـم تسـتطع والـدتي استرداد وديعتها رغم أن بنك مصر كان قد أعطاهـا وقت الإيداع إيصالا مختوما بـالمبلغ! ولـو أنهـا –

رحمة الله عليها – كانت أصرت عند الإيداع على أن يكون هناك ضامن للبنك لما ضاع عليهـا الخمسـة عشر جنيها حتى مع إفلاس البنك.

قال المدير عابسا:

- آسف يا سيدي. ولكننا لا نقدم ضامنا للمودعين فـي بنكنا.
- وهو كذلك.. وأنا آسف لإضاعة وقتكم.. سأبحث عن بنك آخر.

(٤)

وترددتُ ذلك الصباح على أكثر من سبعة بنوك.. وكانت النتيجة في كلها واحدة، مما جعلني أعتقد في النهاية أن توفير الضامن للوديعة ليس من التقاليد المصرفية.. ولم أشأ – كما سبق أن قلت – أن أعود إلى البيت بمثل هذا المبلغ الكبيـر فأعرضه لسطو خادم أو لص أثناء نـومي ويضـيع تعـب والدتي هباء.. وإذ كان موعد إغلاق البنـوك لأبوابهـا قـد اقترب، فقد دلفت إلـى أول بنـك صـادفته فـي طريقـي، وأسرعت بإيداع المبلغ فيه.

وكان ذلك البنك هو بنك الاعتماد والتجارة.

وهو البنك الذي اضطررت بعد إعلان إفلاسه في العـام الماضي إلى بيع السترة والقميص اللذين كنت أخفي المبلـغ تحتهما يوم دخولي إياه.

على الرصيف

في مقال قصير لأحمد عبد المعطـي حجـازي نشـرته صحيفة "الأهرام" مؤخرا، ذكر حجازي أنه كان يسـير فـي شارع بمصر الجديدة، شهد رجلا يصـعد بسـيارته علـى الرصيف ليتركها هناك، مما سيضطر المارة السائرين علـى الرصيف إلى النزول منه عند السيارة، والسير بمحاذاته حتى يتجاوزوها فيصعدوا إليه من جديد.

"وقد اعترضته لأقنعه بإنزال سيارته، فاندهش لسـلوكي كأني قادم من المريخ، أو كأني أدعي حقا لا أملكه، فمـا دام الرصيف غير مملوك لي فهو من حقه.. ولم أكـذب خبـرا، طلبت قسم النزهة، ولم أكن أتوقع أن تصل الدوريـة بهـذه السرعة، عندئذ فقط لاذ البلطجي صاحب السيارة بـالفرار.. ولو أن كل أقسام الشرطة فعلت كما فعل قسم النزهة لاسترد القانون هيبته في البلاد!".

***

أعجبتني فكرة المقال، خاصة أني أكاد يوميا أصادف نفس هذا التعدي على الأرصفة أثناء تمشيتي اليومية.. وكـان أن قررت أن أسهم من جانبي في المجهود القومي بتصرف من صنف تصرف حجازي، من أجل أن يسترد القانون هيبته.

واليوم خرجت صباحا للتريض. ورغم أن السيارة التـي لمحتها كانت على الرصيف المقابل للرصيف الـذي كنـت أمشي عليه، فقد تعمدت أن أقطع الشارع إلى الرصيف الآخر حتى تعترضني السيارة المتربعة عليه، فأضطر إلى النـزول منه.

كتبت رقم لوحة السيارة في ورقة صغيرة، وعدت أجري إلى منزلي للاتصال تليفونيا بقسم الشرطة.. كنت على وشك الاتصال بقسم النزهة نفسه الذي أشاد حجازي به. غير أنـي تذكرت أن موقع السيارة لا يتبعه.. وإذ كنت على يقين مـن أن حجازي في مكالمته التليفونية المشار إليها قد أخبر مأمور القسم بأنه صحفي في "الأهرام" (مما كان له أثره في التعجيل بإرسال الدورية إليه)، فقد وصفت نفسي في الـبلاغ بـأني صحفي في "الأهالي" رغم أن هذا الوصف غير صحيح، وإن كنت أكتب مقالات في "الأهالي" بين الحين والحين، والمؤكد

أن تأثير الانتماء إلى "الأهالي" غيـر تـأثير الانتمـاء إلـى "الأهرام" (إيش جاب لجاب؟) غير أن كلها صحافة - علـى أية حال - وسلطة رابعة تعمل أجهزة الدولة حسابا لها، ومن المحتمل أن يكون مأمور القسم الذي أتبعه قـد قـرأ مقـال حجازي، فيحدوه الأمل في أن أشيد به في "الأهالي" (واهـي أحسن من مفيش).

أبلغته تليفونيا بواقعة شغل السـيارة للرصـيف العـام، وأخبرته بموقعها ورقمها. ثم عدت أعدو لاهثـا إلـى ذلـك الموقع في انتظار الدورية.. وصدق أو لا تصدق أنه مـا إن مضت ثلاث ساعات حتى كان الشاويش قد وصل.. صافحته وذكرت له أني المبلغ عن الواقعة، وناولته سيجارة من علبتي وأشعلتها بنفسي له.. وقد ظهر لي على الفور أنه متعـاطف مع قضيتي..

صاح بالبوابين الجالسين أمام العمارات على مقربة مـن مكاننا:

عربية مين دي؟

رأى البوابون أن شيئًا غير عادي يجري، فتركوا دككهـم الخشبية، واتجهوا نحونا على أمل أن يتطور الوضـع إلـى

خاتمة مثيرة، تصرف الملل عنهم، وتصلح لأن تكون موضوعا لأحاديثهم في المساء.

وكرر الشاويش سؤاله إليهم: عربية مين دي؟

التفت بعضهم إلى بعض في صمت، ثم انبرى أحدهم يقول:

- اتهيأ لي دي عربية موظف في الشركة اللي في العمارة هناك، بيركنها الصبح هنا، ويرجع الساعة أربعة ياخدها.
- حد يعرف شكله إيه وبيشتغل في أني دور؟
- لأ.

قال الشاويش وهو يهز رأسه مستنكرا:

- دي قلة ذوق إيه دي؟ فاكر الرصيف ملكه ولا ملك أبوه؟ مفيش دولة؟ مفيش حكومة؟ مفيش قانون؟ مفيش حد يوقفه عند حده؟ دي إيه الجليطة وقلة الأدب دي؟ حد منكم يطلع الشركة ويبلغها برقم العربية عشان صاحبها ينزل يشيلها.

عندئذ أتانا صوت قادم جديد، هو بـواب عمـارة بعيـدة بعض الشيء عن موقعنا، رأى تجمهرا في الطريق فأسـرع بالمجيء يستطلع الخبر.

- إيه الحكاية يا جماعة؟
- عربية مين دي؟
- دي ولا مؤاخذة عربية اللواء حسن عصـمت اللـي ساكن في الفيلا قصاد الأجزخانة. انتفض الشـاويش وامتقع وجهه الأسمر، ثم تنحنح وقال:
- متأكد؟
- تقريبا كده.
- طيب وماله.. معلهش.
- ثم ألقى السيجارة من يده، والتفت صوبي يقول:
- وسيادتك يعني صعب عليك قوي إنـك تنـزل مـن الرصيف المسافة الصغيرة دي اللي العربية شاغلاها، وترجع تطلع عليه تاني؟ عجايب والله؟ إيه يعني لمـا عربية موش لاقية مكان تركن فيه في الشارع تـركن على الرصيف؟ عملت جريمة؟ ارتكبت جناية؟ غلطت في البخاري؟ يعمل إيه الراجل؟ فاكر حضرتك إنـك

لما تبلغ قسم البوليس ونيجي نشيلها حانصلح الكـون؟ ما بقاش فاضل في البلد خلاص حاجـة وحشـة إلا العربية دي اللي راكنة على الرصيف؟ قال على رأي المثل: تيجي للهايفة وتتصدر! يا بيه إحنا عندنا شغل ومش فاضيين للتفاهات دي.

- وإذا بخادمة شابة تتقدم عندئذ من جمعنا وتقول:
- انتوا بتسألوا عن صاحب العربيـة دي؟ دي بتاعـة طالب في الجامعة أنا عارفاه، ساكن في الدور الرابع من العمارة اللي هناك دي، مربي دقنه، وعامـل زي ما يكون من الجماعات الإرهابية إياها.
- صاح الشاويش وقد امتقع وجهه من جديد:
- من إيه؟ بتقولي من الجماعات الإرهابية؟ الله يخـرب بيوتهم وبيت أبوهم! والله ما ضيع البلد غيـرهم ولاد الكلب دول.. وحضرته اللي في الجامعة مش عارف إن شغل الرصيف العام مخالفة بيعاقب عليها القانون؟ ولا فاكر إن مفيش قانون؟ روحي يا عروسة وحيـاة أبوكي اندهيه خليه ينزل يشـيلها، لانجيـب الـونش يشيلها له.

- إيه اللمة دي حوالين عربيتي؟

وانفرج جمع البوابين ليفسح الطريق أمام ضابط سمين في نحو الخمسين، ذي قامة طويلة، وشارب أسود مهيب.

- إيه الحكاية بالضبط.

بلع الشاويش ريقه بصعوبة، ثم قال متهتها:

- العربية دي عربية سيادتك؟

- أيوه عربيتي.. فيه إيه؟

- أصل الأفندي ده لقاها قال سده طريقه وهو بيتمشى، حضرته ما هانش عليه إنه ينزل في الشـارع يلـف حواليها، وراح مكلم قسم البوليس علشان يشـيلوها.. حضرته فاكر إن شيلها هوه اللي حايصلح الكـون.. قال على رأي المثل..

- طيب اتفضلوا غوروا من هنا، داهية تشيلكو كلكم.

شدد الشرطي من قبضته على ذراعي في انتظـار أمـر الضابط بشأني.. والتفت الضابط صوبي:

- بتشتغل إيه يا حضرة؟

- صحفي في جريدة "الأهالي".

صدر من منخاريه صوت ساخر، ثم قال:

- جريدة إيه يا بابا؟!!.. معلهش يا شاويش سيبه المـرة دي.

- تمام يا فندم.

ثم ركب اللواء سيارته وانصرف، مخلفا إياي وحدي على الرصيف.

عن سر

قوة بعض وزراء الإعلام

لقادة الثورات الناجحة دائما من المواصفات والمـؤهلات والكفاءات، ومن قوة الشخصية وسحر تأثيرها في الجمـاهير والأعوان، ما لا يتوافر في العادة لخلفائهم في السـلطة بعـد وفاتهم. ذلك أن متطلبات إنجاح الثورة؛ كالإحاطـة الكاملـة بتطلعات الشعب وما يعانيه من مظـالم، وعبقريـة التنظـيم والإدارة، والقدرة على إلهاب عواطف الجماهير ضد السلطة، وعلى الحفاظ – بفضل قوة الشخصية – على وحدة الصفوف داخل الحركة الثورية، تختلف اختلافا جذريا عن المـؤهلات المطلوبة من الطامح إلى خلافة قائد الثـورة فـي منصـبه. والغالب أن تنحصر هذه المؤهلات الأخيرة في موهبة الدس

والمكيدة، والغدر والوقيعة، وإدراك سبل نيل الحظـوة دون الغير لدى قائد الثورة في حياته، بالطاعة والنفاق والانصياع الكامل وإظهار الولاء، واستخدام الوسـائل السـرية لنيـل المآرب الخاصة؛ كإحاطة هذا الطامح نفسه بثلة من الأعوان على شاكلته، لهم ما له من أطماع ذاتية، ويسعى جاهدا إلـى ضمان تعيينهم في مناصب حساسة قياديـة؛ بحيـث يمكنـه الاعتماد عليهم، والاستعانة بهم، في الوقت المناسب.

وإزاء هذا الاختلاف الجذري بين شخصية قائـد الثـورة وشخصية خليفته، نلمس دائما تغيرا كبيرا في طـابع نظـام الحكم بعد وفاة مؤسسة. ولهذا التغير مظاهر شـتى، أهمهـا اثنان:

الأول: مبادرة الخليفة باستئصال شأفة زملائه مـن قـادة الثورة، واتهامهم بالخيانة لمبادئ الثورة أو لقضية الوطن، أو بالتآمر من أجل الإطاحة به، أو بالفساد وغير ذلك. فهـو إذ يدرك جيدا أنه مدين للغدر والدس والمكيدة بالوصـول إلـى السلطة، لا يستبعد أن يلجأ غيره إلى نفس الوسائل للـتخلص منه.

والثاني: أن إدراك الخليفة للفارق الشاسع بينه وبين سلفه، وخشيته من أن تقدم الجماهير على المقارنة بين الاثنين، ومن أن تتبين افتقاره إلى المواهب الباهرة التي كان يتمتع سـلفه بها، يدفعانه دفعا إلى اللجوء إلى وسائل الإعلام والدعايـة، من أجل موازنة الكفتين، أو حتى ترجيح كفته هو على كفـة الزعيم الراحل، ومن أجل خلق شعبية له عند الجماهير تماثل أو تفوق شعبية قائد الثورة، وهو الذي يدرك تماما أنه لا أمل في نيله هذه الشعبية دون الاعتماد على الإعـلام والدعايـة، إزاء افتقاره إلى كافة مؤهلات الزعامة ومقوماته.

وزراء الإعلام

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف الثاني، غالبا ما يلجأ خليفـة قائد الثورة إلى الاستعانة بوزير للإعلام هـو مـن نوعيـة خاصة من الناس. فهو عادة مـن أولئـك الـذين يفضـلون ممارسة سلطانهم من وراء سـتار؛ إمـا لافتقـارهم إلـى مواصفات الزعيم، أو لأي سحر خـاص، أو لفضـائح فـي ماضيهم ظلت عالقة في أذهان الناس بحيث فقدوا الأمل فـي منصب الزعامة. غير أن شهوتهم للسلطة تظل قائمة فتدفعهم إلى محاولة إحرازها عن طريق نفـوذهم وحظـوتهم لـدى

الزعيم، وعن طريق تولية أصـدقائهم المراكـز الحيويـة، فيتحكمون في النهاية في جهاز الدولة بأسره، مـع التظـاهر دائما بالتواضع، والخلو من الطمـوح الشخصـي، وبـأنهم "صوت سيدهم" الممتثلون لإرادته وأوامره، فعشقهم للسـلطة الفعلية إذن هو أعظم من عشقهم للمجـد وذيـوع الصـيت، خاصة أنهم – كالخصيان في الحريم، أو كعشيقات الملوك – لا أمل لديهم في تولي الزعامة أو العرش في يوم ما.

وكثيرا ما يحار الرجل العادي – بل والمثقفـون – إزاء تفسير ما يتمتع به ذلك الوزير من سـلطة وهيلمـان لـيس بمقدور أحد المساس بهما، حتى إن كان رئيسا للـوزراء أو مستشارا للزعيم، وحتى يبدو وكأنما أضحى الـزعيم نفسـه غير قابل – أو غير قادر – على تنحيته عن منصـبه. وقـد يذهب هؤلاء في محاولتهم التفسير إلى أن ثمة دولة أجنبيـة أقوى من دولتهم لها مصلحة في بقاء هذا الوزير بالنظر إلى ما يؤديه لها من خدمات، أو إلى أن الوزير تمكن بأسـاليبه الخاصة من إقناع رئيس دولته بأنه يخدم أغراضه "القوميـة" على خير وجه ممكن، وعلى نحو ليس بوسع إنسـان غيـره النهوض به.

غير أني أميل إلى الظن أن كفاءة الـوزير فـي "تلميـع" صورة رئيس الدولة الجديد هي المسئولة عن تعاظم سلطانه. فالملاحظ أنه كلما قلت الشواهد على كفاءة الزعيم ومزايـاه، زادت الحاجة إلى تكثيف الدعاية له، وهو ما يتطلب تأكيـدا دائبا لمواهبه وحنكته، وإعلانا مسـتمرا عـن ثقـب نظـره وعبقريته؛ حتى يحظى بالشعبية المطلوبة، وبتصديق العامـة لمزاعم أجهزة الإعلام. وقد استفادت هذه الأجهزة اسـتفادة كبرى، في مضمار فن الدعاية، من الإعلانات عن السلع؛ إذ يؤمن القائمون على هذه وتلك بأن من شأن الإكثار والتكرار والتأكيد، والاستعانة بأصوات أو أقلام نجوم قريبة من قلوب الجماهير - إثارةَ الاعتقاد اللاعقلاني لدى هـذه الجمـاهير بصدق ما يقال، وتصديقها للمزاعم التي تكرر بلهجة مؤكـدة واثقة، دون حاجة إلى الاستناد إلى أسباب أو حقائق.

ونجاح وزير الإعلام في هذه المهمة هو أكبر ما يشـغل بال رئيس الدولة من بين كافة مشاغله، وهو ما من شأنه أن يضفي في نهاية الأمر تلك الأهمية الكبرى على منصب ذلك الوزير وشخصه.

مثل تاريخي

فإن احتاج القارئ إلى مثال تاريخي لما ذكرناه، سقنا إليه مثل وزيري الإعلام في عهدي لينين وستالين؛ ذلك أن لينين، بكل حنكته السياسية، وألمعيته، وقدراته المشهود له بها من الجميع، وطهارة يده ومسلكه الشخصي، لم يكن في حاجة إلى "تلميع"، أو إلى أبواق دعاية تكرر ذكر مفاتنه وتسبح بحمده صباحا ومساء؛ لذلك فإن منصب وزير الإعلام في عهده لم يكن ذا شأن، واقتصرت مهام ذلك الوزير على بيان إنجازات الحزب والتوعية ببرامجه وأهدافه. أما وقد خلفه ستالين في الحكم بفضل مناوراته ومؤامراته ودسائسه، وإثارته الوقيعة بين قادة الثورة من أمثال تروتسكي وبوخارين وكامينيف وزينوفييف (وجميعهم يفوق ستالين كفاءة وثقافة وتمرسا في الحياة السياسية)، فقد رأى بوضوح أن مقارنة الشعب الحتمية بينه وبين سلفه لن تكون في صالحه على الإطلاق، وأنه لا يتمتع من الشعبية بقدر يؤْبه له، ولا له من الصفات ما يؤهله لاكتساب هذه الشعبية في أي وقت من الأوقات. فكان أن استعان بوزير للإعلام من الصنف الذي تحدثنا عنه، يسخر كل وسائل الإعلام والدعاية

من أجل تمجيد سيده، ويحرص على أن تنشر كافة الصحف صورته في صفحتها الأولى في كل مناسبة، هامة كانـت أو غير هامة، وأن تحمل اللافتات الكبيرة العديدة في الشـوارع جملا مقتبسة من خطبه، مهما كانت غبيـة، وأن يسـتجاب المأجورين من الكتاب للتغني بمناقب الزعيم القائـد، البطـل الملهم، وليعدوا أفضاله على الاتحـاد السـوفييتي، بـل وأن ترافق الإذاعة وكاميرات التليفزيـون السـيدة قرينتـه فـي زياراتها للملاجئ والمستشفيات والمكتبات، ثم تنشر صورها في الجرائد بعد ذلك وهي تربت على رأس هـذه الطفلـة أو تلك، أو تبتسم ابتسامة رفيقة رقيقة لهذا المريض أو ذاك.

وكانت النتيجة أن أضحى ذلك الوزير أقرب الناس إلـى قلب ستالين، باقيا على مر الأيام والسنين فـي منصـبه، لا يمسه تطهير، ولا يشمله تعديل وزاري، وعرف لـه أنـاس يتولون مناصب أسمى أو أكثر نفوذا في الظاهر (من أمثـال خروشوف ومولوتوف وبولجانين ومالينكوف) حظوتـه لـدى الزعيم، فكانوا يتوددون إليه ويتقربون منه، ويعملون حسابه ويخافون شره.

سلاح ذو حدين

غير أن مثل هذه الدعاية التي تطلقها لرئيس الدولة أجهزةُ الإعلام، إنما هي سلاح ذو حدين، ولا بد أن تسفر في نهاية الأمر عن عواقب معينة:

- فرئيس الدولة، مع كونه هو الذي أعطى إشارة البدء لهذه الأجهزة كي تشرع في دعاياتها، ثم في تكثيفها؛ لحاجته الماسة إلى ما تردده من أكاذيب، غالبا ما ينتهي الأمر به إلى تصديق هذه الأكاذيب، خاصة وهو يرى ويسمع ويقرأ ما يردده غالبية الكتاب والمفكرين والفنانين من ثناء عليه، وتغزل في مناقبه ومحامده، فيخال نفسه زعيما فذا، وإلها لا شريك له، لا يطيق نقدا لسياساته، أو رأيا مخالفا لما ارتآه، أو رجلا قويا إلى جانبه. فإذا هو وقد أصبح يرى أنه غير مطالب بإثبات مواهبه وأهليته للحكم، ما دام ثمة من ينوب عنه في القيام بهذه المهمة.
- ثم إن سيطرة النظام على وسائل الإعلام، والإحساس المتنامي بمرور الوقت لدى رئيس الدولة بالحاجة إلى إحاطة نفسه دائما بالمنافقين والطبالين والزامرين، يميلان إلى إقصائه شيئا فشيئا عن الواقع، وازدياد جهله بأمور

كان من المهم أن يعرفها، فإذا هو يخـال كـل شـوارع الدولة في نظافة الشوارع التي يمر بها موكـب، وكـل وجوه أبناء شعبه تسطع بالابتسامة التي يراها على وجوه أفراد حاشيته، وكل المصانع أو المستشفيات تعمل بنفس الكفاءة التي لمسها أثناء زيارته الصباحية لهذا المصنع أو المستشفى. ثم إذا به وهو الذي تقدم إليه كل يوم تقـارير مخابراته ووزاراته ومعاونيه وسكرتاريته وقد أضـحت إحاطته بأحوال دولته أضعف من إحاطة أي عابر سـبيل يجول في شوارعها، ويستخدم مواصلاتها، ويقطن فـي حي من أحيائها الشعبية.

- كذلك فإن الإفراط في تمجيـد رئـيس الدولـة بـالحق والباطل، وظهور صورته وتغطية أخبـاره يوميـا فـي الصفحة الأولى من الجرائد، وفي مستهل كافة نشـرات الأخبار الإذاعية والتليفزيونية، وتكرر المديح لـه علـى ألسن وأقلام الخطباء والكتاب، والحديث عما تـنعم بـه الرعية من رفاهة وحرية وسعادة في عهده، وعما سيأتي به مستقبل أيامه من خيرات أعظم حتى من تلـك تـنعم اليوم بها، لا بد من أن يحدث - بمضي الوقت - أثـرا

عكسيا لدى الجماهير: مثقفيها الآن، وغوغائها فيما بعد. فالأصل في الدعاية والإعلان أنهما يخاطبـان الرغبـة، ويستميلان الجمهور عن طريق الوعد بإشباعها، وبيـان القدرة على تحقيقها، حتى إذا ما اتضح للجميع أن القدرة على تحقيق الوعود قد أصابها الشلل، وأن البطالـة فـي ازدياد، وارتفاع الأسعار في ازدياد، ومشكلات الإسكان والمواصلات في ازدياد، وأن المجد والرخـاء والتقـدم والأمن أمور لا سبيل إليها ما دام هذا النظام بعينه قائما، قوبلت الدعاية من الجمهور بالسـخرية، وقوبـل زمـر الزامرين وثناء المفكرين والصحفيين بالاحتقار العميـق الذي هما أهلٌ له.

***

إن المواصفات المطلوبة من خليفة قائد الثورة، والكفاءات اللازمة لوزير إعلامه، هي دائما صفات غير حميدة، تجعل من النظام الذي يحتضنهما نظاما فاسدا لا يمكـن أن يخـدم الصالح العام.. وكلما قويت وسائل الإعلام وزادت جهودهـا من أجل "تلميع" صورة الزعيم، قويت ردود الفعل العكسـية لدى الشعب.. فإن كان الهدف من الدعاية هنا هـو تأجيـل

الثورة، فإن هذه الدعاية نفسها تجعل الثورة عند حدوثها أكثر حدة، وأشد عنفا..

إن شئت فقلل، وإن شئت فكثر!

(١)

حين قال المسيح لسائله الشاب: "إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع ما تملك وأعط الفقراء" لم يكن يقصد حل مشكلة اجتماعية، ولا حتى تخفيف العبء عن الفقراء، وإنما كـان يتحدث عن الصالح الشخصي لذلك الشـاب، وسـبيل نجـاة روحه ونقاء نفسه؛ إذ اعتبر ثراءه مهلكة مفسدة، وحائلا دون تبين الحق. وهو المعنى الكامن فـي عبـارة: "إن أردت أن تكون كاملا"..

وقد فهم الحسن البصري ذات المعنى حين شـاهد أميـرا يضرب بالسوط مغلوبا على أمره ضربا مبرحـا، فخاطـب الأمير بقوله: "والله ما تضرب إلا نفسك، فإن شئت فقلل، وإن شئت فكثر" فهنا اهتمام بنفس الأمير وما يلحقها من ضـرر فادح طويل الأمد نتيجة لما يرتكبه من ظلـم بـين، يفـوق الاهتمام بمن وقع الظلم عليه.

وهو أيضا ما فهمه برتولت بريخت حين كتب في إحـدى قصائده يقول: "أتعرف سبب رفضي لارتكاب هـذه الفعلـة الدنيئة؟! لأني لا أزال راغبا في سماع الموسيقى في خريـر الماء، وأن أطرب لغناء الطير وحفيف أوراق الشجر".

***

في كل من هذه الحالات الثلاث، نتبين نظرة ثاقبة لطبيعة النفس البشرية، وقوانين عملها، وسبل إنمائها والحفاظ علـى نقائها، وتفسيرا لدواعي الحرص على هذا النقاء.. هي نظرة معملية بحتة، لا علاقة لها بـوعظ أو ديـن، أو ضـمير أو أخلاق.

***

فإن كان الأفاضل من أجدادنا وآبائنا قد فهموا جانبا مـن هذا الفكر، وألزموا أنفسهم بالعمل على هديه، فقد أخطئوا في تسميته وتبريره.. نسبوه إلى الضمير، أو الالتـزام بتعـاليم الدين ومقتضيات الخلق الرفيـع، وتحـدثوا عـن كيـف أن "كرامتهم" أو "كبرياءهم"، أو "أَنَفَتهم"، أو ما شئت، تأبى عليهم التدني إلى ارتكاب هذا الظلم أو ذلك العمل الدنيء، وغفلـوا عن الاعتبار الحاسم في الأمر الـذي فطـن إليـه المسـيح

والحسن البصري، وبرتولت بريخـت، ألا وهـو الأهميـة السيكولوجية للحفاظ على نقاء النفس الـذي يعكـر السـلوك الشائن من صفوه، من أجل فهم للحيـاة وللنـاس أصـوب، وراحة بال حقيقية مستقرة.

(٢)

أذكر أنه حين وِلد للملك فاروق ابنُه أحمد فؤاد في ينـاير ١٩٥٢، طلعت الصحف والمجلات المصرية تهلل وتبـارك، وتتظاهر بالفرح وتنافق، عدا مجلة واحدة هي مجلة "الثقافة" التي كان والدي صاحب امتيازهـا. ثـم كـان أن اتصـل المستشار الصحفي للملك، وهو كريم ثابت، بوالدي تليفونيا، يخبره أن الملك غاضب حانق، وهدده بأنه مـا لـم تنشـر "الثقافة" تهنئة للملك في عددها التالي فسيصدر الأمـر إلـى وزارة المعارف بوقف اشتراكات المدارس المصـرية فـي المجلة، وهو ما كان سيؤدي في واقع الأمر إلـى إفلاسـها. فاجتمع أبي برئيس التحرير، وهو زكـي نجيـب محمـود، وأطلعه على حقيقة الوضع، وأخبره أنه شخصيا عاجز عـن أن يخط بقلمه تهنئة للملك، أو أن يعبر عن "فرح" لا يشـعر به، وعن "أهمية" حدث لا يراه هاما.. ثم ترك الأمر برمتـه

لزكي نجيب محمود ليرى فيه رأيه، فإن شاء تجنب إفـلاس "الثقافة" كتب الدكتور زكي تهنئة قصيرة للملك، وإن رأى أن ضرر النفاق يفوق ضرر إغلاق المجلة لم يكتب.

وكان أن طلع العدد التالي من "الثقافة" يحمل في صدارته مقالا بالغ القصر بعنوان "مولد أميـر" بقلـم زكـي نجيـب محمود. وبالرغم من قصر المقال والفتور الجلي في عبارات التهنئة فيه، ووضوح أن هذا المقال المتأخر قد خـرج "مـن تحت ضرس" كاتبه، ورغما عن إرادته، فقد استشطتُ غضبا حين وقع بصري عليه، وبادرت بإرسـال خطـاب عنيـف اللهجة إلى الدكتور زكي أعبر له فيه عن شدة ألمي وخيبـة أملي إذ ينضم مثقف مثله إلى زمرة الغوغاء المنافقين.

ومضي يومان.. وإذ كنت جالسا ذات ليلة أقرأ في غرفتي بالطابق الثاني من منزلنا، سمعت من ينادي بالحديقة:

- يا حسين! يا حسين!

فأطللت برأسي من النافذة.

- حسين؟

- نعم.

- أنا زكي نجيب.

- قلت: والدي ليس هنا.
- قال: لا أريد والدك وإنما أريدك أنت.. انزل.
- فنزلت، وخرجنا إلى الطريق نتمشى وقد قبض بيده على ذراعي وهو يكرر في صوت حزين:

أنا آسف.. أنا آسف.. أنا آسف.. والله ما خطر ببالي قط أن أكتب ذلك المقال، وما كنت لأكتبه لولا ما قصه علي والدك من نبأ مكالمة كريم ثابت التليفونية معه، ولا بوسعك أن تتصور ما شعرت به بعد نشره من جزع وتأنيب ضمير، خاصة بعدما تلقيت رسالتك.. أنا آسف.. أنا أسف.. وأعدك ألا أعود إلى مثلها أبدا.

ما أروي هذه القصة إلا لأذكر من عساه أن يكون من شيوخنا قد نسي، ومن عساه ألا يكون من شبابنا قد عرف، ما كان يتمتع به آباؤنا من "أَنَفة" و"كبرياء" و"كرامة".. لقد كنت وقتها طالبا في الجامعة دون العشرين، وكان زكي نجيب محمود مفكرا مرموقا في السابعة والأربعين، ورئيس تحرير أكبر مجلة ثقافية في العالم العربي. ومع ذلك فقد رأى من واجبه أن يتوجه بنفسه إلى بيت ذلك الطالب للاعتذار عن مقال كتبه، وليطمئنه على أنه لن يعود إلى مثلها قط.

(٣)

ثم لننظر بعد ذلك في حالنا اليوم؛ في حال مـن يسـمون بالمفكرين والكتاب والصحفيين عنـدنا الآن. قـد انحصـر شغلهم الشاغل في وسائل الكسب، والكسب السريع إن أمكن. فما من أحد قد عاد يطيـق الصـبر أو التـدرج، أو يـؤمن بجدواهما، أو يشك في صحة القول بأن الغاية تبرر الوسيلة. وقد انتهكت أعراض الجميع بحيث بات من الظلم أن نصـم المومس وحدها بأنها بائعة العرض. فما فعلته لا يتجاوز مـا يقترفه هؤلاء في حق أنفسهم، ولنفس الدافع، وربما بصـورة أدنأ، خاصة أن هدفهم لم يعد مجرد الحصول على ما يعينهم على مواجهة أعباء الحياة، وإنما أصبح الاسـتمتاع، وإلـى أقصى حد متاح، "بأطايب الحياة ومباهجها" وهو مـا لـيس بالوسع تحقيقه بالاعتماد على الدخل الضئيل الذي تدره عليهم كتاباتهم داخل مصر.

يقول برناردشو: "طريقان لا ثالث لهما إلى إحراز الثروة: الزواج من امرأة غنية، أو الكدح لمدة عشـرين عامـا ثـم الزواج بعدها من امرأة غنية!" وقد وعى كتابنا وصـحفيونا الآن جيدا هذه "الحقيقة ": فالمرسيدس التي لن يتيسـر لـك

شراؤها ولو بعد عشرين عاما من التعب والنصب، قد بات بالإمكان ضمان اقتنائك إياها بفضل الحظوة والمنصب العائدين عليك نتيجة تدبيجك لسلسلة من مقالات المديح في هذا الحاكم أو ذاك، أو ضمان إهدائها إليك متى رضيت عن كتاباتك هذه الأسرة الخليجية الحاكمة أو تلك.. وما عاد ثمة من يعمل بنصيحة سفيان الثوري لأحد العلماء.

"إن دعاك الأمراء لتقرأ عليهم ﴿ **قُلْ هو اللهُ أَحد** ﴾ فلا تمضِ ولا تقرأها!".

قد أضحى رضا القارئ أهون ما يعنيهم وآخر ما يهمهم. وإنما هو رضا السادة الجاثمين بأجسادهم الغليظة المرفهة على حقول النفط، ورضا الرؤساء الذين يملكون توزيع الامتيازات والمناصب. أما القارئ ففي ألف داهية. فهو لا يملك نفطا أو سلطة.. إن ساء هذا الحاكم أو ذاك ما ذكره محمد حسنين هيكل في كتابه "حرب الخليج" سلط عصبة من هؤلاء لمهاجمته وتوجيه السباب البذيء إليه، دون أن يضطر الحاكم إلى أن يكلف نفسه حتى أن يفتح فاه بكلمة. وإن غضب على مفكرين مصريين إذ يعبرون عن آراء تضايقه، أو رآها مهددة لسلطانه، فإنه يكفيه أن ينهج نهج بابوات

العصور الوسطى، فيصدر قرارا بالحرمان، ويـذيع قائمـة بالأسماء التي يريد من الصحافة ووسائل الإعلام المصـرية (التي أضحى معظم رجالها بمثابة الحرس البريتوري لحكـام دول الخليج) أن تتوقف تعاملها معهم. غير أن هذا لـيس مـا يعنيني هنا، ولا ما يعنيني هنا حقيقة أن الحياة الفكرية فـي مصر تشهد الآن أكبر قدر من العهر والدعارة عرفتـه فـي تاريخها كله.. ما يعنيني – ويذهلني – هو أن أرى غالبيـة الكتاب والصحفيين ورجال الإعلام عندنا وقد نسوا تماما تلك الحقيقة السيكولوجية الساطعة التي تحـدث عنهـا المسـيح والحسن البصري وبيرتولت بريخت: وهي أنهم بمثـل هـذا السلوك إنما يضرون أنفسهم هم، وأنهم باتوا أحرى بالإشفاق والحسرة من القارئ الذي يستغفلونه دوما فيبيعون له الباطل على أنه حق، والزائف على أنه صحيح.

لم أر أحدهم يخفي، ولا سمعته ينكر، هذا السلوك.. فهـم دائما – بكل صراحة وعلانية وقحة – يتحدثون عما يفعلون، وعما يقبضون، ضاحكين ساخرين: "أحسـن مـن عيـنهم!" "رزق الهبل على المجانين!" "أليس قبضنا لهذه المبالغ مـنهم خير من بعثرتهم إياها على نساء أوروبا، وموائد قمار مونت

كارلو؟" "الكل يعلم حق العلم أننا بمدحهم غير جـادين، فمـا ضرر مدحنا إذن؟ لقد أشدنا بصـدام حسـين قبـل غـزوه للكويت، وأخذنا أمواله مقابل المدح فيه، ثم انقلبنا عليه بعـد هزيمته، وأخذنا أموال أعدائه مقابل الطعن فيه.. وقد مـدحنا عبد الناصر ثم هجوناه بعد موته، وهللنا للسادات ثم لعناه بعد اغتياله، دون أن نطالب أحدا من قرائنا بتصديق لا ما كتبناه وقتئذ ولا ما نكتبه الآن.. فما مبرر هذه الخشية منك إذن من تأثير كتاباتنا في عقول القراء ونفوسهم؟".

بيد أنها أنفسهم هم هي التي أخشى عليهـا عاقبـة هـذا السلوك.. فهم لم يعودوا الآن يتحدثون حتـى عمـا أسـماه أجدادنا وآباؤنا بالكرامة والكبرياء والأنفة.. وإنمـا أسـمعهم يتحدثون عن أهمية اقتناء بيت في مارينـا علـى السـاحل الشمالي، ومرسيدس من طراز فانتوم، وهو مـا لا يضـمنه غير فعلة كفعلة فاوست إذ يبيع روحه للشيطان، وغير بيعهم لأقلامهم، والتضحية بأعراضهم الفكرية.

هم إذن لا يحترمون ممدوحيهم (وهـم يعلمـون حقيقـة سلوكهم)، ولا ممدوحوهم يحترمونهم (وهم يـدركون مـدى حاجتهم إلى أموالهم) وهم لا يحترمون قراءهم (وهم يعلمون

أنهم لا يملكون ضرا ولا نفعا)، ولا قراؤهم يحترمونهم (وهم يدركون حقيقة بواعثهم).. وأكاد أجزم بأنه ما مـن خطـر يتهدد بلادنا وشبابها قدر ما يتهددهما ما نلاحظه اليـوم مـن افتقار الكافة إلى احترام الكافة.

(٤)

لقد حضرت خلال شهر أغسطس ١٩٩٢ ندوة ثقافية تحت رعاية السيدة قرينة الرئيس.. نبهتنـا بطاقـة الـدعوة إلـى ضرورة الحضور قبل موعد وصول السيدة بسـاعة علـى الأقل. فوصلنا قبل الموعد بساعة، وانتظرنا ساعة إضـافية لتأخر وصولها عن الموعد المقـرر. وإذ جلسـت أراقـب طابورا طويلا يتألف من رئيس الوزارة والـوزراء وكبـار رجال الرئاسة والدولة وأراقب تعـابير وجـوههم وانحنـاء ظهورهم إذ يسيرون خلفها وهي تدلف إلى صـالة النـدوة، ومللهم الشديد أثناء الاستماع إلى خطب النفـاق والكلمـات الطويلة من رجال "الفكر والثقافة" وتخيلت ما يشـعرون بـه حتما من أسف على اضطرارهم إلى إضاعة وقتهم في ندوة لا تهمهم في شيء، أو من حاجة ماسة إلى النـوم، أو مـن رغبة في قضاء ولو ساعة واحدة مع عائلاتهم؛ وإذ لمسـت

من المتحدثين أن أقل ما يشغل بالهم هو حـال الثقافـة فـي مصر التي هي موضوع ندوتهم، وأن شاغلهم الأكبـر هـو رضا راعيتها ورضا "الأكابر" عنهم، إذا بي أرانـي – دون وعي مني ودون إرادة – أردد بصوت خافت ولكنه مسموع:

والله يا جماعة الحكاية ما تستاهل.. والله مـا تسـتاهل.. والله ما تستاهل.

وكانت "الحكاية" فـي مفهـومي هـي فـيلات مارينـا، ومرسيدس الفانتوم، ورضا الأكابر، وبهاء المنصب، وكل ما يرى فيه هؤلاء الأمل المنشود، وغاية الحياة، خاصة أنه كان قد سبق للسيد المسيح أن نبه الناس إلى هذه الحقيقة بتسـاؤله منذ قرابة ألفي عام:

ما الفائدة في أن يكسب المرء العالم، ويخسر نفسه؟!

المؤلف

- ولد في القاهرة في ١٩ يونيو ١٩٣٢، وهو نجل المؤرخ الإسلامي الكبير الدكتور أحمد أمين.
- تخرج في كلية الحقوق، جامعة القاهرة، عام ١٩٥٣، ثم درس الأدب الإنجليزي بجامعة لندن.
- عمل محاميا، فمذيعا بالإذاعة المصرية، فمذيعا بالقسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية بلندن.
- التحق بالسلك الدبلوماسي المصري، وعمل ملحقا فسكرتيرا ثالثا بالسفارة في أوتاوا (كندا) فسكرتيرا ثانيا بالسفارة في موسكو (روسيا)، فمستشارا بالسفارة في لاجوس (نيجيريا)، فوزيرا مفوضا بالسفارة في بون (ألمانيا) فقنصلا عاما في ريو دي جانيرو (البرازيل)، فسفيرا لمصر في الجزائر.
- انتدب خلال عمله بوزارة الخارجية مستشارا فنيا لوزير الثقافة، وأعير للعمل نائبا لمدير مركز الأمم المتحدة للإعلام بالقاهرة.
- يجيد الإنجليزية والفرنسية والروسية والألمانية والبرتغالية.
- حصل كتابه "دليل المسلم الحزين" على جائزة أحسن كتاب في معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ١٩٨٤. وقد صدرت الترجمة الفرنسية له في باريس في أبريل ١٩٩٢.
- كما أهدت له الحكومة الألمانية وسام الاستحقاق الأكبر عام ١٩٨٣.
- متزوج وله ثلاث بنات.

- من مؤلفاته: دليل المسلم الحزين (١٩٨٣) – الحـروب الصـليبية (١٩٨٣) – فضل الإسلام على الحضارة الغربية (١٩٨٣) – ألـف حكاية وحكاية من الأدب العربي القديم (١٩٨٤) – حول الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية (١٩٨٤) – في بيت أحمد أمين (١٩٨٥) – التسامح الديني والتفاهم بين المعتقـدات (١٩٨٦) – تكنولوجيـا تنمية المجتمع العربي (١٩٨٧) – الإسلام في عالم متغير (١٩٨٨) – أزمة حقوق الإنسان في الوطن العربـي (١٩٨٩) – مسـرحية "الإمام" (١٩٩٠) – مصابيح أقوال العـرب (١٩٩٠) – حوليـات العالم الإسلامي (١٩٩٠) – المائة الأعظـم فـي تـاريخ الإسـلام (١٩٩١) – رسالة من تحت الماء (١٩٩٢) – الاجتهاد في الإسلام (١٩٩٣).
- له العديد من المقالات والبحوث نشرت فـي مجـلات – الثقافـة – الرسالة – المجلة – المسرح – روزاليوسـف – صـباح الخيـر – الأهرام الاقتصادي – أكتوبر – المصور – الطليعة – أدب ونقـد – الهلال – اليسار – إبداع – العربي الكويتية – الدوحـة القطريـة، وجرائد: المصري – الأخبار – الجمهورية – الأهـالي – أهـرام ويكلي – الوطن الكويتية – الشعب الجزائريـة، كمـا أذيعـت لـه تمثيليات في إذاعة الشرق الأدنى، والإذاعتين المصرية (البرنـامج الثاني)، والبريطانية (القسم العربي).